

دكتور عبد الودود شلبى



الأصول الفكرية لحركة

المهدي السوداني ودعوته

مكتبة الأديب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ١١٨١٥٠٠ ٣٩٠٠

دكتور عبد الوالد شاذلي

الأصول الفكرية لحركة
المهدي السودانى
ودعويته

الناشر
مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأدب - ت : ٢٩٠٠٨٦٨



محمد أحمد عبد الله المهدي السوداني

مقدمة الطبعة الثانية

محمد أحمد عبدالله

هذا هو الاسم العائلي لمهدى السودان، غير أن الرجل تجاوز بجهاده وعبقريته حدود العائلة والوطن إلى أقطار العالم الإسلامى شرقاً وغرباً.. فلم يكن يتصور أحد من رجال السياسة أو من رجال الحرب أن يهزم بريطانيا، وأن يتصر على أشهر قادتها الذى كان يعرف باسم القائد الذى لم يهزم أبداً...!

لقد بدأت الثورة التى قادها «المهدى» فى أعقاب الثورة «المراية»، وكانت الأسباب التى دفعت «أحمد عرابى» إلى الثورة فى مصر، هى الأسباب نفسها التى دفعت «المهدى» إلى الثورة فى السودان؛ فلم يكن غريباً أن يتحالف - من بقى - من جنود الثورة المراية فى مصر مع جنود الثورة المهدية فى السودان، وقد كان الشيخ «أحمد العوام» المصرى الأزهرى أنصح دليل على هذا الالتحام والتقارب. فبعد هزيمة «عرابى» نفى الكثير من رجاله إلى السودان، كان من بين هؤلاء المنفيين الشيخ «العوام» الذى خطط لتفجير مخزن الذخيرة فى الخرطوم، وكان من نتيجة هذا التخطيط وهذا التدبير أن أمر الجنرال الإنجليزى «جوردون» بإعدامه علناً فى مدينة الخرطوم..

لقد كان «مهدى السودان» زعيماً عبقرياً بكل المقاييس؛ فلم يتخضع بكل الوعود التى حاولت بريطانيا إغراءه بها. لقد رفض أن يكون سلطاناً أو ملكاً، وكان يرى فى حياة الزهد قمة السعادة والرضا، وحين حاول «جوردون» مساوته بإطلاق سراح الأسرى من أهل بيته وأقاربه، رفض هذه المساومة وقال: «لنا فى حاجة إلى واحد من هؤلاء الذين رفضوا

اجتهاد معنا وآثروا الحياة مع الذل على الحياة مع العزة والجهاد.. ومن يرضى
بأخياة مع الذل.. عليه أن يصبر على عض الكلاب..

لقد كان «مهدي السودان» أبعد نظراً من معظم حكام السودان الذين
تولوا إدارته سواء قبل الاستقلال أو بعد الاستقلال..! فقد رفض أن يصبح
السردانُ سرتعاً للبعثات التصيرية؛ التي جاء بها «غوردون».. فقد كان
«غوردون» مسيحياً متعصباً، وكان يهدف من أول يوم تولّى فيه الحكم في
الخرطوم أن يفصل جنوب السودان عن شماله، وكانت هذه المحاولة من
جانب «غوردون» من أهم الأسباب لقيامه بالثورة؟!

وقد كان سقوط الخرطوم ومصرع «جوردون» على أيدي جنود المهدي
وأنصاره حدثاً ارتجت له جنات أوروبا.. وقد بكت الملكة «فيكتوريا» بعد
سباعتها هذا الخبر، ودقت أجراس كنيسة «كانتريري» حزناً على وفاة شهيد
المسيحية البطل! والسودان المعاصر لا يزال في حاجة إلى مثل هذا الزعيم
وهذا الرجل!!

وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن «دار المعارف» غير أن
الحاجة إلى إعادة طبعه لا تزال قائمة، كما أن الحاجة إلى دراسة سيرة هذا
البطل وحياته لا تزال ضرورة وواجبة.

وفي دار «مكتبة الآداب» - إحدى دور النشر العربية والمحترمة - تجدد
طبعه: بنية إطلاع الأجيال الجديدة على إحدى الصور المشرقة لزعيم عربي
إسلامي مجهول.

والله من وراء القصد

وله الحمد والشكر من قبل ومن بعد

دكتور عبد الوهيد شلبي

رجب الفرد ١٤٢٢ هـ

سبتمبر ٢٠٠١ م

مقدمة

السودان

كلمة امترجت بها عواطفى منذ كنت حدثاً صغيراً فى « كتاب القرية » . . كل ما كنت أعرفه عن السودان لم يكن يتجاوز تلك الحكايات والقصص التى كان يحلو للحاج « على » الجاويش القديم فى حملة كشنر - تكرارها فى كل ليلة ، وإلهاب مشاعر الناس ببطولته فى هذه الحملة . .

ومنذ التحاقى بالأزهر الشريف سنة ألف وتسعمائة وإحدى وأربعين بدأت عيناى تتفتح على كثير من حقائق العصر ، وتطورت معرفتى بالتاريخ بعيداً عن حكايات الجاويش وأساطيره المفعمة بالحماسة والفخر .

ولقد وقع فى يدي كتاب اشترته من أحد الوراقين بطريق المصادفة . . كان هذا الكتاب عن السودان ومن خلال نصفه وقعت عيناى على صفحة تقول : « إن محمد الدفتردار أحد عمال محمد على فى حكم السودان كان يخرج لاصطياد الأدميين على عادة غلاة القراصنة والاستعماريين فى ذلك العهد » .

كانت مصر فى هذه الفترة محكومة بآخر ملك من ملوك هذه الأسرة التى أفرزت الكثير من الطغاة والجبابرة ، وكانت الحرب العالمية الثانية فرصة لتحرير الشعوب من قبضة الاستعمار والظلم ، وبخاصة بعد إعلان ميثاق الأطلنطى الذى وقعه « تشرشل » و « روزفلت » و « ستالين » و « تشانج كاي شيك » .

كانت مصر فى مقدمة الشعوب النائرة على العبودية . وكانت الأمانى القومية عند المصريين منحصرة فى مطلبين أساسيين هما : السودان . والحرية .

والظواهر التي يفوقها طلبة الأزهر كانت نحتاج شوارع القاهرة وهي تهتف
قائلة :

مصر والسودان لنا . . . ولندن إن أمكننا . . .
لكن ماذا كان يفهم حكام مصر عن السودان في ذلك الوقت . . . حتى يطالبوا
بضمه ؟ ثم ماذا كانت الحجة التي يعتمد عليها خلفاء محمد علي في الاستمرار
بالسودان واحتوائه ؟
إنه حق ، الفتح ، وحق ، الفز ، . . . هكذا كان يقول بعض الحكام في خطبهم
وبياناتهم إلى الشعب .

وأذكر بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية وكانت هناك مفاوضات جارية بين
مصر وبريطانيا حول هذه القضية أن : إسماعيل صدقي باشا ، رئيس وزراء مصر في
هذا الوقت - رجع من لندن بعد أن أجرى محادثات مع المستر : بيفن - وزير
خارجية العال بعد الحرب ، وكان أول ما صرح به بعد وصوله إلى القاهرة : « لقد
أتيت بالسودان في الجيب » .

السودان . . . الذي تعادل مساحته مساحة ثمانى دول أوربية . . . وتبلغ المسافة بين
أبعد نقطتين من حدوده ما يقرب من الأربعمائة والألف ميل طولا . . . وما يقرب من
المائتين والألف من الأميال عرضاً ، استحال بقذرة خارقة إلى يضة وضعها رئيس
الوزراء في جيبه .

لو كنت سودانياً لرفضت هذا المنطق . . . إن الأخوة بين الشعبين : السودانى
والمصرى . . . أوثق من هذا الدجل والفسطة . والعلاقة بين مصر - في شمال
الوادي وبين السودان في جنوبه - أعرق من هذا التهريج والمتاجرة .

لقد زار وفد إسلامى من القاهرة العاصمة السودانية . . . والتقى هناك بالسيد
عبد الرحمن المهدي . زعيم حزب الأمة . ودار حوار بين هذا الوفد والزعيم
السودانى حول الوحدة بين مصر والسودان بعد حصولهما على الاستقلال والحرية ،

وقد تكلم السيد المهدي مطلقاً على هذه الفكرة : « إن الوحدة بين السودان ومصر وحدة أبدية ، لأنها وحدة قائمة على العقيدة التي لا تقوم بدونها أخوة ولا وحدة ونحن على استعداد لإعلان هذه الوحدة منذ هذه اللحظة » .
أما وحدة « الفتح » أو « الغزو » أو « الدفتردار » وأمثاله من حكام مصر ، فهي وحدة لا تكون إلا بين القاتل والضحية ، أو الاستبداد والحرية .

• • •

إن السيوف لا تترع المحبة ، والحروب لا تمنح حقاً للغزاة والقتلة ، لقد احتلت فرنسا الجزائر المسلمة مائة وثلاثين سنة ، وكان الفرنسيون يعلنون الجزائر جزءاً لا يتجزأ من فرنسا ، كما كان في الجمعية الوطنية بباريس نواب يمثلون الجزائر في هذه الجمعية . . فأين هي فرنسا اليوم من الجزائر ؟ لقد قدم الجزائريون ألف ألف شهيد للقضاء على هذا الحلم الغاير .

ثم شاء الله سبحانه أن تطوى هذه الصفحات من التاريخ كله ، وأن يتحرر وادي النيل شماله وجنوبه . وأن يدرك الشعبان في السودان ومصر أن أخوتها فوق كل شائبة ، وأن الوحدة فيما بينها تجسد حتى لهذه الأخوة . . وضمان أكيد للاستقلال والحرية .

• • •

وبعد تخرجي في الأزهر بسنوات قليلة . . . ثم عمل مفتشاً للشئون الثقافية بوزارة الأوقاف المصرية . رأيت هذه الوزارة إيغادي على رأس بعثة إلى شرق أفريقيا زرنا خلالها : تنجانيقا^(١) وكينيا . وقضينا بضعة أيام في السودان في أثناء ذهابنا وعودتنا . وكان لهذه الرحلة ، وما تركته في نفسي من مشاعر جياشة ، وما تفضل به الإخوان - محروس عبد الوهاب - مدير إذاعة أفريقيا في هيئة الإذاعة المصرية والرحوم الأخ - عبد الرحمن صالح - مراقب الشئون الثقافية في إذاعة السودان

(١) كانت هذه الزيارة سنة ١٩٦٢ قبل أن يتم الانعقاد بين تنجانيقا وزنجبار .

بالقاهرة من دعوى للعمل معها و كتابة برامج للإذاعة . كان لكل ذلك أثره و اهتمامى بالشئون الأفريقية . ودراسة أحوال هذه القارة التى نفقت عن نفسها غبار الذل والعبودية .

لقد بدأت أعرف على الكثير من شئون هذه القارة من خلال البرامج التى كنت أكتبها . والرسائل التى كنت أُرَد عليها . وقد دفعنى هذا إلى مزيد من القراءة وكثير من البحث والدراسة . وتولد فى نفسى يقين بأن مستقبل الإسلام فى هذه القارة رهين بجهود المخلصين من أبنائها . وإدراك المسئولين لأهمية هذا الدور الذى يمكن أن يقوم به الإسلام فى حاضرها ومستقبلها .

• • •

لم أكن أفكر فى كتابة بحث عن المهدي السودانى وحركته . كان فكرى متجهاً إلى لندن وكمبريدج (Cambridge) كنت حريصاً على تسجيل اسمى فى جامعة من جامعات الغرب . وقد سافرت من أجل ذلك إلى بريطانيا ثلاث مرات . وحصلت على صورة من مخطوطة : « الأسماء المهمة فى القرآن الكريم » لعبد الرحمن السهلى الأندلسى . وكلفت أختاً مسلماً يعمل فى المتحف البريطانى بالحصول على صور أخرى من هذه المخطوطة من ليدن وأكسفورد . ثم شاء الله أن يصرف نظرى عن هذه المخطوطة وأن أسافر إلى لندن مرة ثانية فى محاولة جديدة . واستقر رأى بعد ذلك على تحقيق مخطوطة أخرى عن الحروب الصليبية . وذهبت ومعى الأخ الدكتور عبد الجليل شلبي - إمام للمركز الإسلامى^(٢) إلى جامعة لندن للتضام مع أحد أساقفتها المسلمين حول العمل فى هذه المخطوطة . لقد ابتسم الإنجليزى المسلم وحين عرض عليه هذه الفكرة . وحين سألتاه عن السبب فى هذه الانتماء . . . لاذ بالصمت الذى يفنى عن كل إشارة ! ! !

• • •

(٢) الاممى العام لمجمع البحوث الإسلامية (حالياً)

يذير هذا الكون أشياء عجيبة لا يمكن تعليلها على ضوء المنطق الطبيعي
 أو المقاييس العادية . هناك سر وراء كل شيء لا يمكن فهمه من قبل العادة التي لا تفهم
 شيئاً في الواقع والحقيقة ؟ غير أنها في الواقع والحقيقة أشبه شيء بكنه من قديم
 الغيب . وهاتف من هواتف الحق الذي يسطر على الشعور والقلب . وسواء أخضع
 هذا لمنطق الطبيعيين أو لم يخضع . فإن أثره يبقى قوياً لا يهين ولا يتزعزع .
 لقد رجعت بعد هذه المقابلة مع الأستاذ الإنجليزي إلى منزل الأخ الدكتور
 عبد الجليل Regent's Park فوجدنا في انتظارنا أخاً سودانياً من أسرة المهدي كان
 وزيراً سابقاً للداخلية في السودان . وكان يحمل مخطوطة في يده لشيخ اسمه الشيخ
 أحمد العوام . كان هذا الشيخ أزهرياً من رجال الثورة العربية . وقد نفى إلى
 السودان بعد فشل هذه الثورة في القاهرة . ثم حكم عليه غوردون بالإعدام بعد
 محاولته إحراق مخزن الذخيرة . ودعوة الناس إلى المهدي والوقوف من ورائه بقوة .
 وفي اليوم نفسه شاهدت فلماً سينمائياً عن حياة ونستون تشرشل ، كان اسم هذا
 الفيلم (Young Winston) وكانت أحداث هذا الفيلم تدور حول مغامرات
 تشرشل عندما كان مراسلاً حربياً مع الجيش البريطاني في حرب الترنسفال بجنوب
 أفريقيا ، وفي معركة أم درمان أيام الخليفة التعايشي .
 وفي يوم ثالث ألقى صديقاً سودانياً محمداً بكتاب اسمه : (Fire and
 Sword in the Sudan) وأسأله مستغسراً عن موضوعه فحدثني عن المهدي وثورة
 السودان .

لقد تابعت الصور بسرعة . وانفعلت نفسي بمشاعر مختلفة ، ووجدتني أصبح
 وأمسى في ظلال هذه الأحاسيس الجياشة . ثم عدت إلى مقر عملي لأجد في
 انتظارى هذه المفاجأة .

لقد وجدت أخوين عزيزين * يتحدثان عن حصولها على نسخة مصورة من
 الأستاذ عبد الحميد اللاذلي والرحوم عبد الرحمن صالح .

إن في هذا الكون أشياء عجيبة لا يمكن تحليلها على ضوء الظواهر الطبيعية أو المقاييس المادية . هناك أمور تقع لإنسان يحسها من قبيل المصادفة التي لا تعنى شيئاً في الواقع والحقيقة ؟ غير أنها في الواقع والحقيقة أشبه شيء ببناء من قبل الغيب . وهاتف من هواتف الحق الذي يسيطر على الشعور والقلب . وسواء أخضع هذا لمنطق الطبيعيين أو لم يخضع . فإن أثره يبنى قوياً لا يهين ولا يترزعزع .

لقد رجعت بعد هذه المقابلة مع الأستاذ الإنجليزي إلى منزل الأخ الدكتور عبد الجليل Regent's Park فوجدنا في انتظارنا أخاً سودانياً من أسرة المهدي كان وزيراً سابقاً للداخلية في السودان . وكان يحمل مخطوطة في يده لشيخ اسمه الشيخ أحمد العوام . كان هذا الشيخ أزهرياً من رجال الثورة العرابية . وقد نفي إلى السودان بعد فشل هذه الثورة في القاهرة . ثم حكم عليه غوردون بالإعدام بعد محاولته إحراق مخزن الذخيرة . ودعوة الناس إلى المهدي والوقوف من ورائه بقوة . وفي اليوم نفسه شاهدت فيلماً سينمائياً عن حياة ونستون تشرشل . كان اسم هذا الفيلم (Young Winston) وكانت أحداث هذا الفيلم تدور حول مغامرات تشرشل عندما كان مراسلاً حربياً مع الجيش البريطاني في حرب الترنسفال بجنوب أفريقيا ، وفي معركة أم درمان أيام الخليفة التعايشي .

وفي يوم ثالث ألمح صديقاً سودانياً محكاً بكتاب اسمه : (Fire and Sword in the Sudan) وأسأله مستضراً عن موضوعه فحدثني عن المهدي وثورة السودان .

لقد تتابعت الصور بسرعة . وانفعلت نفسي بمشاعر مختلفة . ووجدتني أصبح وأمسى في ظلال هذه الأحاسيس الجياشة . ثم عدت إلى مقر عملي لأجد في انتظاري هذه المفاجأة .

لقد وجدت أخوين عزيزين * يتحدثان عن حصولها على نسخة مصورة من

منشورات المهدي . فطلبت على الفور إعطائي هذه النسخة . واستعدادي لشراؤها بأية قيمة وأيقنت منذ هذه اللحظة أن القدر يخطط لي من حيث لا أشعر . وأن تلك المشاهدات والصور لم تكن إلا بشخطيط مقدر وأنتى على موعد مع « المهدي السوداني » بعد فترة طويلة من الانتظار والتحير !

• • •

لقد حصلت على النسخة . وكانت نسخة من أجزاء أربعة :
الجزء الأول منها : يشتمل على واحد وثمانين موضوعاً ويقع في مائتين وتسعين صفحة .

والجزء الثاني منها : يقع في ثلثمائة وست عشرة صفحة ، ويشتمل على مائة وعشرة إنذارات ورسالة .

أما الجزء الثالث منها : فيقع في مائتين وتسع وخمسين صفحة ، ويشتمل على مجموعة من الأحكام والفتاوى .

وفي الجزء الرابع من هذه المجموعة تسع خطب متنوعة : ألقاها المهدي في مناسبات مختلفة . ويقع هذا الجزء - وهو أصغرها - في ست وخمسين صفحة . لقد ظهر المهدي أمامي واضحاً في رأيه وفكره . . وكانت هذه البيانات والرسائل مفتاحاً إلى عقله وقلبه . فأتجه نظري على الفور إلى البحث وإلى إيمان النظر فيما تركه وراءه من تراث وفكر .

• • •

كان من الضروري أولاً مراجعة : « منشورات المهدي » كما كتبت وصورت في الأصل ، ثم اختيار ما صلح منها طبقاً للخطة التي سار عليها البحث .

لقد نقصن الجزء الأول منها تلك المنشورات التي تعالج الأسس الرئيسية التي تقوم عليها حركة المهدي كالدعوة وانجاساتها العامة ، وغيرها من الأمور الأساسية في الدعوة .

أما الجزء الثاني . . فيتضمن الوثائق الموجهة إلى أفراد وجماعات صغيرة . .

وموضوع هذا الجزء هو المسائل الفرعية المتصلة بفئات معينة ، وبخاصة المعارضين للمهدية والمناوئين لها ، وقد أطلق على هذا الجزء لفظ الإنذارات واشتهر به لهذا السبب .

أما الجزء الثالث . . فيعرف بكتاب الأحكام والآداب ، ويتضمن المنشورات التي تعالج بعض القضايا الدينية المختلفة . سواء منها ما يتعلق بالأسرة بصفة خاصة أو يتصل بالمجتمع بصورة عامة .

أما الجزء الرابع . . من هذه المجموعة فيقع في ستة وخمسين صفحة ويشتمل على تسع خطب ألقاها المهدي في المناسبات المختلفة كما قدمنا .

وقد لوحظ في كتابة هذه المنشورات مخالفة بعض كلماتها للأصول الإيمانية المعروفة كما أن في بعضها كثيراً من الأغاليط اللغوية ، وتصعب قراءتها بسهولة ، وقد رجعت في تحقيق ذلك إلى كتاب « منشورات المهدي » الذي حققه الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم^(٣) ، وإلى كتاب : « جغرافية وتاريخ السودان » لنجوم شقير . إلا أنها لم يعالجا هذه الأخطاء فيما نقلاه من منشورات المهدي ، وبقيت هذه الأخطاء والأغاليط كما كانت في صورتها الأصلية ، وقد صححت ذلك فيما اخترته من هذه المنشورات والبيانات ووضعت الكلمة المصححة بين قوسين هكذا (. . .) بعد نقل أصلها إلى الهامش على النحو الذي كتبت به في المنشورات . وبمنظرة متأنية إلى الموضوعات التي اشتملت عليها الأجزاء الثلاثة الأولى من هذه المجموعة يمكن تحديد العناصر الرئيسية التي يقوم عليها هذا البحث عن « المهدي السوداني » .

فالجزء الأول منها يتناول الموضوع الرئيسي في هذه القضية وهو « المهدي » . والجزء الثاني منها يتناول الإنذارات والبيانات التي وجهت إلى أعدائه ومخالفيه

(٣) الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم من الباحثين الذين أثروا المكتبة العربية بالعديد من الكتب والأبحاث وناشر المهدي السوداني . وكانت كتاباته في هذا الموضوع من أهم المراجع التي احتضنت عليها في هذا البحث

في هذه القضية . والتي تتميز عن القسم الأول بالعنف والقوة . . أى بالجهاد والثورة .

والجزء الثالث منها خاص بالأحكام والفتاوى التي صدرت عن المهدي في مختلف الشئون العامة والخاصة . والتي خالف بها المهدي علطاء عصره فيما جرت به العادة من الفتوى تبعاً للمذاهب الفقهية المعروفة أى الاجتهاد والسلفية^(١) .

ولبدأ بالموضوع الرئيسى منها وهو : (المهديّة) .

لقد لعبت عدة أمور دورها في هذه القضية الرئيسية : فإذا كانت المهديّة كفكرة تعد دينية بالدرجة الأولى . فإنه لا يمكن إغفال العوامل السياسية والاجتماعية التي ساعدت على إبراز هذه الفكرة . وعلى تجسيدها - في الواقع - دعوة وحركة . لقد نشأ المهدي السوداني صوفياً . وكانت الصوفية هي المنبع الرئيسى الذى اغترف منه أصول هذه الحركة . وكان شيوخ الطرق - في هذا الوقت - هم المرجع الوحيد للشعب في قضاياها المختلفة ، ولما كانت « المهديّة » تمثل أملاً بالخلاص من الظلم الذى تتعرض له الجماعات في عصورها المختلفة . . فقد كان الشعب السودانى يتطلع إلى هذا « المهدي » الذى يخلصه من المظالم التى أناخت على كاهله بشدة والتي جعلت من الحكام وحوشاً مفترسة ، فالضرائب باهظة . . والرشوة متفشية . والدماء مهدرة . . والأعراض مستباحة . . والعدالة مفقودة . . وفي مثل هذا الجو يشطح الخيال . . ويستبد الأمل بالناس ، فيتمنون الخلاص بأية طريقة ويتنتظرون طلوع الفجر من أية ناحية . وقد لعبت الطرق الصوفية دورها في هذه الحقبة . وهيات أذهان الناس لقدوم « البطل » الذى سيقضى على « التنين » بضرية واحدة . وقد كان لابن عربى وكتبه دور كبير في هذه الناحية . لقد تكلم عن المهدي كثيراً في الفنوحات المكية وغيرها من كتبه . وكانت أقواله وكتاباتانه متداولة في السودان بكثرة . وقد أخذ عنه مهدي السودان كثيراً . . وسار على المنوال الذى

(١) انظر في هذا الموضوع الحركة الفكرية و المهديّة للدكتور محمد إبراهيم أبو سليم .

اختله وكانت مهديته تجسيدا للمعنى الذى أشار إليه ابن عربى فى كتبه ومؤلفاته .
إلا أننا نجد بجوار ذلك عوامل أخرى ساعدت على إذكاء روح هذه الحركة
ودفع عجلتها إلى الأمام بقوة .

لقد كان الجو العام فى أفريقيا مشحوناً بهذه الظاهرة . . وكانت هناك حركات
شبيهة بهذه الحركة . وقد سمع السودانيون كثيرهم من المسلمين الأفارقة عن قرب
ظهور « المهدي » الذى يصلح الله به أمر الأمة ، ويعيد للإسلام القوة والمجد والعزة
وقد بشرت حركة : عثمان بن فودى بقرب ظهور المهدي المتظر بالشرق ، وكتب
أصحابه مؤلفات كثيرة فى موضوعه وقد ذكر « محمد بللو » فى كتابه « إنباق
الميسور » أن والده عثمان قد أخبره عن قرب ظهور المهدي وأن أتباع الشيخ عثمان هم
أبكار أتباع المهدي ، وأن الجهاد « الفولاني » لن ينجح أواره حتى يظهر المهدي .
وقد كان للوضع الجغرافى الذى يتمتع به السودان دور كبير فى تأثره بجميع
التيارات التى تهب على القارة الأفريقية ، وتنادراً ما يقع شىء فى هذه القارة ثم
لا ينعكس صدها فى السودان بحكم هذه العوامل الجغرافية .

ولما كان ابن عربى عالماً متبحراً فى شئون الشيعة ، فقد نقل آراءهم عن
« المهدي » المتظر إلى التصوف بعد صبغها بصبغة صوفية ، وقد وجدت هذه الآراء
فى عقول المتصوفة أرضاً خصبة ، وأثرت كثيراً فى اتجاهاتهم الفكرية . فلم يكن
غريباً أن يأخذ « مهدي السودان » بهذه الآراء لتأكيد مهديته واعتبار المخالفين له
كفاراً لرفضهم . . الدخول فى طاعته .

لقد تأثر « المهدي السوداني » بهذا كله ، وتركت هذه العوامل أثرها فى رأيه
وفكره ، وقد حققنا ذلك فى أصوله ، وقارنا بين ما كتب فى هذه الأصول وبين
ما يقوله .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الوجه الآخر من هذه الحركة وهو « الجهاد والثورة »
فتمت عوامل كثيرة ساعدت على اتخاذ هذه الخطوة وعلى إعلان العصيان والتمرد

على السلطة .

إن محمد أحمد عبد الله أو « المهدي السوداني » لم يكن يفكر بأن يكون مهدياً . . لقد بدأ حياته واعظاً ومرشداً ثم دفعت الظروف والأحداث بعد ذلك ليكون هو « المهدي المتظر » . . حقاً . . !

وكما يقول « بسمارك » الإمبراطور الألماني :

« إن الناس يبالغون كثيراً في تأثيرى على الأحداث التي عرفت فقط كيف أستغلها » .

وهكذا كان المهدي . . لقد لعبت عدة عوامل في إعلانه الجهاد والثورة واتخاذ حركته هذه الصورة العنيفة القوية .

هناك أولاً : عامل « المهدي » الذي خلغ على زعامته نوعاً من القداسة وجعل الناس يتسابقون للقاءه والدخول في طاعته .

ثانياً : الظروف السياسية والاجتماعية في العالم الإسلامي .

لقد نشأ « المهدي السوداني » في هذا العصر الذي سقط فيه العالم الإسلامي فريسة في يد الغزو الاستعماري الصليبي . وقد كان لهذا الغزو وما اتسم به من تعصب وكراهية وحقد . رد فعل عنيف وثورة وسخط . وقد قاد حركة الجهاد الإسلامي في ذلك الوقت زعماء مخلصون كرسوا حياتهم وجهودهم لإنقاذ العالم الإسلامي مما تعرض له من دمار وحقد . وكان من أهم هذه الحركات التي قادت حركة الإصلاح والجهاد . حركة محمد بن عبد الوهاب في الحجاز ونجد ، وحركة السنوسي في ليبيا على حدود السودان الشمالية من جهة الغرب . وحركة جمال الدين الأفغاني ومدرسته في مصر ، وكان السودان على صلة وثيقة بهذه الحركات بحكم الجوار والقرب . فلم يكن غريباً أن تجد هذه الحركات طريقها إلى السودان مفتوحاً وأن تصادف في عقول الناس رضاء وقبولاً . وأن تلعب دورها في الحركة المهدية ، التي استفادت منها جميعاً .

١٥ - الحركة العراية في مصر :

وإذا كان « للمهدية » هذا الدور الكبير في قيادة الحركة ، وكان للحركات الإسلامية المعاصرة أثرها في إشعال نيران الثورة ، فإننا نقرر بعد هذه الدراسة أن الثورة العراية في مصر كانت هي العامل الرئيسي الذي أدى إلى إشعال الثورة وإلى تمرد المهدي على الحكومة والسلطة وذلك لما يأتي :

- (أ) أن الثورة المهدية قامت بعد أشهر قليلة من الثورة العراية .
- (ب) أن الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة العراية . هي نفس الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة المهدية .
- (ج) أن نظام الحكم الذي ثار عليه الشعب المصري . هو نفسه نظام الحكم الذي ثار عليه الشعب السوداني .
- (د) أن الفتوى التي أصدرها علماء الأزهر بمروق الخديو عن الدين الإسلامي بسبب خيائته وانحيازه إلى الجيش البريطاني - قدمت إلى « المهدي » أكبر حجة لتسوغ ثورته ضد ممثلي هذا الحاكم ونوابه في القطر السوداني .
- (هـ) أن الجيش المصري - الذي كان مفروضاً أن يقضي على حركة المهدي - كان مشغولاً في القاهرة بحربه ضد الإنجليز والخديو ، فلما أخفقت الثورة العراية . وسيطر الإنجليز على مقاليد الحكم في القاهرة أرسل الخديو فرقاً من الجيش بقيادة الإنجليز - لإخماد الحركة المهدية ، فكان الضباط والجنود المصريون يفرون بأسلحتهم وعتادهم إلى صفوف المهدي ، وكانوا يقولون إنهم لم يرسلونا إلى السودان إلا لقتلنا بسبب أننا من جنود عراي .
- لقد كان الميدان تحالياً أمام المهدي . . ففضى في طريقه إلى الجهاد والثورة والتحدى . .

وقد نشأ المهدي السوداني صوفياً كما قلنا . . فكيف أقدم بعد ذلك على إلغاء

الطرق الصوفية . واتخذ منهجاً واضحاً في الالتزام بالكتاب والسنة .
لقد عالجت هذه القضية في فصل مستقل . من هذه الدراسة ، وقد تبين لنا أن
المهدي بالرغم من نشأته الصوفية فإنه كان ملقى العقيدة والترعة . وقد ظهر ذلك
مبكراً في خلافه مع شيخه ، بسبب اعتراضه على ما رآه في بيته .
لقد انتظم محمد أحمد ، في سلك الصوفية لأنه لم يكن هناك غيرها مكان
للتعليم والدراسة ، لكنه كان في الوقت نفسه حراً في القراءة والمطالعة ، وحين
حانت الفرصة التي يعبر فيها عن رأيه لم يبال بأى قرار يتخذه . . لقد نهى عن
التوسل والتشح بالأضرحة ، واعتبر اللجوء إلى غير الله والحلف به شركاً في
العبودية ، وألقى المذاهب والطرق الصوفية ، واعتبرها مصدر تمزق وفرقة ، ودعا
إلى التمسك بالكتاب والسنة واعتبرهما المصدر الوحيد في العقيدة والشريعة . وقد
كان محمد المهدي ، في كل ذلك تلميذاً لابن تيمية ودعا إلى ما دعا إليه محمد بن
عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية ، الأمر الذي يؤكد اتصال المهدي بهذه الحركة
إما عن طريق الدراسة أو العلاقات الشخصية بينه وبين تلاميذ هذه الحركة .
لقد كان العصر الذي وجد فيه المهدي عصر جهاد وثورة ، فثار وجاهد وكان
عصر دعوة إصلاح . . فدعا إلى الخير وأصلح بقدر ما استطاع ، وكان في دعوته
وحركته نبضة من نبضات الإسلام في أيام المحن والكفاح . .

دكتور : عبد الودود شلبي

القاهرة : ١٣٩٨ هـ

١٩٧٨ م

الفصل الأول

المهدي السوداني نشأته وثقافته

هو أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الله بن لحل بن عبد المولى بن عبد الله بن حاج شريف بن علي بن حسب النبي بن صبير بن نصر بن عبد الكريم بن حسين بن عون بن نجم الدين بن عثمان بن موسى بن أبي العباس بن يونس بن عثمان بن يعقوب بن عبد القادر بن الحسن العسكري بن علوان بن عبد الباقي بن فخره بن يعقوب بن الحسن البط بن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

هذا من جهة أبيه .

أما من جهة أمه فهو ابن :

زينب بنت نصر . . فتتبع السلطة - كما يقولون إلى العباس ابن عبد المطلب^(١) .

وقد هاجرت أسرة المهدي من الجزيرة العربية فيمن هاجر من العلويين فراراً من المظالم والآلام التي كان يصبها على رعايهم الحجاج بن يوسف الثقفي في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في عهد ابنه الوليد . وقد اتخذت هذه الأسرة وادي النيل مهجراً لها . فأقامت في القسطنطينية ما طابت لها الإقامة . وبها مات أحد

(١) في كتاب الإسلام في القرن العشرين للأستاذ عباس العقاد : أن اسم أمه (آمنه) لا زينب - انظر

ص ١٤٠ الطبعة الأولى - القاهرة .

رجالها المعروفين - نجم الدين بن عثمان ودفن عند باب الوزير^(٢) وله هناك مقام يزار . ثم شئت الأسرة رحالها وواصلت رحلتها جنوباً . وقد طاب لبعض أفرادها المقام في كشتمة بين (أسوان) و (الدر) وظل باقي الأسرة وعلى رأسهم السيد نصر الدين بن عبد الكريم بين ظعن وإقامة ، وحل وترحال حتى انتهى بهم المطاف إلى إقليم (دنقلة) بالسودان فألقوا عصا تيارهم هناك .

وقد سموا المكان الذي نزلوا فيه بـ (الخناق) على اسم آخر قرية سكنوها بأعلى (الصعيد)^(٣) في مصر .

وقد دفع ذلك المؤرخ المصرى المرحوم عبد الرحمن الرافعى إلى تقرير (مصرية) المهدي ولا يعلم على وجه التحديد الظروف التي دفعت أسرته إلى الانتشار جنوباً . وفي أى وقت من الأوقات حدث ذلك^(٤) .

وبعد نزول أسرة المهدي في إقليم (دنقلة) بالسودان اتجه بعض أفراد هذه الأسرة إلى جزر ثلاث هناك فاستوطنتها وهي جزر (ضرار) و (ليب) و (آب تركى) ومن ثم عرفت هذه الجزر ومازالت تعرف إلى اليوم باسم جزائر الأشراف^(٥) .

ومن هذا الإقليم - إقليم دنقلة - وفي أواسط القرن السابع الهجرى سطع نجم أحد رجال هذه الأسرة المبرزين وهو السيد حاج شريف ، وطار ذكره وبعد صيته ، وعرف بالعلم والتقوى . فقصده الأتباع والمريدون من كل فج عميق .

(٢) (باب الوزير) من أحياء القاهرة القديمة يقع بالقرب من قلعة صلاح الدين .

(٣) الصعيد : هو الجزء الجنوبي من بلاد مصر - ويمتد إلى (وادى حلفا) على الحدود الفاصلة بين جمهورية مصر وجمهورية السودان .

(٤) مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال المؤرخ المصرى عبد الرحمن الرافعى ص ١١٥ الطبعة الثالثة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م القاهرة

(٥) المهدي في الإسلام ص ٢٠٠ .

وقد عمر هذا الشيخ طويلاً . . مستمتعاً بسلطان روحى قوى ، وولد له من الذكور ستة أكبرهم السيد محمد جد المهدي من قبل أبيه ثم قضى الحاج محمد شريف ، ومازالت له ولذريته إلى الآن قباب بدقطة تعرف بقباب الأشراف بومها الأتباع والمريدون^(٦) .

وقد ولد للسيد محمد بن الحاج شريف ولد سماء عبد الله هو والد المهدي وكان صانعاً ماهراً . احترف هو وبعض أفراد أسرته حرق النجارة وصناعة السفن . وكانت المنطقة التي يعيشون فيها بدقطة لانحطهم بالأخشاب الصالحة لمزاولة مهنتهم ، فارتحل عبد الله هذا ومعه أسرته إلى مدينة (كررى) الواقعة على بعد خمسة عشر ميلاً شمال (أم درمان) .

وقد اختلفت الروايات في تاريخ مولد المهدي . ويبدو أن أصح هذه الروايات ما ذكر منسوباً إلى السيد عبد الرحمن المهدي - نجل المهدي - من أن والده قد ولد في السابع والعشرين من رجب سنة ١٢٦٠ هـ الثاني عشر من أغسطس ١٨٤٤ م وأن مولده كان بجزيرة (لب) إحدى جزائر الأشراف . وقد أطلق عليه والده اسم (محمد أحمد) وقد ظل يعرف بهذا الاسم إلى أن جهر بدعوى المهدي في الثامنة والثلاثين من عمره^(٧) .

وقد مات والد المهدي بعد عام من انتقاله إلى (كررى) فدفن بها وكذلك توفيت والدته بعد عام من موت والده^(٨) وفي ذلك الوقت كان الصبي (محمد

(٦) المهدي في الإسلام، ص ٢٠٠.

(٧) معالم تاريخ السودان وادي النيل ص ١٩٦.

- المهدي في الإسلام ص ٢٠١.

- مهدي لله . . توفيق أحمد البكري ص ٥.

(٨) جاء في كتاب المهدي في الإسلام : أن والد محمد نول وهو الحامسة من عمره . وأن والدته

توفيت بعد أن بلغ الحادية عشرة - انظر معالم السودان ونوى النيل ص ١٩٦ .

أحمد) قد بلغ السن التي يذهب فيها أقرانه إلى (الخلوة) أو (الكتاب) لحفظ القرآن الكريم . . . فذهب إلى خلوة الشيخ الفقيه الهاشمي بالقرب من (كبرى) شمال أم درمان ، وبقى فيها سبع سنوات حفظ القرآن فيها وجوده . وقد رغب شقيقاه^(٩) أن يتعلم صناعة السفن فرغب في غير ما رغبوا فيه .

ثم انتقل بعد ذلك إلى خلوة الشيخ عمود الشنيطي . . ثم إلى خلوة الشيخ الأمين الصويلحي بمسجد ود عيسى بالجزيرة فبقى فيها قليلاً . . ثم مضى إلى خلوة الشيخ محمد الخير في (الغبش) نجاه (بربر) فطلاب له المقام والاعتكاف على الدرس والتحصيل .

وقد كان الشيخ محمد الخير هذا ، على حظ وافر من الصلاح والتقوى ، وإن كان جاهلاً باللغة العربية وقواعد النحو والصرف .

يقول صاحب كتاب : (السودان بين يدي غوردون وكشنر)^(١٠) .

« كان الشيخ محمد الخير ذا تحقيق في مذهب إمام دار الهجرة الإمام مالك - رضي الله عنه - ومع هذا كان لا يعرف شيئاً من علوم النحو والصرف وعلوم البلاغة فاحترقه تلاميذه ، وأسمعوه مرات عديدة انتقاداتهم على جهله حتى إن أحدهم قال له يوماً : يا سيدي الشيخ إنك لا تعرف إعراب جاء زيد . . فكيف يليق بنا أن نتكوف (نتحلق) حولك في حين أن - تكوفنا - هذا لطلب العلم وأنت مفتقر إليه أكثر منا ؟ »

فتأثر الشيخ محمد الخير من هذا القول ، وقام من مجلسه . وبعد صلاة العشاء دعا اثنين من خاصته وركبوا دوابهم بغير أن يشعر بهم أحد ، وقصدوا الخرطوم ومنها إلى ضاحية (المسلمية) حيث اجتمعوا بالشيخ (الحسين زهراء) وقص عليه محمد

(٩) كان للمهدي ثلاثة أشقاء وأخت واحدة - انظر معالم تاريخ السودان وادي النيل ص ١٩٦ .

(١٠) السودان بين يدي غوردون وكشنر - تأليف إبراهيم فوزي ج ١ ص ٣١٥ مطبعة جريدة الزيد

القاهرة ١٣٠٩ هـ .

الخير ما جرى له مع تلميذه . فقال له : قد محضك - والله - النصح . ثم انقطع
لدرس النحو وعلوم البلاغة على الشيخ الحسين نحو عامين أدرك فيها ما يدركه غيره
في أربعة أضعافها ثم عاد بعد ذلك إلى مزاولة دروسه في بربر^(١١) .

ونعود إلى صاحبنا محمد أحمد . .

لقد بهرته دون أقرانه أنوار التصوف فأقبل عليها . . وإنه ليروض نفسه حتى
يكبح جماحها . . ويقهرها على الصعب من الأمور حتى يلين مراسها ويتغلب عليها .
ولن يستطيع ذلك إلا إذا قنت وصرفت نفسه عن أعراض الدنيا^(١٢) .

إن شيخه يتقاضى مرتباً من الحكومة تجر به عليه كل شهر وتمده ببعض العون
كشأنها مع أمثاله من الفقهاء والمشايع . ويجود عليه الخيرون ببعض المال تشجيعاً
للعلم . . ولكن راتب الحكومة في نظر (محمد أحمد) حرام لأنه مال جمع بطريقة
لا يرضاها الله ، وبوسائل لا تتفق والعدل . فهو مال كله حرام وآكله موغل في
الحرام . . إذن . . يجب على (محمد أحمد) ألا يمد يده إلى طعام جاء من حرام .
ويتقرب محمد أحمد رسالة أهله ليدفع بها عن نفسه غائلة الحاجة والجوع . . فإذا
ما جاءه المال ألفاه كثيراً عن حاجته الخاصة ، والقليل منه كاف لسد حوزة . . ثم
ينتهي به الأمر إلى أن يتصدق بالمال كله ويعتمد على نفسه بالخروج إلى الغابة لقطع
الأخشاب وبيع ما يقدر على حمله منها في السوق ويأكل بعض ثمنه ويتصدق
بالباقى كله على الفقراء .

فإذا تعذر عليه الاحتطاب من الغابة لسبب من أسباب الطبيعة . . خرج إلى
النيل لصيد الأسماك . . وإنه ليتورع أن يضع في صنارته طعاماً حتى لا يجذع السمك
الذي يحرم حولها في الماء . إن السمك مخلوق من مخلوقات الله فلا ينبغي لأحد - إن
كان مسلماً حقاً - أن يجذع هذه المخلوقات . . وإذا كان الله قدر له رزقه فليكن

(١١) السودان بين يدي نوردون وكنتز ص ٣١٥

(١٢) مهدي الله : ص ٧

بطريق آخر غير التحايل والخداع^(١٣).

وعلم شيخه (محمد الخير) بقصة عزوفه عن طعامه . . وقطعه الأخشاب في الغابة واحتطابه وخروجه لصيد الأسماك وتورعه عن خداعه . . فقبله بين عينيه إجلالاً . . ويضمه إليه حباً وإكباراً ثم يعرض عليه قائلاً :

« يا بني . . إنني ورثت عن آبائي هذه الساقية وتلك الأرض والجارية والعبد وبني لأختات وأهل منها . . وإني لتوليني فضلاً أي فضل لو أنك شاركني القليل مما لدى . . »

فأطرق محمد أحمد إطراقة للتأني . . فآلح عليه أستاذه . . وعاود الإلحاح قبل على أن يؤدي عوض ذلك عملاً يساعد به الجارية والعبد في حرث الأرض^(١٤).
هكذا كان أمره . . ولا يبلغ العشرين . . أصاب في تلك الفترة أكثر مما أصاب زملاؤه علماً وثقافة . . . لقد أدرك محمد أحمد في تلك السن المبكرة من العلوم ما لم يدركه أحد من لداته . . فقد حفظ القرآن الكريم وجوده . . ولم يفته النحو والصرف والفقه والتفسير والتصوف وأولع بالأدب والعلوم العقلية فدرس الفلسفة والعلوم الطبيعية والمنطق وأقبل على التفسير . . فقرأ فيه قدراً كبيراً ووجد بخطه على ظهر نسخة من كتاب تفسير « الجلالين » ما يفهم منه أنه قرأه أكثر من سبع وأربعين مرة على مشايخ كثيرين^(١٥).

لقد عرف الغزالي وابن رشد وابن سينا وغيرهم من فلاسفة المسلمين واحتب معه كتاب « إحياء علوم الدين » يعاود النظر والتأمل فيه وكان إذا حدثته في العلوم العقلية تسمع من أساليبه الوجيزة والمقيدة ما يدعوك إلى نظمته في عقد من اشتهروا بالبراعة في هذا الفن^(١٦).

ويضيف صاحب كتاب « شقائق النعمان في حياة المهدي ووقائع السودان » أنه

(١٥) مهدي لله : ص ١٢

(١٦) مهدي لله : ص ١٢

(١٣) مهدي لله : ص ٩

(١٤) مهدي لله : ص ١٠

كان للمهدى إمام كبير بالسنة وعلم الحقائق وكان يميل كثيراً للمذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ، كما أنه كان قتيهاً بارعاً أصولياً متكلماً محدثاً مفسراً أدبياً كاتباً شجاعاً واعظاً^(١٧) .

وقد اختار بعض آيات من القرآن سماها « الراتب » وكان يأمر المصلين بتلاوتها بعد صلاة الصبح وصلاة العصر^(١٨) .

وإذا كانت العبودية الحقة هى النهج الصحيح للوصول إلى المعرفة الحقة وإذا كان الطريق إليها ليس حلاً بخطئ ولا عقلاً يضل . . وإنما هو بصيرة وضاعة^(١٩) وروح صافية فإن محمد أحمد قد بدأ يبيئ نفسه للبحث عن هذه الحقيقة وانطلق بقلبه وحقله للحصول على هذه المعرفة . . لكن أين ؟

لقد لعبت الطرق الصوفية وبخاصة القادرية والشاذلية ، دوراً كبيراً فى حياة الأمة السودانية فى عصر الفونج . . وقد مهدت الأحوال الاجتماعية ولاسيما العصبيات القبلية التى كادت تمزق البلاد - لانتشار الفرق الصوفية . . فوجد الناس فى المشايخ الذين يدعون إلى الانتظام فى سلك العبادة وسيلة لتخليصهم من هذه الاختلاقات^(٢٠) وقد فتح الحكم المصرى الطريق أمام الصوفية التى نشطت فى القرن التاسع عشر إلى أبعد الحدود فاشتد نشاط الطريقة السمانية التى كانت قد دخلت السودان سنة ١٨٠٠ م على يد الشيخ أحمد العليب تلميذ محمد بن عبد الكرم السمانى . وقد انتشرت هذه الطريقة على الخصوص بين الكواهلة وغيرهم من عرب الجزيرة .

(١٧) شقائق النعمان فى حياة المهدى ووقائع السودان تأليف محمد بن عبد المهدى بن محمد السراج ص

٩٧ - القاهرة سنة ١٣٦٦ هـ

(١٨) السيف والنار فى السودان صلاتين باشا ص ١٧٧ مطبعة البلاغ القاهرة ١٩٣٠

(١٩) للتقى من الضلال .

(٢٠) انتشار الإسلام والعروبة فيما بين الصحراء الكبرى ص ١٥٥ .

وقد شجع « محمد علي » طرقات صوفية أخرى كالطريقة السعدية وهي فرع من الرفاعية والطريقة الرحمانية وهي فرع من الدرقاوية^(٢١).

فإذا بختار محمد أحمد من هذه الطرق ؟ وإلى أي شيخ يتقدم ويبيع ؟ لقد ذهب إلى الشيخ محمد شريف نور الدائم نقيب الأشراف وشيخ المشايخ والقطب البارز في الحركة الصوفية . وكانت شهرته قد سبقته إلى أستاذه فأخذ منه العهد وتقبله أحسن قبول . وبقى عنده منقطعاً للعبادة والصلاة ملازماً خدمة أستاذه معيداً بأي عمل يكلفه به مبالغاً في احترامه وتقديره . حتى إنه ليجلس أمامه متكأ رأسه فلا يرضعها إلا إذا حدثه .

كان كالطفل « بين يدي القابلة . . والميت بين يدي غاسله » كما يقول الصوفية . . لذلك أحبه شيخه ورقاه في مدارج الطريقة وأجاز له « إعطاء المهود وتليك الطريق » ثم رجع محمد أحمد بعد ذلك إلى جزيرة « آبا » فأقام بها مسجداً . وشق لنفسه غاراً وأنشأ بها خلوة لتعليم الناس من كل مكان . ويقال : إنه كان يتولى تعليمهم بنفسه حتى إنه علم ألفاً مؤلفة من الأعراب . وتناهى إلى الناس أمر هذا الولي الشاب فأقبلوا عليه يطلبون البركات^(٢٢).

وبدأ نجمه في الظهور والارتفاع . . أخذ الناس يتناقلون أخبار هذا العابد الناسك وينشرونها في كل مكان . إن « ولياً » جديداً من أولياء الله يسكن جزيرة « آبا » والسفن المسافرة على مياه النيل لا يمكن أن تمضي دون التوقف بمحاذاة هذه الجزيرة لنوال البركة والتمتع بالنظر إليه لحظة .

ويعاوده الحنين إلى شيخه فيذهب لزيارته ويتقدم إليه كعادته ضارعاً ذليلاً . . وقد وضع « الشعبة^(٢٣) » في عتقه وفروة الضأن فوق خاصرته وعثر الرماد على رأسه

(٢١) الإسلام والثقافة العربية و أربنية ص ٣٦١ .

(٢٢) مهدي الله ص ١٦ .

(٢٣) الشعبة تكسر الشين المشددة وضع الباء خشبة طويلة بضرع أحد طرفيها على شكل رقم (٧)

وتوضع و عثر العبد الآبق أو للمحرم

كانه العبد الآبق . ويقبل على شيخه طالباً منه الرضا والمودة . فيحل الشيخ الشبهة من عنقه . وفروة الضأن من خاصرته ، ويتغص التراب عن رأسه ويدعو له بالخير والبركة ثم يقيم عنده بعد ذلك مدة (٢١) .

كان هذا اللقاء بين الشيخ وحواريه هو آخر لقاء ينهى بينهما في ألفة ومودة . فقد أخذت الأمور بعد ذلك تتدهور على نحو غير متوقع . وغامت سماء صفائها بالسحب . فالإنسان هو الإنسان . . ما لم تداركه من الله رحمة وهداية ورشد . وحين يطلق العنان لرغائب النفس . . حين يبلغ الأمر كذلك . . يتباعد المحبون اللين شربوا من منهل الصفاء والحب ، وتمزق فيما بينهم وشائج التفاهم والتسامح والقرب .

إنها مأساة البشر في كل عصر . . وهي مأساة تضطرم فيها النزاع ، وتتضارب فيها الدوافع ، وتختلف حولها الأسباب والدواعي . . وهي مأساة تبلغ قمتها حين تكون بين شيوخ في طريقة أو فقهاء في مذهب . . إنها النفس . . النفس الأمارة بالسوء إلا من رحم الله واستقام على جادة الحق .

لقد انتهى الأمر ووقع الخلاف بين محمد أحمد ، وشيخه . . واختلفت الآراء والأقوال في تفسير أسباب هذا الخلاف وتعليله .

قالشاطر البصلي يذكر قولاً منسوباً إلى الشيخ محمد شريف : بأن سبب العداء بينه وبين محمد مرجعه إلى أن قد ناه عن دعوته بالمهدية (٢٥) وتوفيق أحمد البكري يذكر سبباً آخر للخلاف بينه وبين أستاذه يرجع في جملة إلى إنكاره على شيخه حفلة أقامها في بيته بمناسبة ختان أولاده - رقصت فيها النساء والإماء ونقرت فيها

(٢١) مهدى الله ص ١٧ وقد ذكر سلاتين باشا كتابه «السيوف والنار» أن محمد أحمد قدم على أستاذه بهذه الهيئة بعد أن اختلفا معاً . وأن شيخه لم يقبل منه ذلك . انظر ص ٣٧ وما بعدها .

(٢٥) انظر معالم تاريخ السودان وادي النيل ص ١٩٧ السودان بين يدى غوردون وكشر ص ٧٢ جغرافية السودان وتاريخه ص ٨٧٨

الدخوف وكل ما يصاحب ذلك من اللهو - والمجون والشرب^(٢٦) .
لقد ندد محمد أحمد بكل ما رأى وطلب من مريديه وأحبابه ألا يشتركوا فيه
قائلاً : « إن الشريعة تمنع الرقص والغناء والشراب والمجون . . وليس في وسع أحد
إجازتها ولو كان إماماً وشيخ طريقة » .

وقد أيد صاحب كتاب « شقائق النعمان » هذه الرواية وأورد « سلاتين باشا »
تفصيلاً آخر لهذه القصة . فقد حدث في أحد الأيام : « أن محمد شريف جمع
لمناسبة ختان أولاده مشايخ الطريقة والتلاميذ وأذن لهم في الغناء والرقص لأن الله
يفخر في مثل هذه الظروف الخاصة ما يحدث من الخطايا والذنوب . . . »

ولكن محمد أحمد لما انتطج عليه من التقى والصلاح استنكر الغناء والرقص . .
وضروب الطرب الأخرى . وأوضح لأصدقائه مخالفتها كلها للدين ، وأنه لا يمكن
لأى إنسان مها كان قدره ولو كان شيخ طريقة أن يترخص فيها . وبلغت هذه
الأقوال محمد شريف فطلب من محمد أحمد أن يبرر أقواله . وكانت نتيجة ذلك أن
تقدم محمد أحمد بالاعتذار وهو بتذلل أمام التلاميذ والأتباع وبطلب الصفح .
ولكن محمد شريف أخذ يلغنه وينب إليه الحياة والخروج على شيخه بعد أن أقسم
بيمين الولاء . ثم مح اسمهم من قائمة الأتباع المذكورين في الطائفة السمانية^(٢٧) .

وقد ذكر أنصار محمد أحمد رواية أخرى لتعليل الجفوة والقطيعة بينه وبين
أستاذه . فهم يقولون : « إنه الحق والحسد . . وانصراف الناس عن الشيخ محمد
شريف » ، وقد رأى الشيخ محمد شريف بنفسه إقبال الناس على محمد أحمد إقبالاً
لا يجد مثله فساء ذلك جداً . . وأخذ يعمل على الخفض من سطوة محمد أحمد .
وعين أحد المشايخ ندأ له في المنطقة التي يسكنها ، وطلب من الناس اتباع هذا

(٢٦) شقائق النعمان في حياة المهدي ووفائق السودان ص ٢٨

(٢٧) السيف والنار في السودان ص ٣٧

الشيخ ، فأنكر محمد أحمد على شيخه . محمد شريف هذا التصرف^(٢٨) .
والذى نعتده أن محمد أحمد كان على حق في موقفه من شيخه . والقول بأن
السبب في هذا الخلاف هو ادعاءه المهدية واعتراض الشيخ محمد شريف عليه قول
يتقضه الشيخ محمد شريف نفسه . فبعد سقوط « بربر » إحدى المدن السودانية
الهامة وزحف المهدي إلى الخرطوم لم ير الشيخ محمد شريف بدءاً من القدوم على
المهدي ومبايعته . . فاستقبله أحسن استقبال^(٢٩) . ونسى المهدي مانسب بينها من
خلاف وأمر بديع النياق احتفالاً بمقدمه . وبقى في صحبته مكرماً معززاً غير مهان أو
مساء^(٣٠) .

فإذا كان الشيخ محمد شريف قد اختلف مع تلميذه حول العقيدة ، ولمخروجه
على أصول المشيخة والطريقة فما الذى غير رأيه ؟ وجعله يدخل في طاعة المهدي
ويبايعه ؟

لقد كان اعتراض المهدي على شيخه بسبب ما رآه في بيته أمراً يتفق تماماً مع
نشأته وتربيته . فقد حدث في ليلة زفافه أن اجتمع بعض النسوة والرجال لإحياء
هذه الليلة بالرقص والأغاني . فقام إليهم محمد أحمد ومنعهم من ذلك . . لأن
اختلاط الرجال بالنساء والرقص والأغاني حرام كله^(٣١) .

ثم إن هذا التصرف من المهدي تجاه شيخه يؤيده ما وقع قبل ذلك مع أستاذه
الشيخ محمد الخير حيث اعترض عليه بسبب تقاضيه مرتباً من الحكومة كانت تعطى
لمثله من علماء الدين وشيوخ الطرق . . لأن مال الحكومة « جمع بطريقة لا يرضاها

(٢٨) جيزالية السودان وتاريخه ص ٥٦٧

(٢٩) المصدر السابق ص ٨٢٥

(٣٠) شقائق النمان ص ٨٠

(٣١) السودان بين يدي غوردون وكنتز ص ٧٢

الدين . وبوسائل لا تتفق والعدل . فهو مال حرام وأكله موعظ في الحرام مشترك فيه . (٣٢)

ثم إن الرجل الذي يتورع عن خداع السمك في صيده ويرفض - وهو صائم - تناول أى طعام فيه شية . . مثل هذا الرجل لا يخاف أحداً في إعلان رأيه . ويقول كلمة الحق ولو دفع فيها رأسه .

ولقد شعر الشيخ محمد شريف - بعد هذه الحادثة - أنه دون تلميذه تقى وورعاً . . وأحس في الوقت نفسه بيزوغ نجمه في أفق الصوفية . . واجتذابه إليه قلوب الناس . . فذب في قلبه بسبب ذلك ديب الحمد . . وشعر بالخطر الذي يهدد مملكته إلى الأبد .

ومما يؤكد ذلك أن الشيخ محمد شريف حين ذهب إلى (رموف باشا) الحاكم المصرى للسودان يحذره مغبة الدعوة التي تقول : إن محمد أحمد هو المهدى المنتظر . وكان محمد أحمد قد أعلن دعوته في ذلك الوقت - فإذا بالحاكم يتباسم لأنه يعلم ما بين الرجلين من قطيعة ويعتزو قوله إلى الحمد وضغن النفس (٣٣) . وسواء أكان هذا الأمر أم ذلك . فإن الشيخ القرشى أحد مشايخ الطريقة السمانية المناوئين للشيخ محمد شريف قد اجتذب إليه محمد أحمد وأكرم وقادته . وأنشاع أن محمد أحمد قد انفصل عن شيخه الذي خالف الشريعة والسنة . . (٣٤) . وبينما هو بهم بالرحيل . . أقبل عليه رسول أستاذه محمد شريف يدعوه إليه ليتصافيا بعد تلك الجفوة والنفور . فاعتنقوا شاكراً ومضى نحو الشيخ القرشى ووجد له العهد . . وتعلق بشيخه الجديد وتعلق به شيخه (٣٥)

(٣٢) مهدى الله ص ٨

(٣٣) مهدى الله ص ٤٨

(٣٤) معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ١٩٧

(٣٥) مهدى الله ص ١٩

وفى تصورنا أن هذا الخلاف بين محمد أحمد وشيخه كانت له آثار بعيدة فى حياة « المهدي » وقيامه بحركته . فقد خرج منه الحوارى الثائر متصراً . . . واستدعاه الشيخ القرشى مرحباً . . . ومحمد أحمد « بشر » قبل أن يكون « ولياً »
لقد بدأ يشعر بأهميته فى نظر نفسه . كما بدأ يشعر بحب الناس والتفافهم حوله وكان لانتعاشه من قبضة الشيخ محمد شريف وارتباطه بالشيخ القرشى الذى كان قد بلغ التسعين من عمره ^(٣٦) . كان لكل هذه العوامل أثرها فى نصرته وتصوره وفى حرية فكره وعمله وفى الترحيب والابتهاج بكل ما يشيعه الناس عن كراماته وولايته .

ولم يلبث الشيخ القرشى أن مات قبايعه أتباعه ودخلوا جميعاً فى طاعته ، وكانت هذه البيعة وما أعقبها مقدمة لإعلان مهاديته .

يقول إبراهيم فوزى ^(٣٧) : « إن الشيخ القرشى ذكر قبل وفاته أن زمن ظهور المهدي المنتظر قد حان وأن الذي يشهد على خبري « قبة » ويختن أولادى هو « المهدي المنتظر » فلما سمع المهدي ذلك طار فرحاً وجمع ثلثائة رجل من أتباعه وذهب معهم إلى « الحلاوين » وشيد القبة من اللبن الأخضر وختن أنجال الشيخ القرشى بعد أن أخذ العهود على كثير من الناس بتصديق دعواه قبل أن يصدع بها . . . »

وبينا هو يعمل مع العاملين فى البناء قدم بدوى فارغ القامة نحيلها ، مس الجدرى أطراف وجهه . غريب اللهجة والزى . حديد البصر تومض عيناه بذكاء عظيم هو عبد الله بن محمد ود تورشين من قبيلة التعايشة .

لقد أقبل من غرب السودان يستحث خطاه لأخذ الطريق من محمد أحمد . . . قال له : « ياسيدى : أنا عبد الله بن محمد ود تورشين . . . من قبيلة

(٣٦) المهديّة فى الإسلام ص ٣٠٤

(٣٧) السودان بين يدي عورود وكنت ص ٧٤

التعايشة البقارة . وقد سمعت بصلاحك في دار الغرب . فجت لأخذ الطريقة عنك . وكان لي أب صالح من أهل الكشف . وقد قال قبل وفاته : إنك ستقابل المهدي وتكون وزيره . . . وقد أخبرني بعلامات المهدي وصفاته . فلما وقع نظري عليك رأيت فيك العلامات التي أخبرني بها والذي بعينها ، فأبتهج قلبي برؤية مهدي الله وخليفة رسوله . (٣٨)

وقد ذكر الشيخ محمد شريف بعد خلافه مع محمد أحمد أنه : في سنة ١٢٩٥ هـ جاءني رجل من البقارة يروم سلوك الطريقة السمانية على يدي . فلقته أورادها ومكث ملازماً لخدمتي وأخبرني أنه جاء مع والده من بلاد الكلكلة جنوب مقاطعات دارفور قاصدين الأقطار الحجازية لتأدية فريضة الحج وأنها فقيران لا يملكان غير عجل من البقر ذللاه يزمام وامتطياه على مألوف عادة أهالي تلك البلاد ، ولما وصل إلى بلاد الجمع من تخوم كردفان الشرقية مات أبوه ، ولحق به العجل . فأقام بمنزلي نحو عامين . فكان أكثر كلامه معي قوله : إنك المهدي المتظر من ارتاب في ذلك فقد كفر .

فكنت أنباه عن ذلك القول . . ولا ينهي . وفي ذات يوم قلت له : أنا لست مهدياً وأبغض شيء إلى سماع هذه الكلمة التي لا يسير بها غير تلميذي الذي طردته محمد أحمد . وقلت له على ميل السخرية والازدراء : إذا كنت ممن يتوقعون المهدي فعليك به . .

وفي اليوم التالي سألت عنه فلم أجده . وأخيراً علمت أنه لحق بمحمد أحمد في الحلاوين وهو بشيدفة الشيخ القرشي . وأنه حين وقعت عينه عليه خر على الأرض مدعياً أنه أغشى عليه . وبعد حين رفع رأسه فسأله الحاضرون عن سبب إغمائه فقال : نظرت أنوار المهدي على وجهه فصعقت من شدة تأثيرها على

(٣٨) معالم تاريخ السودان وادي النيل ص ١٩٨

حواسي (٣٩) .

ليس المجال هنا على أية حال لتقوم شخصية التعايشي هذا وسلوكه بكفى أنه أصبح خليفة المهدي وأمير جيوشه . ولم يمر أى اهتمام لكل ما قيل وأشيع حوله . بل أمر بقتل اثنين من رجاله (٤٠) إثر مناقشة بينهم وبينه ، وادعى له العصمة من الخطأ في قوله ، وزعم أن الرسول ﷺ قد اصطفاه - هو الآخر - واختاره (٤١) .

لقد بدأ المهدي في الدخول إلى مرحلة من تلك المراحل الفاصلة في حياته كفرد وفي حياة السودان ك شعب ، وفي التاريخ كرجل من صانعي أحداثه . وعلم من أعلامه . . . مرحلة تصارع فيها نوازع الإنسان ورغائبه بين الرجاء والخوف والأمل والواقع . . . فيخطر له أنه مندوب لأمر هام يروقه أن يصبح له أهلا ، ثم ينكل عنه خوفاً من تبعاته وأهواله . وكلما طالت به المناجاة والتساؤل تمكن منه الخاطر . وتلمس الخلاص من شكوكه بالمزيد من الرياضة والاستعداد عسى أن يلهمه الغيب سبل الرشاد . ويجلو له حقيقة الأمر الذي هو في ريب منه . وإذا احتجبت عنه آيات الإلهام فترة فليس بالعجيب في هذه الحالة - بين الأمل والخوف - أن يذكر فترات الحيرة التي مرت بالرسل الكرام وبحسبها من ضروب الامتحان والتمحيص في انتظار الموعد الموقوت . وقد يصادفه بين هواجس هذه الحيرة من ينقضها عنه ييارقة أمل ورجاء . وكلمة تشجيع قيتثبت بها . وما أسرع النفس إلى التثبت بأمثال هذه العلالة في أوقات الأزمات (٤٢) .

ثم يخطو الخطوة الأولى فلا يعدم من يخطوها معه ويسبقه إلى ما بعدها . ثم

(٣٩) السودان بين يدى غوردون وكنتش من ٧٥ - ٧٦

(٤٠) جغرافية وتاريخ السودان ص ٧٠٨

(٤١) منشورات المهدي تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ص ٦٦

• يقول سلاتين باشا عن التعايشي «كان يعتقد أن الصدق والأمانة لا وجود لما مطلقا عند أى مخلوق وكل ما يظهره الإنسان من ملن ومداينة إنما هو لقضاء الحاجات والمآرب دون سواها . . . ليف والنار ص ٢٢٦

(٤٢) عباس محمود العقاد : الإسلام في القرون العشرين ص ١١٧

تدفعه المصادقات تارة حتى يتوسط الطريق وتسد وراءه شيئاً فشيئاً منافذ الرجوع إن فكر في الرجوع . ولن يلبث بعد ذلك أن يعلق بدولاب الحوادث فتوحى إليه أمرها بحكم الضرورة قبل أن يوحى إليها . فإن خامره شك فقلعه بحسب - في هذه المرحلة - أن المصلحة في التقدم أكبر وأضمن من المصلحة في التراجع والتكوص ، ويزعم لضميره أنه إنما يريد الخير ولا يحاسبه الله إلا بما نواه ^(١٣) .

في غرة شعبان سنة ألف ومائتين وثمان وتسعين من الهجرة الموافق ٢٩ يونية سنة ١٨٨١ م أعلن محمد أحمد عبد الله إلى الفقهاء والأعيان ومشايخ الطرق ورؤساء العشائر والقبائل أنه « المهدي المنتظر » الذي سيملا الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً .

وحيث إن الأمر لله . . والمهدية أرادها الله لعبده الفقير الذليل « محمد المهدي ابن عبد الله » فيجب بذلك التصديق لإرادة الله . . وقد أخبرني سيد الوجود - محمد ﷺ - بأن من شك في مهديتك فقد كفر بالله ورسوله . كررها ﷺ - ثلاث مرات بقظة في حال الصحة . وأنا خال من الموانع الشرعية لا بنوم ولا يجذب ولا سكر ولا جنون بل متصف بصفات العقل . أقفوا أثر رسول الله ﷺ - بالأمر فيما أمر به والنهي فيما نهى عنه ^(١٤) .

« وليكن معلوماً عندكم أني من نسل رسول الله ﷺ فأني حسي من جهة أبيه وأمه . وأمي كذلك من جهة أمها ، وأبوها عباسي والعلم لله بل إن لي نسبة إلى الحسين رضي الله عنه . »

ومها يكن من شيء قد صادفت دعوة المهدي ذبوعاً ونجاحاً كان - دون ريب - لحالة البلاد السياسية والاقتصادية يد كبرى فيه . فقلوب الناس مفتحة ونفوسهم عطشى وقد عمهم القحط والجذب والظلم والبلاء حتى لم يعد في النفوس

(١٣) المصدر السابق ص ١٤٨

(١٤) من منشورات المهديّة - المنشور الصادر في شوال ١٢٩٨ هـ ٢٥ سبتمبر ١٨٨٨ م

الصابرة مترع لمصطير . فأقبل عليه الزعماء وشيوخ القبائل مبايعين قائلين : نبايعك على المهديّة وإن لم تكن مهدياً نبايعك على قتال الحكومة وخلع طاعتها^(١٥) . لقد صدق أهل السودان : خاصتهم وعامتهم دعوى المهدي وهم لا يشكون أن من مات في سبيله نصّيه الجنة والحرور العين حتى صاروا يتمنون الموت وينادون عند رؤية القتال : الجنة جت (أصبحت) قرية تحت المدفع ونحت الزريبة^(١٦) . وقد سموا التجار « كلاب الدنيا » لتفاعدتهم عن الجهاد . وجر رجل سوداني صديقاً له إلى ساحة المحكمة لأنه قال له وهو يودعه - كمادة الأصدقاء عقب كل لقاء - قال : الله يكتب سلامتك . لأن معنى هذه الكلمة أن يعيش عمراً طويلاً ولا يقاتل فيشهد تحت لواء المهدي^(١٧) .

• • •

إنه المهدي المتظر الذي سيملاً الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً . . وماذا ينقص محمد أحمد من هذه الصفات التي وردت في الأحاديث المنسوبة إلى النبي عن أوصاف المهدي ؟

إنه عالم ، وصالح ، وشريف النسب يتّمسك إلى الحسن البسط ، كما أنه أفرق الثنايا ، على خده خال . واسمه محمد . واسم أبيه عبد الله . وبين الرسول شبه في اليتيم . وفي كفاة أخيه الأكبر له بعد وفاة والديه . وقد سمى إحدى زوجاته عائشة ، وكتاها بأُم المؤمنين^(١٨) فمن ذا الذي لا يتقدم بعد ذلك ويبايع ؟ من ذا الذي تسول له نفسه النكوص عن الدخول في طاعة « إمام الزمان » ومهديه للمتظر .

(١٥) السودان بين يدي غوردود وكشر ص ٨٥

(١٦) الزريبة : الموقع الحصن . وكان ينخذ في هذا الوقت من أشجار القابة التي تحيط بها الأحرار من كل جانب .

(١٧) جغرافية وتاريخ السودان ص ٩٥٠

(١٨) مهدي الله ص ٢٢

إنه لا فرار . .

ومن لم يبايع طوعاً . . بايع كرهاً . . ومن لم يبايع بهذا أوداك بايع طمعاً .
يقول نعوم شقير في صفة هذه المبايعة :

« كانت هذه المبايعة على وجهين : الأول . . باليد وهي أن يضع المبايع يده في يد المهدي جاعلاً إيمانه على إيمانه . . ثم يقرأ المهدي صورة المبايعة فيعيد لها المبايع بعده . . وإن كانوا أى (المبايعون) أكثر من الواحد إلى العشرين وضع واحد يده في يد المهدي وألقى الباقيون أيديهم فوق أيديهم . . والوجه الثاني : المبايعة باللسان إذا كانوا أكثر من عشرين . . فيرقى المهدي إلى المنبر أو جمل ويقف الناس أمامه ويبايعونه ، (١٩)

وقد أورد سلاتين باشا صيغة هذه المبايعة في كتابه ينصها الآتي :
« بسم الله الرحمن الرحيم : بايعنا الله ورسوله . . وبايعتاك على توحيد الله . . ولا نشرك بالله شيئاً . . ولا نسرق . . ولا نزن . . ولا نأثم بالهتان . . ولا نعصيك في المعروف . . بايعتاك على زهد الدنيا وتركها . . والرضا بما عند الله رغبة بما عند الله والدار الآخرة . . وعلى ألا نفر من الجهاد » (٢٠)

• • •

وبإعلان محمد أحمد مهديته إلى الشعب . . وإقبال الناس لمبايعته من كل حذب وصوب . . كان « البطل » الذي يبحث السودان عنه قد استكمل كل عناصر الثورة والقوة والحرب .

شعب يرسف في الأغلال . .

سخط متزايد على الأوضاع . .

حكام جهلة أغنياء . . غارقون في الظلم والرشوة والفساد . .

(١٩) جغرافية وتاريخ السودان ص ٦٦٧

(٢٠) البف والتار ص ١١٩

إن كل شيء يهتف بهذا البطل . . ويدعوه للخروج والعصيان . . والتمرد
والثورة .

وقد وجه رموف باشا - الحاكم العام - حملة للقضاء على المهدي في جزيرة
« آبا » بقيادة أبي السعود العقاد فتشت جيوش المهديّة شمل هذه الحملة وتباد ،
وفي سفوح جبل « قدير » تبدد جيوش المهدي حملة ثانية بقيادة راشد باشا وتستولي
على النخيرة والعقاد . . وحملة ثالثة يفودها يوسف الشلالى باشا تلقى المصير نفسه
الذى لقيه حملة راشد باشا والعقاد .

المهدي يزحف . . وسلطان الحكومة يتلاشى ويضعف . . وأعلام المهديّة تنفق
في كل مكان وترفرف . .

لقد انهار كل شيء . . ومعامل الحكومة تسقط موقماً بعد موقع . . والخرطوم
العاصمة قاب قوسين أو أدنى من السقوط والتصدع . . إنه الطوفان . . في سفينة
المهدي - لمن يريد - الأمن والأمان .

ولقد اضطرت القاهرة إلى تغيير حكامها في السودان . . ذهب رموف باشا
ليحل مكانه عبد القادر حلمى باشا . . وذهب عبد القادر باشا ليجيء من بعده
الجنرال « غوردون » باشا .

وهنا لابد من وقفة نتبع فيها أسباب هذا التغير والجيء به « جنرال إنجليزى »
لقيادة الجيش ونسيير الأمور .

كانت الثورة العرابية في القاهرة قد أجهضت . . وحكم على الزعيم عرابى
ورفاقه بالنفى وسبق العلماء والرعماء إلى المحاكمة لتأييدهم « عرابى »
لقد أصبحت مصر من ممتلكات « التاج » . . والإنجليز يهتم استقرار
الأمور . . ومادام في السودان ثورة فسبق مصر في خطر من هذه الثورة . . وقد
أجمع المسؤولون البريطانيون في القاهرة على أن آخر انتصار للمهدي هو بالفعل

تهديد لمصر ، وأن التهديد سيزداد في حالة وقوع الخرطوم في يده (٥١) وكانت إنجلترا تأمل في استخدام غوردون في مصر منذ أوائل الاحتلال البريطاني . وكانت تعلم أن مصر لا يمكن أن تقبل ذلك إلا إذا أجبرت على تعيينه ، كما أنها لا يمكن أن توافق على إرساله إلى السودان حاكماً عاماً - بسبب الطابع اللبني لثورة المهدي ، إن وضعه على رأس الحكم في السودان سيكون معناه انضمام آخر قبيلة موالية لمصر إلى المهدي (٥٢) وكان من رأى غوردون المحافظة على الخرطوم بأي ثمن . . وكان يرى أن السماح للمهدي بدخول الخرطوم لا يعنى مجرد عودة السودان إلى المهجبة . . ولكن يعنى نهديداً مباشراً لمصر .

وكان يعتقد أن الدفاع عن مصر عن طريق تحصين الحدود الجنوبية سيكون عديم الجدوى ، لأن بلاد العرب وسوريا وكل بلاد العالم الإسلامي ستتر نتيجة لرحف المهدي وانتصاراتها (٥٣) .

وقد نساءلت جريدة « البال مل جازيت » عن السبب في عدم إرسال غوردون إلى الخرطوم مزوداً بسلطات مطلقة . . وأسرت الصحف إلى الاقتباس من هذا المقال . .

وأخذت تطالب بضرورة إرسال غوردون إلى السودان ، وعلى أية حال فقد أبلغ السير إيفلين بارنج - القنصل البريطاني في القاهرة - حكومته أن مصر تحتاج إلى ضابط كفء للذهاب إلى الخرطوم واستقر رأى حكومة لندن على أن يكون هذا الرجل هو غوردون (٥٤) .

وصدرت « الأوامر » في القاهرة بتعيينه حاكماً عاماً على السودان . . وسافر

(٥١) الثورة المهديّة وأصول السياسة البريطانيّة في السودان - دكتور يحيى ص ١٠٣

(٥٢) المصدر السابق ص ١٢٧

(٥٣) المصدر السابق ص ١٢٨

(٥٤) الثورة المهديّة وأصول السياسة البريطانيّة ص ١٢٩

بعد ذلك إلى الخرطوم فانطلقت المدافع تحيي الحکدار الجديد القديم . . . فقد عمل « غوردون » في السودان قبل ذلك في عهد الخديو إسماعيل . . . وفي أول لقاء له مع القناصل والعلماء والأعيان يعلن مهمته إلى الناس ويقول :
 « إن السودان قد فصل عن مصر فصلاً تاماً . . . وقد جعلكم حاكماً مفوضاً عاماً . . . فجعلت من محمد أحمد « المهدي » سلطاناً على كردفان . . . وألغيت الأوامر الصادرة بمنع تجارة الرقيق . . .
 ثم يبعث إلى « المهدي » بهدية . . . هي : جبة من جوخ . . . وقفطان حريري . . . ومركوب أحمر . . . وشال من كشمير (٥٥) .

• • •

ماذا يمكن أن يقال في وصف هذا الرجل ؟
 . . . غوردون . . . الذي ذهب إلى السودان حاكماً عاماً باسم مصر . . . يبدأ عمله بإعلان فصل السودان عن البلد الذي يعمل موظفاً لحسابه ويتقاضى أجره من قوت شعبه ومحارب بسلحه وجنده . . . إنه اللؤم البريطاني الذي عرفناه وبلونا شره .
 غير أن المهدي لم ينخدع بما قاله غوردون . . . لقد رفض كلية مضمون هذه الرسالة ووقع رده على رأس غوردون كالصاعقة . . .
 لقد جاء غوردون إلى الخرطوم تنفيذاً لخطة بريطانية بعيدة كل البعد عن آماني الشعبين السوداني والمصري . وقد كتب محمد أحمد بذلك إلى الخديو .
 « ما كان يحسن منك أن تتخذ الكافرين أولياء من دون الله . وتستعين بهم على سفك دماء أمة محمد ﷺ . . . ألم نسمع بقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم فإنه منهم » (٥٦) .

(٥٥) مهدي الله ص ٨٢

(٥٦) سورة الأئدة الآية : ٥١

كما كتب الشيخ الفقيه مصطفى أمير « شنيات الغرب » المجاورة للخرطوم وأحد أمراء المهديّة إلى اللواء محمد نصحي باشا - أحد قواد الجيش المصري - في أثناء وجوده في شندى . . : « أنه لا يليق بكم أن تجعلوا إمامكم « الغوردون » الكافر وتذكروا عدوان الإنجليز عليكم وما جرى لعرائي معهم . . إن الإنجليز أخذوا الملك من الخديو وسيروه جسماً بلا روح . . واستلموا مصر . . ونحن وأنتم إخوان في الدين ولا يجوز لكم أن تعصبوا للكفر على المسلمين . . فالتاس كلهم إخواني في الدين ولا عدو لي إلا الكافر » (٥٧).

لم تكن المعركة إذن بين الشعين في السودان ومصر . ولم تكن بين المهدي والخديو توفيق . كانت المعركة في حقيقتها حلقة في سلسلة الصراع الذي دارت رحاه في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر - على أرض الإسلام لتصفية وجوده كما كانت في الوقت نفسه صورة من صور التنافس بين إمبراطوريات الغرب للسيطرة على الشرق . . وثرواته . .

ويقول آلن مورهد^(٥٨) : « لم يكن بوسع مصر أن ترى - بعد غزو نابليون لها - في نهاية القرن السابق سوى الهزيمة والهوان اللذين أصاباها على يد المسيحيين ، وكان من المؤكد ظهور البوارج الفرنسية والإنجليزية في الإسكندرية عند أول بادرة للاضطرابات كما كان يجيم على الجو دائماً احتمال قيام غزو مباشر ، وفي مايو ١٨٨١ م استولى الفرنسيون على تونس فأنهار معقل آخر من معاقل الإسلام في أفريقيا ، وكان السياسيون في لندن وفي باريس قد شرعوا يتحدثون عن خطر مؤامرة إسلامية شاملة وتجدد التعصب الإسلامي المتطرف » .

وقد أدلى غوردون بتصريحات قوية الأثر بصدد الموضوع الرئيسي - الصراع بين المسيحية والإسلام - في الشرق الأدنى قبل تسلمه الأمور في السودان فقال :

(٥٧) معالم تاريخ السودان وادي النيل ص ١٨٥

(٥٨) النيل الأبيض التبعة المربية ص ٢٠٨ وما بعدها الطبعة العربية القاهرة

« ليس زحف المهدي عبر « وادي حلفا » هو الخطر الذي يخشى . . ولكن الخطر نوع آخر تماماً ، فهو ناشئ عن تأثير قيام دولة إسلامية مظفرة ملاصقة لحدودكم مباشرة ، سيُسد المدن المصرية جميعاً شعور بأن في وسعهم أن يفعلوا ما فعله المهدي . . وأن يطرد واللخلاء والحقنة كما طردهم . . وليست إنجلترا وحدها هي التي تواجه هذا الخطر فإن لجاح المهدي أهاج غلياناً خطيراً في بلاد العرب وسوريا » (٥٩) .

وقد عملت إنجلترا لإجهاض الحركة للمهدية كما أجهضت الحركة العراقية . . فأرسلت غوردون إلى السودان . . وكان السودانيون كما تقول مجلة « العروة الوثقى » : « لم تلتئم جراحهم من ظلم غوردون أيام كان حاكماً مستبداً عليهم . وفي علمهم أنه أعدى أعداء الديانة الإسلامية . فقد طلب وهو فيهم قبلاً من السويس لنشر المذهب البروتستانتي بين مسلميهم . وهل يسهل عليه إرضاء محمد أحمد بعد ما قام بدعوة عظيمة بمنحه لقب أمير كردفان وهل يقنع صاحب هذه الدعوة بمثل هذا اللقب بعد ما تسنى له من الفتوحات واستولى على تلك البلاد بدون أذى غوردون ؟ قد يظن هذه الظنون من لا وقوف له على حقيقة دعوى المهدية وموقعها من قلوب المسلمين » (٦٠) .

وقد كان محمد أحمد المهدي عند حسن ظن الشيخ الإمام محمد عبده وأستاذه جمال الدين . . فقد أعلن رفضه للسلطان والملك لأنه « عبد دال إلى الله وإلى ما عنده . . فن كان سعيداً أجابه . . ومن كان شقياً أعرض عنه » (٦١) . ولكن غوردون كان عنيداً . . كانت فيه أنفة وصلف ، وطيش وتعجرف ، وكان كما

(٥٩) النيل الأبيض تأليف أرن مورفيد ص ٢٢٨ الطبعة العربية .

(٦٠) العروة الوثقى المجلد الأول ص ١٥٥ ط ٦ القاهرة .

(٦١) مهدي الله ص ٨٩

بصفه لورد كرومر^(٦٢) - متطرف العناد مندفعاً متهوراً . . منساقاً لانفعالاته . . كان يتخذ آراء سريعة دون تعمق . . وفادراً ما يصمد على رأيه .

هذا هو غوردون . . كما وصفه اللورد كرومر . . وفي الجانب الآخر من الصورة : نرى أن محمد أحمد كان يتمتع بصفات شخصية نادرة فذة . . كان كما يقول الأب : جوزيف أورنالده « البشر المتساوي الذي وقع في أسر المهدي : عجيب الفتنة . . شديد السمرة . . تعلو وجهه دائماً ابتسامة عذبة . . وكان أسلوبه في الحديث عذباً بدرجة غير عادية » .

ويقول سيروينجت : « لاشك أن هذا الرجل قد أوتي أقوى رأس وأصفي بصرية ذهنية^(٦٣) وقد ذكر « نعوم شفير » وصفاً للمهدي نقله عن أحد أتباعه : كان دائم البشر . . سهل الخلق . . لين الجانب . . ليس بفظ ولا غليظ . . ترك نفسه من المراء وما لا يعنيه . .

وترك الناس من ثلاث : لا يذم أحداً ولا يبعيه . . ولا يطلب عورته . . ولا يواجه أحداً بما يكره . . يتفقد أصحابه ويسأل عنهم . . فن كان غائباً دعا له . . ومن كان حاضراً زاره . . ومن كان مريضاً عاده . . وأفضل الناس عنده أعظمهم نصيحة . . وأعظمهم عنده مترلة : أحسنهم مواساة . . يعطى كل واحد من جلسائه نصيبه حتى لا يحب جلبه أن أحداً أكرم عليه منه . وقد وسع الناس خلقه فصاروا عنده في الحق سواء لا يجرى البيعة بالبيعة . . ولكن يغفو ويصفح . . متخلفاً بالقرآن المجيد . . وما وضع أحد فيه في أذنه إلا استمر مصغياً إليه . . يركب الخمار . . ويجلس على الأرض . . ويأكل مع الخادم . . ويحمل حوائجه بنفسه من السوق^(٦٤) .

(٦٢) لورد كرومر : هو السير ايفلين باريج القنصل الإنجليزي العام في القاهرة وقد حصل على لقب لورد

في الثمانية تقديراً لجهوده في إخماد حركة عمال وثورة المهدي .

(٦٤) تاريخ وجغرافية السودان ص ٩٣٩

(٦٣) الليل الأبيض ص ٦١٥

وكان يلبس جبة مرقعة فوق سراويل من الدبور^(٦٥) ويتمنطق بمنطقة من
خوص .. وعلى رأسه طاقية مكية يلف عليها عمامة كبيرة بيضاء كعمامة أهل
الحجاز ، ويسدل لها عذبة على كفه اليسرى طولها نحو نصف متر . ويضع في عنقه
سبحة .. وفي رجله حذاء أو نعلين^(٦٦) .
ولا يفوتنا في نهاية هذا الفصل أن نركز على جانبين هامين في شخصية المهدي .

الجانب الأول :

عن المهدي كبطل وزعيم قومي .. وقد نجح في دوره هذا كمنحرر هيات له
الظروف كل أسباب النجاح في المجال الوطني .. كما لا يمكن فصل نجاحه في هذا
المجال عن العامل الديني الذي جمع حوله قلوب الشعب السوداني .. وألهم شعور
الكراهية والبغضاء ضد التدخل الأجنبي .. وجعل منه رمزاً للإباء والكبرياء
والصمود والتحدى .

ومما تكن نتيجة هذه الحركة فسبق اسم محمد أحمد ، في تاريخ السودان
علماً على الجهاد والحرية ومثلاً يحتذى به في كل حركة وطنية وقدوة للزعماء
والمجاهدين في آسيا وأفريقية .

أما الجانب الثاني :

فمن محمد أحمد كـ « مهدي » ، ومختار من الله ، لتحرير العالم الإسلامي وهو
الجانب الذي استأثر باهتمام أكبر في العالم الخارجي وفي حقيقة دعواه بأنه « المهدي »
وفي إثارة الجدل والنقاش حول هذه الدعوة وجانبها العقدي - الأمر الذي تناقش
بتفصيل عند تقويمنا لحركة المهدي .

(٦٥) السور قاش من القطن - طردى .

(٦٦) تاريخ وجغرافية السودان ص ٦٦٧

إلا أن الرجل - في أعدل الموازين - كان صيحة تردد صداها في أنحاء العالم
الإسلامي وصيحة جددت الأمل في قلوب المسلمين من أقصى الشرق إلى شواطئ
المحيط الأطلسي .

الفصل الثاني

التيارات الإسلامية التي كانت سائدة في عصره

يقول الأستاذ محمد أسد^(١) :

« إن الحروب الصليبية هي التي حددت في المقام الأول ، والمقام الأهم موقف أوروبا من الإسلام لبضعة قرون تلو . لقد كانت الحروب الصليبية حاسمة لأنها حدثت في أثناء طفولة أوروبا في العهد الذي كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تعرض نفسها ، وكانت ولا تزال في طور تشكلها . وإن الحمية الجاهلية العامة التي أثارها تلك الحرب . لا يمكن أن تقارن بشيء خبرته أوروبا من قبل ، ولا اتفق لها من قبل . لقد اجتاحت القارة كلها موجة من القسوة كانت عنفواناً تغطي الحدود التي بين البلدان وبين الشعوب ، ولقد اتفق في ذلك الحين . . . وللمرة الأولى في التاريخ . إن أوروبا أدركت في نفسها وحدة ، ولكنها وحدة في وجه العالم الإسلامي . وبمكنتنا أن نقول من غير مبالغة : إن أوروبا ولدت من روح الحروب الصليبية . وقد ولدت في أثناء الحروب الصليبية فكرة المدينة الغربية وكانت تلك المدينة الغربية عداوة للإسلام ، ولقد كان في الجانب الإسلامي دائماً رغبة مخلصنة للتسامح ، ولكنه لم يلق أبداً للمعاملة بالمثل . »

(١) محمد أسد اسمه الأصلي «ليوولد غايس» كان يهودياً ثم أسلم . وقد اشتمل في عدة أقطار إسلامية منها : السعودية وباكستان . وهذه الفقرات منقولها من كتاب «الإسلام على مفترق الطرق» فصل : شبح الحروب الصليبية ص ٥٠ - ٦٤ للطبعة الرابعة .

ويقول مالك بن نبي^(٢) :

«... إن أوروبا التي جعلت نفسها المشرف الوحيد على الجنس البشرى لم تعترف منذ كانت مدينتها لا تزال في المهدي ، ترضع اللبن العربي بأية مدينة إسلامية . وكما يقول : جوستاف لوبون سحلاً السب الذي يدفع علماء أوروبا إلى إنكار هذا الجميل برغم أنهم يجب أن يتعدوا عن التعصب - يقول :
الواقع أن استقلال الرأي ظاهري أكثر منه حقيقي ، وذلك لأننا لسنا أحراراً قط في تفكيرنا حول بعض المعلومات . فقد استمر التعصب الذي ورثناه ضد الإسلام وزعمائه خلال قرون عديدة حتى أصبح جزءاً من تركيبنا العضوي^(٣) » إن النصرانية على حد قول الكاتب العالمي « حيدر بامات^(٤) » لا تزال تواجه الإسلام بمقصد وازدراء بمليه عليها التعصب . ويتجلى هذا على وجوه كثيرة ، ومنها مانري في الفقه الدولي ، أو القانون الدولي العام الذي لا يعامل الأمم الإسلامية معاملة مساوية للأمم النصرانية .

« ومنذ نشأة القانون الدولي الحديث كان من المقطوع به اعتبار الإسلام خارج نطاق العلاقات الدولية ، وعدم الاعتراف بتمتع الشعوب الإسلامية بالحقوق التي يقرها هذا القانون ، وعلى هذا الأساس لم يكن الفقهاء الأوروبيون راغبين في اعتبار الدولة العثمانية جزءاً من الجماعة الدولية . ف « جروسيموس » أبو القانون الدولي قال بوجوب عدم معاملة الشعوب غير المسيحية على قدم المساواة مع الشعوب المسيحية . و « جتيليس » هاجم فرنسوا الأول ملك فرنسا لعقده معاهدة مع السلطان سليم العثماني في عام ١٥٣٥ م ، ومع أن هذه المعاهدة أقامت سلاماً بين الدولتين

(٢) من كبار المفكرين المسلمين في الجزائر ولد بشفة ثقافة مرسية . وتوفي عام ١٣٩٤ هـ - ١٩٧١ م بعد أن أخرج مضمواً في جميع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ومن أهم كتبه الظاهرة القرآنية .

(٣) مستقبل الإسلام . مالك بن نبي ص ٣٩ ط بيروت

(٤) بحال الإسلام ص ٥٠٠ مطبعة الحلبي - القاهرة .

مدة حياة الملكين ، ومع أنها أعفت الرعايا الفرنسيين من دفع الجزية التي كانت مقررة على غير المسلمين إذا ما أقاموا في دار الإسلام . فقد كانت هذه المعاهدة مرفوضة لأنها مع ملك أمة غير مؤمنة (٥) .

وربما يظن البعض أن أوروبا قد تخلت عن عدوانها وتعصيا حين رضيت أن تكون الدول العربية والإسلامية معها في هيئة الأمم المتحدة ، وغيرها من المنظمات الدولية ، الواقع ينطق بغير هذا . إن العرب انضموا إلى الحلفاء في الحرب العالمية الأولى . فكوفئوا على صداقتهم هذه بإصدار وعد بلفور ، وانضموا إلى الحلفاء في الحرب العالمية الثانية فكوفئوا بالموافقة على قيام دولة إسرائيل واجتاحت الهند : باكستان الشرقية - لإقامة دولة موالية - فتم لها ما أرادت ولم يعترض أحد على هذا العمل المشين .

• • •

لقد بلغ الإسلام في بداية القرن التاسع عشر نهاية جزره في القوتين : المادية والمعنوية ، لأنه تلقى عن القرون السابقة أثقالاً من المتاعب لم تمتحن أمة من قبله بمثلها ، ولانعرف من المؤرخين من يستغرب مصاب الإسلام بعد ما تلقاه من الضربات منذ القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر . . . وإنما الغريب عندهم هو تلك القوة المنيعة التي صابر بها الكوارث والشدائد زهاء تسعة قرون ، ولم يزل بعدها وحدة إنسانية هائلة تتخذ مكانها بين هيئات الأمم . . . ضربات لم تصمد لمثلها دولة من الدول الجامعة ، أو الدول التي سميت بالإمبراطوريات في العصرين القديم والحديث .

(٥) انظر في هذا الموضوع ، المجلات الدولية الإقلمية ، تأليف الدكتور حافظ غام لصل : « العائلة المولية كانت تتبذ دار الإسلام من حظيرها وكتاب « كفاح دين » تأليف الفكر الإسلامي الشيخ محمد الغزالي ص ١١٢ - ١١٣ الطبعة الرابعة .

« وقد رأينا^(٦) كثيراً من المؤرخين يوازنون بين أخطار هذه الضربات ويجعلون الحروب الصليبية في مقدمتها من هذه الحركات والإغارات ، أو يجعلونها قائمة الضربات بتلوها مانعاً منها من الأخطار والأخطاء ».

وهذه الحروب من غير شك كانت من أعظم الأخطار التي امتحنت بها الأمة الإسلامية . لكنها من غير شك أوقفت عوامل الشقاق بين الأمم الإسلامية رداً من الزمن وكان صلاح الدين الأيوبي بطل هذه الحروب غير مدافع في نظر الدول الأوربية . ونظر الشرقيين على السواء فهو الرجل الذي هيأته العناية الإلهية لهذه المهمة العظيمة وجمع فيه من خصال الحزم والعزم والإخلاص والحرص على الجهاد ، والتفاني في سبيله ، وعلو الهمة في نصر الإسلام ، وحسن القيادة وقوة التنظيم ، والصلاح والديانة ، ومكارم الأخلاق ما لا يجتمع إلا في أفذاذ الرجال في العالم ، وقد توحد العالم الإسلامي من بين نهر الفرات ونهر النيل للمرة الأولى - بعد مدة طويلة - تحت قيادته ، واجتمع تحت لوائه أجناس كثيرة من المسلمين لم تجتمع من قبل^(٧) . إلا أن هذا الرجل الحليم الرصين ثارت ثائره وجن جنونه حين سمع بعزم أرنولد Arnold صاحب « الكرك » على فتح الحجاز ، وإعداد العدة في البر والبحر لاقتحام المدينة المنورة وهدم المسجد النبوي . . . ! فأقسم صلاح الدين ليفتلن هذا الرجل بيده إن مكته الله منه . فكانت موقعة « حطين »^(٨) التي تعد من المواقع الحاسمة في تاريخ الإسلام . وظفر صلاح الدين بشرذمة من الملوك والأمراء وعفا عنهم جميعاً إلا أرنولد هذا . . . فإنه لم يقبل فيه شفاعته من أحد وتناول سيفه وضرب به عنقه بيده وهو يقول : برئت من شفاعته محمد إن

(٦) عباس محمود العقاد الإسلام في القرن العشرين ص ٤٠

(٧) ماذا خسر العالم بأخطائ المسلمين - أبو الحسن الندوي ص ١٥٣

(٨) نرية و فلسطين و عندما كانت المعركة الشهيرة بين صلاح الدين الأيوبي والصليبيين ص ١١٨٧ م.

قلت في هذا الأحق شفاعة شفيع^(٩)

• • •

وقد مات صلاح الدين بعد ما قضى مهمته إلى حد بعيد . . . وتراجع سيل الصليبين بعد أن تعلموا دروساً جديدة مفيدة . . . درسوا جوانب الضعف والقوة في الجبهتين . . . الجبهة الإسلامية . . . والجبهة الصليبية ، وعاد المسلمون سيرتهم الأولى من انقسام وتنافس وغفلة ، ولم تزل قوتهم تضعف وتهدأ دون أن يشعر بذلك أحد ، حتى كانت الإغارة التتريّة التي تركت خلفها الدمار والخراب وكشفت للمسلمين وللعالم الخارجي - وبخاصة الصليبي - حقيقة أضعفهم وضعفهم وبعد أن اجتاحت بغداد زال ذلك الشبح ، وسقط « المجدار »^(١٠) فعانت الطيور والوحوش في الحقل ، وتجنّس الناس على المسلمين ويلاذهم .

• • •

في ذلك الحين . ظهر الترك العثمانيون على مسرح التاريخ ، وضع محمد الثاني مدينة « القسطنطينية » في سنة ٨٥٧ هـ - ١٤٥٣ م . فتجدد بهذا الفتح رجاء الإسلام ، وانبعث الأمل في المسلمين . وكان فتح مدينة « القسطنطينية » دليلاً على قوة الأتراك الحربية ، وحن قيادتهم العسكرية . وكان عمر « محمد الفاتح » في ذلك الوقت أربعاً وعشرين سنة .

ويقول البارون كارادافو Baron Cardevaux : إن هذا الفتح لم يقيض لمحمد الفاتح اتفاقاً ، ولا تبريراً لمجرد ضعف دولة « بيزنطة » ، بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل ، ويستخدم كل ما كان في عصره من قوة العلم ، فقد كانت المدافع حينئذ حديثة العهد ، فعمل على تركيب أضخم المدافع التي يمكن تركيبها يومئذ ، وانتدب مهتماً بحرباً ركب مدفعاً كان وزن الكرة - القذيفة - التي يرمى

(٩) الإسلام في القرن العشرين ص ٤١

(١٠) ما ينصب في الزرع لطرد الطير والوحش - ويعرف في مصر بـ « خيال القطة » .

بها ثلثائة كيلو جرام . وكان مدى مرماه أكثر من ميل . وقيل إنه كان يلزم هذا
للمفع سبعة رجل ليتمكنوا من سحبه . وكان يلزم له نحو ساعتين لحشوه . ولما
ذهب محمد الفاتح لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ثلثائة ألف مقاتل ، ومائة
وعشرون سفينة حربية ،^(١١) .

• • •

ولكن كان من سوء حظ الأتراك والمسلمين معاً أنهم أخذوا في الانحطاط
والتدلى ، ودب إليهم داء الأمم من قبلهم من اليقضاء والتحاسد واستبداد الملوك
وجورهم ، وسوء تربيته . وفساد أخلاقهم ، وخيانة الولاة والأمراء ، وغشهم
للأمة وإخلاد الشعب إلى الراحة والدعة ، وتفشى الجهل والخرافة
وانقطع ما بين المسلمين وعلومهم الأولى ، فنذر فيهم من كان يتعلم النافع منها كالفقه
واللغة والأدب ، والرياضة ، وانقطع ما بينهم وبين العلوم العصرية . فنظر
الكثيرون منهم إلى علوم الجغرافيا ، والطب ، والكيمياء ، كأنها الكفر البواح ، أو
السحر المزيّف . فاصطبغ فهمهم للدين بصبغة الجهل والتخريف ، وطلبوا
الخلاص من غير بابه ، وتوسلوا للعمل بغير أسبابه ، واتهموا الناصحين ، وأسلموا
مقاداتهم للدجالين والمحتالين ، وفي هذه الفترة كان الإسلام كما يفهم الجهلاء مزجاً
من الخرافة والشعوذة ، ومن الطلاسم والأوهام ، ومن الوثنية وعبادة الموق وكان
طلاب الفتوى - من مشارق الأرض ومقاربها - يسألون عن الكبريت هل يحوز
منه ؟ ! وهل يحوز قدح النار منه ؟ أو طبخ الطعام على ناره ؟ أو يأثم من يمس
صنفرته ، لأنه مادة نجسة تنقض الطهارة^(١٢) . . . !

ومع كل هذه العلل . . . فقد كانت الإمبراطورية العثمانية قلعة للإسلام ولم تنكد
هذه القلعة تنهار ، وبصبيها الوهن والضعف ، حتى فتح الباب على مصراعيه أمام

(١١) حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ٢٥٠

(١٢) الإسلام في الفرد الضريع ص ٤٣

الغرب . وانطلق البخار المسموم من مراحل الحق ليدمر كل من يقف في طريقه إلى الشرق .

« وقد كان القرن التاسع عشر ولا ريب أسوأ من كل القرون التي تقدمته لأنه القرن الذي انبثت فيه « المسألة الشرقية »^(١٣) من بقايا الحروب الصليبية . . . وكانت المسألة الشرقية تمخضت عن دور آخر وراء دور الحروب الصليبية وهو دور التناهم بين دول الاستعمار على تركة « الرجل المريض »^(١٤) وتبادل الإغضاء عن كل طرف متفق عليه يقع في قبضة الطامعين فيه من المتنازعين على التركة وصاحبها على قيد الحياة »^(١٥) . . .

إن القلب يمتلئ رعباً وهو يطالع تفاصيل هذه المؤامرة التي حيكّت لضم العالم الإسلامي وإبترازه ، والعمل على تدميره وتخطيه ، وقد ذكر لنا المرحوم شكيب أرسلان مائة مشروع وضعت لتقسيم دولة الخلافة ، وفي هذا الحوار بين القيصر نيقولا إمبراطور روسيا ، والسير هاملتون سيموز سفير بريطانيا تنضج أبعاد هذه المؤامرة الخطيرة ، وكيفية التدبير أو التفكير نجاء العالم الإسلامي وتدميره^(١٦) في ليلة سمر عند الغرائدوقة « هيلانة » الروسية - ٩ يناير ١٨٥٣ م قال الإمبراطور نيقولا للسير هاملتون :

« نأمل . نحن بين أيدينا رجل مريض . . . ومريض جداً ، ويكون بالفعل وبالا عظيماً علينا إن خرج أمره من أيدينا ! »

وفي مرة ثانية دعى السفير هاملتون لمقابلة القيصر فقال له أيضاً :

- « أنت لا تجهل المقاصد والمرامي التي لا تزال في روسيا منذ عهد كاترينا . . .

(١٣) كانت المسألة الشرقية تعني في أول الأمر تخطيط الممالك المسيحية من أبدي الدولة العثمانية وفي مرحلة ثانية أصبحت تعني تقسيم الدولة العثمانية والدول الإسلامية التابعة لها بين الدول الأوروبية .

(١٤) اصطلاح أطلقته الدول الأوروبية على الإمبراطورية العثمانية في مرحلتها الأخيرة .

(١٥) عباس العقاد محمد عده ص ١٠

(١٦) حاضر العالم الإسلامي ج ٣ ص ٣٠٧ - ٣٠٨

وتركيا هي كما قلت لك - من قبل - رجل مريض ، ويجوز أن تموت بالرغم منا !
فبقى عبثاً علينا ، وليس في استطاعتنا نشر الموتى . . .

- « أفلا يكون من الأفضل بحقنا - تفادياً من حرب أوربية - أن نتفق من قبل
على أمرها حتى لا نتخذ على غرة ! وإني أقول لك بصراحة . . . إننا إن استطعنا أنا
وإنجلترا أن نتفق في هذا الموضوع لم يهتنا الآخرون . . . وأنا لا أكتمك أنه إن كان
في نية إنجلترا الاستيلاء عن الآستانة فلن أتحمل ذلك . لا أقول إن لكم هذه النية .
ولكن أقول إن صحت هذه النية فلن أكون راضياً . وأنا نفسي أتعهد أيضاً بأن
لا أحتلها مالمكأ . . . أما بصورة مؤقتة على سبيل الاستيداع فقد أرضى . . . ! ! !
وأما إذا بقيت الأمور بدون قرار بشأنها ، فقد يجوز أني أحتلها قولاً
واحداً . . . ! ! ! ! »

فأجاب السير هاملتون : « ليسمع لي جلالتك بالقول إنه ليس عندنا أدنى سبب
للظن بأن المريض هو على وشك الهلاك ! »
فرد القيصر في حدة قائلاً :

« إذا كان عند حكومتك أمل بأن تركيا لا تزال فيها عناصر الحياة فتكون
المعلومات التي لديها غير صحيحة . . . وأنا أؤكد لك أن المريض هو في حالة
الاحتضار وأنه لا يجوز أن يموت ونحن عنه غافلون . . . ! ! بل يجب أن نتفق . . .
ولست أكلفكم عقد معاهدة . . . أو تحرير صك . . . وإنما أطلب كلمة اتفاق عامة ،
وهذا كاف فيما بين الرجال الأكياس . . . »

• • •

لم يحدث في التاريخ ، وفي أشد عصوره ممجية أن تأمر رئيس دولة على دولة
بجاورة ، والعمل على تدميرها بهذه الطريقة التي كان يفكر بها قيصر روسيا ، ولم
يحدث في أظلم عصور التاريخ ، وأشدّها ممجية ووحشية أن يحكم رئيس دولة على
دولة أخرى بالموت ، ويحدد ساعة موتها بهذه الطريقة ، ولم يحدث ولن يحدث في

للمستقبل كما نظن . ولكن الأحقاد التي تشعبت جذورها في العقل الأوربي وغارت في أعماق مشاعره وإحساسه هي التي كانت تخطط لهذا العمل الممجي ، وتنظم هذا الهجوم الوحشي . . . وتتفق على توزيع التركة قبل التنفيذ العملي . . .

وسواء أكان موقف السفير الإنجليزي تعبيراً عن موقف حكومته . أم لم يكن فإن الواقع ينفي كل اعتبار لحسن النية ، واعتقادنا هو : أن بريطانيا لم تشأ أن تشارك روسيا معها في اقتسام الفصحية .

لقد بدأ الهجوم على العالم الإسلامي في كل أقطاره ، وأحاطت به الجيوش والأساطيل ، في عقر داره ، دمرت بريطانيا ممالك الإسلام في الهند ، وسيطرت على الخليج . واحتلت في طريقها عدن ، وأبحرت أساطيلها شرقاً وغرباً ، فلم تدع جزيرة في بحر ، أو مدينة على ساحل .

وانطلقت فرنسا من وراء بريطانيا ، فاحتلت الجزائر والمغرب وتونس . وذهبت إيطاليا إلى الصومال وأريتريا . وسيطرت هولندا على جزر الهند الشرقية بأكملها . . وأحيطت بممالك الإسلام وسلطاته في شرق وغرب أفريقيا ، وأخيراً وقعت مصر والسودان في قبضة بريطانيا .

لقط سقط « المهدار » ومشت سكة الأجنبي في حقل الإسلام ، وتداعت الأمم على المسلمين ، كما تنبأ النبي - ﷺ - قبل ذلك بأكثر من ألف وأربعمائة عام (١٧) . . .

• • •

كانت التازلة شديدة ، والكارثة كبيرة ، والمعركة ضد الإسلام والمسلمين ضارية عنيفة . كانت هذه الأيام والسنوات كما يقول المؤرخ الجبرني . . . أول

(١٧) في حديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى الأمم على نصيبها » .. الحديث رواه أبو داود والبيهقي و دلائل النبوة . انظر : مشكاة المصابيح ج ٢ طبعه للكتب الإسلامية ١٣٨١ هـ .

سقى الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة . والنوازل الماثلة .
وتوالى المحن . واختلال الزمن . وانعكاس المطبوع . وانقلاب الموضوع وتتابع
الأحوال . واختلاف الأحوال . وعموم الخراب . وتواتر الأسباب ، وما كان
ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (١٨) .

• • •

وبدا رد الفعل . وكان للتصرف الاستعماري البغيض ، والتعصب الصليبي
المقيت أثره السريع في الانتفاض واليقظة ، وإعلان الجهاد والثورة (١٩) وكانت

(١٨) عجائب الآثار للجبري ط الشعب .. القاهرة .

(١٩) لقد كان أول عمل قامت به فرنسا بعد احتلالها الجزائر تحويل مسجد «كيشارو» التاريخي إلى
كاتدرائية Cathedral وأصدرت هيئة البريد الفرنسي طابعاً تذكاريًا يمثل الهلال رمز الإسلام وهو يسط
متحدياً إلى قاع البحر على حين يرفع الصليب رويداً لفسر بناء الأق ..
وعطب جلادسون رئيس وزراء بريطانيا مؤكداً : أننا لا نستطيع قهر المسلمين ما بقى فيهم الكعبة
والمصحف .

وأكد ملك إسبانيا أمام الباب «أن إسبانيا قد جندت نفسها لحرب المسلمين في أفريقيا حرباً لا تنفك عنها
حتى تفرس الصليب في ديار المسلمين وتجمل أتاب محمد يخضعون له قهراً»
ولقد نشرت جريدة الحرة الوثائق منشوراً صادراً عن الحكومة البريطانية يرجع تاريخه إلى أول يوم وطئت فيه
أقدام الإنجليز الهند وقد جاء في هذا المنشور : إذا وجدت في دولتر الحكومة وطبقة لا يقوم بها إنجليزى - أى
لا تليق به . يعين فيها أحد البارسين - الهوس - فإن لم يكن فيهم مقتدر على القيام بها . أقيم فيها ونهى فإن لم
يكن من هؤلاء ولا هؤلاء أحد يصلح لها كلف بها مسلم .

وعندما قصت قلعة السويس أرسل المهندس دبليس إلى البابا يقول له : الآن أصبح الطريق إلى قلب
العالم الإسلامى مفتوحاً . وكانت شركة القناة - جبل التأميم - تخصص في ميزانيتها خمسة ملايين من الجنيهات
لأعمال التبشير فقط سنوياً .

وكان لإيطاليا تشيد برده جنودها في أثناء الهجوم على طرابلس الغرب في ليبيا . يقول هذا الشيد القدى
نظر كلامه سناً وحشداً :

صلى يا أماء ولا نيكى . بل اضحكى وتامل . ألا تعلمين أن إيطاليا تدعون وأنا ذاهب إلى طرابلس
لرحاً مسروراً لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة ولأحارب الديانة الإسلامية . سأحارب بكل قوتي لحو-

السمة الدينية لزعماء الجهاد والإصلاح ظاهرة في كل شعب .. وحركة .. وفي الحالات الاستثنائية التي برز فيها قادة مدنيون أو عسكريون نجد أنهم - في الأصل - نشأوا نشأة دينية ، أو مروا بمرحلة من مراحل التعليم الإسلامي في مسجد أو جامعة ..

في مصر كان الأزهر هو المؤسسة التي يفرغ إليها الناس حين يحزهم أمر ، والمؤمن الذي يقصده الشعب حين تضيق به السبل .. وما أكثر ما كان يحزب الناس من أمر وكثيراً ما كانت تضيق بالشعب السبل ، وكان العلماء والمجاورون يستمعون إلى الشعب عندما يلجأ إليهم ، فيغضبون على من أوقع بالناس الظلم ، وكان غضبهم في

- القرآن .. ! ليس بأهل للمسجد من لم يمت إبطاً حقاً .. يا أماء أنا مسلم .. ألا تعلمين أن الأبراج الزرقاء الصافية من بحرنا متلف سقائنا على المراسي .. أنا ذاهب إلى طرابلس لأن رأيتنا المثلثة الألوان تدعوني وذلك القطر تحت ظلها .. لا تدعوني لأننا في طريق الحياة .. وإن لم أرجع فلا تبكي على وملك .. ولكن اذهبي إلى القبرة ونائم الأصيل تحمل إلى طرابلس وداعك الذي يأتي للجداد على قبر لفة كبدك .. وإذا سألك أحد عن عدم حدادك على لأبيه إنه مات في محاربة الإسلام .. !!

وهنا سقطت مدينة القدس في يد المارشال كني في الحرب العالمية الأولى عطف وقال : الآن انتهت الحروب الصليبية !

وفي دمشق : التي سقطت في يد القوات الفرنسية ذهب القائد الفرنسي غورو إلى قبر البطل صلاح الدين قائلا : لقد عدنا مرة ثانية بإصلاح الدين !

وفي عام ١٩٥٦ في أثناء العدوان الثلاثي على مصر كتب المستر ايندن رئيس وزراء بريطانيا إلى الرئيس الأمريكي أيزنهاور يستجد به لإنقاذ الحضارة المسيحية .

وحملات الإبادة ضد المسلمين في الحبشة وأريتريا والفلبين لا تزال مستمرة حتى - كتابة هذه السطور . انظر في هذا الموضوع :

الظفرة على العالم الإسلامي - ترجمة عبد البين الخطيب ، مساعد الباق ، وكتاب التبشير والاصحار - تأليف : عمر فروخ ، مصطفى الحاردي - وكتاب لاذا تأمر للمسلمون ؟ للأمير شكيب أرسلان . وكتاب كفاح دين الشيخ محمد القزالي . وكتاب « حاضر العالم الإسلامي » ج ١ - ج ٢ . وكتاب التصب والتسامح بين الإسلام والمسيحية للشيخ محمد القزالي . و « طغرات ايندن الطيبة العربية » . وكتاب « المبشرون والمستشرقون » ، عبد الحسي . وكتاب « يوم الإسلام » لأحمد أمين .

أحيان كثيرة كافياً لأن يرجع الظالم عن ظلمه . بل نجد في بعض الأحيان أن الحاكم الظالم كان يعلن توبته أمام العلماء ! ويعاهد أمامهم الله أن يعدل في حكمه . فالأزهر كان بمثابة البرلمان الذي يترجم عن رغبات الشعب رضاءً وسخطاً . والترجمة عن السخط كانت أكثر بطيئة الحال ، لأن شئون الحكم في ذلك الوقت كان فيها الكثير مما يسخط والقليل مما يرضى . وكان وجدان الناس في أغلب أمصار الإسلام وجداناً دينياً . وكانت عاطفتهم في الأغلب قائمة على الدين والعقيدة . والعلماء هم حماة الدين ، والأزهر كعبة العلماء والعلم ، فكان العلماء يشعرون بمألمهم من مكانة . بقدر ما في نفوس الناس من عاطفة دينية ، وكان الناس ينظرون إليهم كحماة للشرع والعدل ، ورفقاء على صلاح الحكم وتوجيه الحاكم وكبح جماح من يرون فيه الشطط أو الإفساد . وكان الحكام يخشونهم لهذه الأسباب وبخاصة إذا اجتمعت كلمتهم مع الشعب على رأى واحد .

... ومن فهم الواقع على جليته أن نذكر أن أهل البلد قد حددوا وظيفة الأزهر ووظائف علمائه تحديداً بمرأحياناً على الدستور المكتوب . فكان منهم من يتولى الصدارة في شئون السياسة ومخاطبة الحكام : لأنه أقدر على هذا العمل وأصلح . وكان منهم من يثق الناس بفقواه ، ويطمثون إلى تراثه في أمور الدين والرياسة ، وكان منهم من يفاوض الوالى التركى وليس هو بأعظم علماء البلد وكان منهم من يفاوض القائد الفرنسى ، وليس هو بمكان الرياسة العلمية ، ولكنهم كانوا مرشحين لوظيفة السفارة بما لهم من خبرة في سياسة الناس ، وأساليب الإقناع ، وعلاج المشكلات ولغيرهم سمعة في هداية القلوب والبصائر ، والتماس الوسيلة عند الله إذا خابث الوسائل عند العباد (٢٠)

وقد ذكر الجبرتي - في حوادث ذى الحجة ١٢٠٩ هـ أن غضب العلماء كان يصل إلى حد الثورة وقيادة الشعب ضد الحكم والسلطة . فقد ذهب جماعة من

الناس إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر يشكون من ظلم الوالى محمد بك الألفى . . فتضب الشيخ وأمر الناس بغلق حوائثهم ومتاجرهم ثم جمع العلماء وأمر بقفل الأزهر وسار معه خلق كثيرون وهم يهتفون : نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع ، وإبطال الحوادث والمكوسات (الضرائب) . . ثم قابلوا مندوب الوالى الذى قال لهم : إن ذلك غير ممكن فإنا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعاشات والتفقات . فقال له العلماء : إن الأمير يكون بالإعطاء لا بالأخذ فعاد المشايخ إلى الأزهر واجتمع فيه الكثير من أهل الأزهر والقاهرة وأطرافها وياتوا فى المسجد فخشي الوالى ورجاله مغبة الثورة ، وأرسلوا إلى العلماء بفاوضتهم ثم انتهى الأمر إلى أنهم - أى الأمراء - تابوا ورجعوا ، والتزموا بما شرطه العلماء عليهم ، وأن يبطلوا المظالم ، ويسيروا فى الناس سيرة حسنة ثم خرج العلماء ومعهم شيخ الأزهر وأمام كل واحد منهم وخلفه جملة عظيمة من الناس وهم يتادون : بطلت جميع المظالم كما رسم سادتنا العلماء^(٢١) .

وحين غزا نابليون مصر عام ١٧٩٨ م ، جمع العلماء . . ثم خرج من المجلس وعاد وهو يحمل بنفسه عدداً من الطليسات بألوان العلم الفرنسى ، فوضع واحداً منها على كتف شيخ الأزهر . . فتضب غضباً شديداً ، وتغير لونه ، وألقى بالطليسات على الأرض^(٢٢) . . . ! لقد رفض العلماء كل محاولة للخداع ، ثم أعلنوا الثورة . . وقادوا الشعب فى جهاده ضد المستعمر . . فركب الفرنسيون رءوسهم وأطلقوا المدافع على الأزهر . . وعلى العلماء ، ثم اقتحموا المسجد ، ودنسوا محاريبه ، وربطوا فيه الخيل والدواب ، فلم يتقضى غير قليل حتى خرجوا من مصر ملحودين ، بعد أن خيل إليهم وإلى الناس أن لن يخرجوا منها مكرهين .

• • •

(٢١) مصر فى القرن الثامن عشر - محمود الشرقاوى ج ٢ ص ١٣٤

(٢٢) المصدر السابق ص ١٣٣

كان الدين هو القوة المحركة الوحيدة في هذا الوقت . وكان العلماء هم الجزء المحي في جسم الأمة الميت . . وكما أن السيف والقيثارة قد اجتمعا في عصور الوثنية - قبل البعثة النبوية - فكذلك اتحد في الإسلام العلم الديني . . بالنوع الحرلي . واستخدمت هذه المواهب في مكافحة الكفر والزندقة . . والتاريخ القديم للإسلام . مفعم بالأمثلة الكثيرة التي من هذا القبيل . وأقدم نموذج لهذا ما أثار عن الإمام علي بن أبي طالب وسيفه . وقد كان في الوقت نفسه حجة في كافة المسائل الدينية التي كان يعالجها بعلمه الديني الراسخ .

بل إننا نرى غالباً في الأخبار الدينية المستيقنة هذا الجمع بين المزايا الحربية والعلمية في أشخاص كانوا على رأس الجيوش المحاربة ، ولكي ثبت استمرار هذه الظاهرة حتى عصرنا الحاضر يكفي أن ندلل على ذلك بـ « عبد المؤمن » مهدي الموحدين في المغرب ، في القرن الثاني عشر للميلاد الذي غادر كراسي التعليم ومنتابر الوعظ ليكون على رأس جيشه ، ويؤسس دولة إسلامية عظيمة في المغرب بعد حروب حامية أثارها ، وأبدى فيها كثيراً من ضروب البسالة ، والبطل الحديث عبد القادر الجزائري^(٢٣) الذي قاوم الفرنسيين مقاومة حربية بأسلة عندما أخذوا في إخضاع الجزائر ، ولما انتهى جهاده جمع حوله في متناه بدمشق طلابه ومريديه الذين تابعوا في إصغاء واجتهاد دروسه في الفقه والعلوم الدينية الأخرى .

ومن يمثل هذه الظاهرة الفذة في تاريخ الإسلام الحديث « شامل » بطل الاستقلال القوقازي ، والمهديون الحريون الذين ظهروا في السودان

(٢٣) وقد كان من الأمثلة البارزة الأخرى المرحوم الأمير عبد الكريم الخطاطي الذي دوخ الفرنسيين والإسبان في حرب الريف ببلاد المغرب :

كما كان لحركة الشيخ عبد الحميد بن باديس أثرها في الثورة الجزائرية ، والحفاظ على الصفة الإسلامية للشعب الجزائري . وكانت دروسه ، وحفلات تعليمه مدرسة جامعة للزعهاء والطماء . والرئيس الجزائري هواري بومدين واحد من تلاميذه في هذه المدرسة

والصومال^(٢١) .

وحول نهاية القرن الثامن عشر ظهر من بين جماعة الفولاني رجل معروف يدعى الشيخ عثمان دنفديو عرف بأنه مصلح ديني وداع محارب^(٢٢) . وقد ذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وعاد من هناك مليئاً بالحماسة والغيرة من أجل الإصلاح والدعوة إلى الإسلام ، وتأثر بمبادئ الوهابيين ، وكانت جماعة الفولاني التي ينسب إليها الشيخ عدة قبائل صغيرة تحيا حياة رعوية هادئة ، فعمل الشيخ عثمان دنفديو على توحيدها ، وجعل منها جماعة قوية ، وقد حاول ملك مملكة « جوير » الوثنية أن يعوق قوة الفولاني المتزايدة في مملكته ، فأدى ذلك إلى أن رفع عثمان دنفديو علم الثورة ، وسرعان ما وجد نفسه على رأس جيش قوى واستطاع أن يفرض سيطرته على الممالك الوثنية والولايات الإسلامية المجاورة ، فسقطت هذه الولايات واحدة بعد أخرى وأصبحت كل أراضي الحوصا تحت حكم « دنفديو » قبل وفاته سنة ١٨١٦ ولا يزال قبره في (سوكوتو) مثابة يقصدها الناس من كل جهة^(٢٣) .

وكانت هناك حركات حرية أخرى قام بها رجال جمعوا بين العلم الديني والجهاد بالسيف ، منهم الحاج عمر الذي ولد سنة ١٧٩٧ م على مقربة من بودور Bodour على السنغال الأدنى ، ويظهر أنه كان رجلاً كرم السجايا ، ذا نفوذ شخصي ، ومظهراً يوحى بالسيطرة والقوة ، وكان ابناً لأحد المرابطين ، وثقف ثقافة دينية متينة ، واشتهر بعلمه وورعه ، وقد سافر إلى الحج سنة ١٨٢٧ م ولم يعد إلى وطنه إلا سنة ١٨٨٣ م حيث نشط في نشر تعاليم التيجانية وهاجم أبناء دينه لجهلهم مهاجمة عنيفة وقد التف حوله كثير من الأتباع ، وكرم كـ « مهدي جديد » وما إن وقت سنة ١٨٤١ م حتى كان قد بلغ جبال فوتاجالون حيث سلح أتباعه

(٢١) العقيدة والشريعة الإسلامية ص ٢٦٦ .

(٢٢) انظر في هذا الموضوع « إحياء السن » تأليف عثمان دنفديو طبع إدارة الثقافة بالأزهر .

(٢٣) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٦٠ - ٣٦٣ .

وبدا سلسلة من الحملات في نشر الدعوة ، وفي إحدى هذه الغزوات لقي حظه سنة ١٨٦٥ م^(٢٧) . . . ولدينا تفاصيل أخرى عن حركة من هذا النوع ، وأحدث زمناً من تلك الحركة التي قام بها الحاج عمر المهدى السنغالي . . . وقد قامت هذه الحركة في جنوب « سنغاميا » على يد أحد أفراد قبيلة « الماندنجو » ويدعى « أحمد صمودو » وقد ولد أحمد هذا في سنة ١٨٤٦ م وأسس إمبراطوريته في جنوب « سنغاميا » في البلاد التي يروها نهر النيجر الأعلى وروافده ، وقد بلغ « أحمد صمودو » قوته سنة ١٨٨١ م^(٢٨) وبعد ذلك بقليل دخل في نزاع مع الفرنسيين ، فأسروه سنة ١٨٩٨ م بعد سلسلة من الغزوات القاسية^(٢٩) .

ومع اعتقادنا . . بأن هذه الحركات الأفريقية الثلاث قد تركت تأثيرها في فكر المهدي السوداني بحكم الجوار ، والتقارب العاطفي ، فإننا سنركز في بحثنا هذا على ثلاث حركات أخرى كان لها في نظرنا التأثير الأقوى في تكوين فكر المهدي ، وفي تأثيرها المباشر على السودان ووضعها الداخلي .

هذه الحركات الثلاث هي .

حركة محمد بن عبد الوهاب في نجد .

وحركة السنوسى في الشمال^(٣٠) من جهة الغرب .

وحركة جمال الدين الأفغانى في مصر .

• • •

يقول لوثرروب ستودارد :

في القرن الثامن عشر ، كان العالم الإسلامى قد بلغ من التضعف أعظم

(٢٧) المصدر السابق ص ٣٦٧

(٢٨) نفس السنة التي قام فيها المهدي بدعوته

(٢٩) الدخلة إلى الإسلام ص ٣٦٩

(٣٠) شمال السودان الغربى (ليبيا)

مبلغ ، ومن التلنى والانحطاط أعمق مدركة قاريد جوه ، وأطبقت الظلمة على كل صقع من أصقاعه ، وانتشر فيه فساد الأخلاق ، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب وماتت الفضيلة في الناس ، وساد الجهل ، وانطفأت قبسات العلم والفضيلة وانتقلت الحكومات الإسلامية إلى مطايا ، استبداد وفوضى ، واغتيال ، فليس يرى في العالم الإسلامي في ذلك العهد سوى المستبدين الفاشمين ، كسلطان تركيا وأواخر ملوك المغول في الهند يحكمون حكماً واهناً فاشي القوة ، وقام كثير من الولاة والأمراء يخرجون على الدولة التي هم في حكمها ، وينشئون حكومات مستقلة ، ولكن مستبدة كحكومة الدولة التي خرجوا عليها ، فكان هؤلاء الخوارج لا يستطيعون إخضاع من في حكمهم من الزعماء هنا وهناك ، فكثرت السلب والنهب ، وقصد الأمن وصارت السماء تمطر جوراً وظلماً . وجاء فوق ذلك رجال الدين المستبدون (الجامدون) يزيدون الرعايا إرهاباً فوق إرهاب ، فظلت الأيدي ، وبارت التجارة ، وأهملت الزراعة ، وكاد العزم يتلاشى في نفوس المسلمين^(٣١)

وأما الدين الإسلامي . . . فقد غشيته غاشية سوداء . . . فألبست الوحدات التي علمها صاحب الرسالة سحفاً^(٣٢) من الخرافات ، وقشور الصوفية ، وخلت المساجد من أرباب الصلوات ، وكثر عدد الأدعياء والجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون في أعناقهم التمام والتعاويد ، ويوهمون الناس بالباطل والشيات ، ويرغبونهم في الحج إلى قبور الصالحين ، والأولياء ، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور ، وغابت عن الناس فضائل القرآن فصار يشرب الخمر والأفيون في كل مكان ، وانتشرت الرذائل ،

(٣١) حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ٢٥٩ - ٢٦٠

(٣٢) سحفاً . قال القاموس المحيط : السحفاً السحر . وجاء في ناس البلاغة نسجت السحر أركانه

ومن الجلاء : نسجت الليل : أنظمت .

وهتكت ستور الحرمات على غير خشية أو استحياء . ونال مكة المكرمة . والمدينة المنورة مآتال غيرهما من سائر مدن الإسلام . . وعلى الجملة فقد بدل المسلمون غير المسلمين ، وهبطوا مهبطاً بعيد القرار ، فلو عاد صاحب الرسالة إلى الأرض ورأى ما كان يدعى بالإسلام لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين ، كما يلحن المرتدون وعبد الأوثان (٣٣) .

وفيما العالم الإسلامي مستغرق في هجته ، مدلج في ظلمته . . إذا بصوت بدوى من أعماق الجزيرة - مهبط الإسلام - يوقظ المؤمنين ، ويدعوهم إلى الإصلاح وكان هذا الصوت . . صوت محمد بن عبد الوهاب . . نشأ في بلدة «العين» في نجد (٣٤) . وتعلم دروسه الأولى بها على يد علماء الدين من الحنابلة ، وسافر إلى المدينة المنورة ليمتع تعليمه ، ثم طوف في كثير من بلاد العالم الإسلامي ، فأقام نحو أربع سنوات في البصرة ، وخمس سنوات في بغداد وسنة في كردستان ، وبستين في همدان . ثم رحل إلى أصفهان ودرس هناك فلسفة الأشراف والنصوف ، ثم رحل إلى «قم» وأقام بها مدة ، ثم رجع بعد ذلك إلى بلده ، واعتكف عن الناس نحو ثمانية أشهر ، ثم خرج عليهم بعد ذلك بدعوته الجديدة . كانت أهم مسألة شغلت ذهنه هي مسألة التوحيد . التي هي عماد الإسلام ، والتي تعبر عنها أصدق تعبير كلمة «لا إله إلا الله» والتي تميز بها الإسلام عما عداه من الأديان . والتي جاء بها وجاهد في سبيلها محمد رسول الله ﷺ .

فالتوحيد أساسه الاعتماد بأن الله وحده هو الخالق وليس في الخلق من يشاركه في خلقه ، ولا في حكمه ، ولا من يعينه على تصريف أموره ، لأنه تعالى ليس في حاجة إلى عون أحد من خلقه ، فهو الذي بيده الحكم وحده . وهو الذي بيده النفع والضر وحده ، ولا شريك له في ملكه ولا حكمه ، فعنى لا إله إلا الله ليس

(٣٣) حاصر العالم الإسلامي ج ١ ص ٢٥٩

(٣٤) ولد محمد بن عبد الوهاب سنة ١١١٥ هـ ونوفى في سنة ١٢٠٦ هـ الموافق ١٧٠٣ - ١٧٩١ م.

في الوجود سلطة حقيقية تسير العالم وفقاً لما وضع من قوانين إلا هو ، وليس في الوجود من يستحق العبادة والتعظيم إلا هو .

إذاً . . . فما بال العالم الإسلامي اليوم يعدل عن هذا التوحيد المطلق الخالص وبشرك مع الله كثيراً من خلقه ، فهؤلاء الأولياء يجمع إليهم ، وتقدم لهم النذور ويعتقد أنهم قادرون على النفع والضرر ، وهذه الأضرحة المقامة في شتى ديار الإسلام يشد الناس إليها الرحال ، ويسبحون بها ، وبثللون لها ، ويرجون منها جلب الخير ودفع الشر ، في كل بلدة ضريح أو أضرحة ، تشرك مع الله في تصريف الأمور كأن الله سلطان من سلاطين الدنيا القاشمين ، يتقرب إليه بذوى الجاه عنده وأهل الزلفى لديه ، أليس هذا كما يقول مشركو العرب « مانعدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى » (٣٥) وقولهم « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (٣٦) . . . بل وأسفاه لم يكتف المسلمون بذلك .

بل أشركوا مع الله حتى النبات والجماد . . . فهؤلاء أهل بلدة « منفوحة » بالجمامة يعتقدون في نخلة هناك أن لها قدرة عجيبة ، من قصدها من العوائس تروجت لعامها . . . وهذا الغار في الدرعية يجمع الناس إليه للتبرك . . . وفي كل بلدة من بلاد الإسلام مثل هذا . . . ففي مصر « شجرة الحنّى » و « نعل الكلثنى »

(٣٥) الآية رقم ٣ من سورة الزمر

(٣٦) الآية رقم ١٨ من سورة يونس .

• شجرة الحنّى : كانت في مسجد من مساجد القاهرة يسمى مسجد « الحنّى » و « نعل الكلثنى » نعل قديم كان في إحدى التكايا القديمة تعرف بشبكة للكلثنى . وكانوا يعتقدون أن من شرب الماء المنفوع من هذه النعل يشق من داء العشق !

أما بوابة الحول . . . فهي إحدى البوابات الرئيسية للجنة القاهرة القديمة من جهة الغرب . وتقع في حي الدرب الأحمر بجوار مسجد المريد قريباً من الجامع الأزهر وكان النساء يذهبن إلى هذه البوابة ويربطن في ساميرها الضخمة بعض خصلات من شعرهن وكان الاعتقاد عندهن أن من تفعل ذلك نعل مشكلتها في الحب أو البنض . . . زعماء الإصلاح ص ١٢

و « بوابة التولى » وفي كل قطر حجر وشجرة . . فكيف يخلص التوحيد مع كل هذه العقائد .

وأساس آخر يتصل بهذا التوحيد الذي كان يفكر فيه محمد بن عبد الوهاب وهو « أن الله وحده هو مشرع العقائد ، وهو وحده الذي يحلل أو يحرم ، فليس كلام أحد حجة في الدين إلا كلام الله وسيد المرسلين ، فإله تعالى يقول : أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » (٣٧) . . . إذا . . . فكلام المتكلمين في العقائد وكلام الفقهاء في التحليل والتحريم ليس حجة علينا . . . الحجة فقط الكتاب والسنة ، وكل مستوف حق الاجتهاد له الحق أن يجتهد ، بل يجب عليه أن يفعل ذلك ويستخرج من الأحكام على حسب فهمه لنصوص الكتاب ، وما صح من السنة - ما يؤديه إليه اجتهاده . . .

واقفال باب الاجتهاد كان نكبة على المسلمين إذ أضاع شخصيتهم ، وقوتهم على الفهم والحكم ، وجعلهم جامدين مقلدين يبحثون وراء جملة في كتاب ، أو فتوى مقلد مثلهم ، حتى انحط شأنهم وتفرقوا أحزاباً يلعن بعضهم بعضاً ، ولا منجاة من هذا الشر إلا بإبطال هذا كله والرجوع إلى الدين في أصوله ومنابعه . يقول المولى محمود الألوسي (٣٨) أحد مریدی الشيخ :

« . . . ثم أعلن الشيخ محمد بالدعوة والإنكار على الناس ، فبعه أناس من أهل بلدة « حريملة » واشترى بذلك ، وكان رؤساء بلدة حريملة قبيحتين أصلها قبيلة واحدة وكل منها يدعى الرئاسة . وليس في البلد رئيس يحكم على الجميع ، وكان لإحدى القبيلتين عبيد يقال لهم « الحميان » وهم أهل فساد فأراد الشيخ محمد أن ينجيهم من فسقهم وقبحورهم . وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر . فهم العبيد

(٣٧) الآية رقم ٢١ من سورة التورى

(٣٨) من كتاب علماء العراق في القرن الثاني عشر الهجرى وهو صاحب تفسير روح المعاني المشهور بين

ليلاً بقتله خفية ، فلما تسوروا عليه من وراء الجدار علم بهم بعض الناس فصاحوا بهم . فانتقل الشيخ محمد من بلدة حريملة إلى « العينة » ورئيسها يومئذ عثمان بن محمد بن معمر فتلقيه بالقبول وأكرمه وحاول نصرته وقال الشيخ محمد له :
« إني أرجو إن أنت قتت بنصره لا إله إلا الله أن يظهر الله وتلك
« نجداً » . فاعده عثمان فأعلن الشيخ محمد بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر ، وشد في التكفير على الناس ، فبعضه بعض أهل « العينة » وقطع أشجاراً
كانت تعظم في تلك النواحي ، وهدم قبة قبر زيد بن الخطاب - رضي الله عنه -
عند « الجيلة » فعظم أمره .

فبلغ خبره إلى سليمان بن محمد بن عزيز الحميدي صاحب الأحساء والقطيف
وما حوله من العربان . . فأرسل سليمان كتاباً إلى عثمان وكب فيه :
« . . . إن « المطوع » (٣٩) الذي عندك قد فعل ما فعل ، وقال ما قال . فإذا
وصلك كتابي فاقتله . فإن لم تقتله قطعنا خراجك الذي عندنا في الأحساء » ، وكان
خراجه ألفاً ومائتين ذهباً ، وما يتبعها من طعام وكسوة .

فلما ورد الكتاب إلى عثمان لم تسعه مخالفته ، فأرسل إلى الشيخ محمد وأخبره
بكتاب سليمان وقال له : لا طاقة لنا اليوم بحرب سليمان . فقال الشيخ محمد :
إنك إن نصرته ملكك نجداً . فأعرض عنه عثمان ، وأرسل إليه ثانياً أن سليمان
أمرنا بقتلك في بلدنا فشأنك ونفسك وخل بلادنا . وأمر فارساً يقال له « الفريد
الظفيري » بإخراجه من البلد ، فركب الفارس جواده ، والشيخ يمشي على رجله
أمامه ، وليس معه إلا المروحة ، وذلك في أشد الحر من الصيف ، فهم الفارس
بقتله في الطريق ، فكف الله يده عنه ، لما أصابه من الرعب والخوف العظيم وخل
ميل الشيخ . فسار الشيخ إلى « الدرعية » وكان ذلك سنة ستين بعد المائة والألف

(٣٩) المطوع كلمة تطلق على علماء الدين في الجزيرة العربية وإمارات الخليج ولا تزال هذه الكلمة شائعة
إلى اليوم في هذه المناطق .

من الهجرة . . . ووصل إليها وقت العصر فترل في بيت عبد الله بن سويلم
العريني . . . فلما دخل عليه ضاقت به داره ، وخاف على نفسه من محمد بن سعود
صاحب الدرعية ، فوعظه الشيخ حتى سكن روعه وقال :
سيجعل الله لنا ولك فرجاً . . . فاستقر . . . فأراد أن يخبر محمد بن سعود بحاله ،
وبرغبته في نصرته ، فالتجأ إلى أخويه « مشاري » و « وثيان » وإلى زوجته « موحى
بنت أبي وطحان » من آل كثير ، وكانت ذات عقل وفهم ، فأخبروها بحال الشيخ
وصفته من الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقلد الله حجة الشيخ في
قلها ، فأخبرت زوجها محمد بن سعود بحاله وقالت له : إن هذا الرجل أتى إليك ،
وهو غنيمة ساقها الله إليك ، فأكرمه وعظمه واغتنم نصرته . فقبل قولها وألقى الله بحبه
في قلبه ، ثم سار إليه محمد بن سعود وقال له : أبشر بالخير والعزة والمنعة . فقال له
الشيخ : وأنا أبشرك بالفر والتحكين والغلبة على جميع بلاد نجد ، وهذه كلمة
« لا إله إلا الله » من تمسك بها وعمل بها ونصرها ، ملك بها البلاد والعباد ، وهي
كلمة التوحيد ، وأول ما دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم . . . (١٠)

وكان له من التصانيف كتب كثيرة منها : كتاب التوحيد ، وتفسير القرآن ،
وكتاب : كشف الشياطين ، والكتاب الذي تضمن دعوة الشيخ من هذه الكتب ،
هو كتاب « التوحيد الذي هو حق الله على العبيد . . . » (١١) وفيه يحمي الشيخ
الذنوب التي تكفر صاحبها ، وتعتبر شركاً بالله . . . وأكثرها من البدع والخرافات
والمغالاة بتعظيم الأحرار والأولياء . . .

• • •

(١٠) الإسلام في القرن العشرين ص ١٠٣ وما بعدها .

(١١) وقد ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب في هذا الكتاب ثمانية وستين موضوعاً انظر الطبعة الثالثة من

هذا الكتاب ط بيروت ١٣٩١ هـ .

وفي الحقيقة أن محمد بن عبد الوهاب قد تأثر في دعوته بالإمام ابن تيمية ، ولم تكن حركته هذه إلا إحياء لتلك الحركة (الفكرية) الرائعة التي قادها هذا الإمام الجليل ، وتعرض بسببها لهن شتى وبلاء أشد (١٢) .

(١٢) هو تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن تيمية الحراني الحنبل ولد في حران في يوم ١٠ ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ وتوفي سنة ٧٢٨ هـ . كان إماماً في الحديث حتى قيل : إن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية ليس بمحدث ١ . ولد تبرا في الفقه مكان المذهب الأول بحق . وقد بلغ من علو شأنه في العلوم العقلية والمطوية والفلسفة أن كان المتخصصون في هذه العلوم يحضون أمامه كالتلاميذ . زد على هذا كله جرأة وشجاعة بلغتا به أعلى درجات الجهاد والتضحية . وقد جاهد التار باليهف ودخل السجن بسب آرائه أكثر من مرة وقد مات فيه رحمه الله رحمة واسعة .

كان ابن تيمية يعيب التعصب لأحد المذاهب الفقهية . ويوجب على التعصب العقوبة وكان يقول : من تعصب لواحد من الأئمة بعينه ، فقد أشبه أهل الأهواء . سواء تعصب لمالك أو أبي حنيفة أو أحمد . أو لغير واحد من هؤلاء ، ثم إن غاية التعصب لواحد منهم . أن يكون جاهلا بقدره في العلم والدين وبقدر الآخرين .. فيكون جاهلا ظالما . واقفه بأمر بالعمل ويسى عن الظلم . وليس لأحد أن يتخذ قول بعض العلماء شعاراً يوجب اتباعه وينهى عن غيره مما جاءت به السنة . ومن أسباب تسلط التفرق على بلاد الشرق كثرة التفرق بينهم في المذاهب حتى نجد للتعب إلى الشافعي يتعصب للمذهب على مذهب أبي حنيفة حتى يخرج عن الدين ، وللتعب إلى أحمد يتعصب للمذهب على هذا وعلى ذلك . وكل هذا من التفرق والاختلاف الذي نهى الله ورسوله عنه . وكل هؤلاء المتصيين بالباطل المتعين للظلم وما نهى الأئمة . المتعين لأهوائهم بغير هدى من الله .. مستحقون للعقاب .

ثم ينهى عن التشديد فيقول :

لا تضلوا . ولا تغفلوا مالكا ، ولا الشافعي . ولا الثوري . وتعلم كما تعلموا . وحرام على الرجل أن يفتل في دينه الرجال ، فإنهم لم يسلوا أن يغلطوا .. والتفقه في الدين فرض من لم يعرف ذلك لم يكن متفهما في الدين .

وقد قرر ابن تيمية أن بعض الناس كرامات . وأن بعضهم يجرى الله على يديه خوارق العادات ولكن ذلك لا يقتضى أنهم أناس معصومون من الخطأ . بل هم عباد مخاطبون بالتكليف لجرى عليهم أحكامه . وإن الكرامة ليست أفضل من الاستقامة ولذلك كان بعض الصالحين . يطلب من الله تعالى أن يهبه الاستقامة وينزل في ذلك كلمة أبي علي الجرجاني وهي : « كن طالبا للاستقامة لا طالبا للكرامة . فإن نفسك منجبة على الكرامة » لا ليا من حب الظهور والتفيز . وذلك يتطلب منك الاستقامة . وإن تلك الكرامة لا تسوغ أن يتخذ الرجل الصالح وسيلة لله سبحانه إذ أن التوسل لله تعالى بغير عباده جائز ولذلك نهى النبي ﷺ أن -

لقد عرف محمد بن عبد الوهاب « ابن تيمية » عن طريق دراسته الحنبلية فأعجب به ، وعكف على كُتبه ورسائله يكتبها ويدرسها . وفي المتحف البريطاني بعض رسائل لابن تيمية مكتوبة بخط يده . . . فكان ابن تيمية إمامه ومرشده ، وباعث تفكيره والموحى إليه بالاجتهاد والإصلاح والدعوة .

- يستغفر للمشركين ولو كانوا أولى قرى ..

ولقد قال النبي ﷺ لأتاريه الأدين « باسم شر قرش : اشتروا أنفسكم من الله فإني لا ألهي حكم من الله شيئاً . يا بني عبد المطلب : لا أفي عنكم من الله شيئاً يا عباس بن عبد المطلب . لا أفي عنك من الله شيئاً يا صفية عمة رسول الله لا أفي عنك من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله من مالي ما شئت . لا أفي عنك من الله شيئاً ..

كما أن الاستغاثه بغير الله عند ابن تيمية ممنوعة بإطلاق . لأن النبي ﷺ قال : « إنه لا يستغاث في .. وإنما يستغاث بالله .. » وقد نقل عن أحد كبار المتصوفة وهو أبو يزيد البسطامي أنه قال « استغاثه المخلوق بالمخلوق كاستغاثه الفريق بالفريق » .

وكما أنه لا يقرب إلى الله بعباده الأحياء . ولا يستغاث بهم . فإنه لا يقرب بالأموال ولا يستغاث بهم . ويقول في ذلك : إنه ليس لنا أن نطلب من الأنبياء والصالحين شيئاً بعد موتهم - وإن كانوا أحياء في قبورهم - لأن ذلك فريضة إلى الشرك . وعبادتهم من دون الله .. وإذا كان التقرب أو الاستغاثه بالصالحين غير جائزين في الحياة وفي المات إذ أنه يشبه التضرع للقبور . أو لسكران القبور أو العاكفين على القبور أو العاكفين على القبور فإن ذلك كله حرام إذ أنه يشبه التضرع للأوثان سواء أكان نذر زيت أم كان غيره . ويقول في ذلك : ومن يعتقد أن للقبور نفعا أو ضررا فهو جاهل . وأن من يعتقد أن هذه التدوير باب الخواص إلى الله تعالى ، وأنها تكشف الضر وتفتح الرزق ، وتحفظ المصرا فهو مشرك يجب قتله .

والنتيجة المنطقية لهذا كله : أن زيارة قبور الصالحين بقصد التبرك غير جائزة . أما إن كان للعتقة والاحبار فإنه يجوز

(أ) انظر في هذا الموضوع مجموعة الرسائل ج ١ لابن تيمية

(ب) تاريخ المذاهب الإسلامية ج ١ للشيخ محمد أبو زهرة ص ٢١٧ وما بعدها

(ج) العائكة الإسلامية للفتية المصري الشيخ السيد سابق

(د) الإسلام عقيدة وشريعة للإمام الأكرمة الشيخ محمود خليل

(هـ) عقيدة المسلم للأستاذ الشيخ محمد الغزالي

(و) محاضرات في الفكر الإسلامي للدكتور محمد الهادي

فقد دعا مثله إلى رد البدع ، والتوجه بالعبادة إلى الله وحده . . لا إلى المشايخ والأولياء والأضرحة ، ولا بوساطة توسل ولا شفاعة ، وزيارة القبور إن كانت فليظة والاعتبار ، لا للتوسل والاستشفاع ، فهم لا يملكون شيئاً يحاسب الله وقوائمه الثابتة التي لا تتخلف ، والتي نظم بها كونه .

كما كان محمد بن عبد الوهاب يرى أن ضعف المسلمين ، وسقوط همتهم ونفسيهم ليس له من سبب إلا العقيدة ، فقد كانت العقيدة في أول أمرها صافية نقية من أى شرك ، وكانت : « لا إله إلا الله » معناها السمو بالنفس عن الأحجار والأوثان وعبادة العظماء وعدم الخوف من الموت في سبيل الحق ، وعدم الخوف من استنكار المنكر والأمر بالمعروف مما تبع ذلك من عذاب ، ولا قيمة للحياة إلا إذا بذلت في رفع لواء الحق ودفع الظلم ، وهذا هو الفرق الوحيد بين العرب في الجاهلية والإسلام ، وهذه العقيدة وحدها : عزوا ، وملكوا ، وقنحوا . .

ويرى الفقيه المصري الشيخ محمد أبو زهرة^(٤٣) : أن الوهابيين لم يزيدوا في العقائد شيئاً عما جاء به ابن تيمية ، ولكنهم تشددوا فيها أكثر مما تشدد ورتبوا أموراً علمية لم يكن قد تعرض لها ، لأنها لم تشهر في زمانه وعهده ، فهم لم يكفوا بجعل العبادة كما قررها الإسلام في القرآن والسنة ، وكما ذكر ابن تيمية ، بل أرادوا أن تكون العادة أيضاً غير خارجة على نطاق العبادات ، ولذلك حرموا الدخان وشددوا في التحريم حتى إن العامة منهم يعتبرون المدخن كالمشرك ، وكانوا يحرمون على أنفسهم القهوة وما يماثلها ، وقد تساهلوا فيها بعد ذلك ، ولم تقتصر دعوة محمد ابن عبد الوهاب على الدعوة المجردة ، بل عمدت إلى السيف المحاربة المخالفين لهم باعتبار أنهم يحاربون البدع ، وهي منكر نجس إزالته ، وأنهم تشددوا في أمور ليس فيها وثنية ، ولا ما يؤدي إلى الوثنية ، وأعلنوا استنكارها كالتصوير الفوتوغرافي وأنهم توسعوا في معنى البدعة ، حتى زعموا أن وضع ستائر على الروضة الشريفة أمر

(٤٣) تاريخ المذاهب الإسلامية ج ١ ص ٢٥١ وما بعدها .

يدعى . ولذلك منعوا تجديد السائر التي كانت عليها حتى صارت أسماً
بالية (١١) .

...

وقد شعرت الدولة العثمانية بالخطر يهددها بخروج الحجاز من يدها والحجاز
موطن الحرمين الشريفين اللذين يعلنان لها في العالم الإسلامي مركزاً ممتازاً تفقد
الكثير منه إذا أفلت الحجاز من يدها . فأرسل السلطان محمود إلى محمد علي ،
والى مصر أن يخرج بجيشه للقضاء على الحركة وفي الوقت نفسه بدأت حملة واسعة
من الدعاية ضد الحركة والدعوة . وحمل عليها علماء الإسلام حملة منكرة ، وقد
انتهت هذه الحملات بالهزيمة العسكرية للوهابيين ، ولكن الدعوة بقيت كامنة في
القلوب والعقول ، ومن حين إلى آخر ، كانت هذه الدعوة تجد الفرصة الملائمة
للظهور حتى آل إليها في نهاية الأمر حكم هذه البلاد الواسعة بعد أن اندمجت
أجزاؤها المبعثرة واتحدت تحت راية التوحيد ، وصارت مملكة إسلامية تحت حكم
آل سعود وطار ذكرها في العالم متخبطاً كل الحواجز والقيود . . .

كان موسم الحج ميداناً صالحاً لعرض الدعوة على أكابر الحجاج واستمالتهم فإذا
عادوا إلى بلادهم كانوا من الداعين إليها . والمتحسين لها ، ومن هذا الطريق
طريق الحج . بدأت الدعوة في الذبوع والانتشار في ربوع العالم الإسلامي من أقصى
الشرق إلى أقصى الغرب . . .

ففي الهند حمل الدعوة الوهابية الإمام السيد أحمد الشهيد المولود في راي
بريلي سنة ١٢٠١ هـ ، ونظم جماعة إسلامية كبيرة أحسن تربيته الدينية والحرية ،
وهاجر معها من طريق بلوختان ، وأفغانستان إلى حدود الهند الشمالية ، واتخذها
مركزاً لدعوته . ليتقدم منها إلى الهند لإجلاء الإنجليز ، وتأسيس دولة إسلامية على
الكتاب والسنة . وقد انتصر هؤلاء المجاهدون على الشيخ الذين احتلوا

البنجاب ، واستولوا على « بشاور » وما حوّلها من القرى والمدن ، وطبقوا النظام الإسلامى فى كل شبر حرروه من الاستعمار الإنجليزى والفرنسى ، واستطاعوا فى فترة وجيزة السيطرة على معظم الولايات فى الحدود الشمالية الغربية (١٥) .

وفى زنجبار : قامت حركة مشابهة لحركة ابن عبد الوهاب ، واقتفت أثره فى الدعوة والإرشاد ، وحملت لواء الثورة على البدع والخرافات .

وانتقلت الدعوة الوهابية إلى شمال أفريقيا على يد الإمام السنوسى الذى تناول حركته بالتفصيل بعد الفراغ من محمد بن عبد الوهاب .

وفى اليمن ظهر أعلم علمائه ، وإمام أئمتته ، وهو الإمام الشوكانى ، فسار على النهج نفسه ، وألف كتابه القيم « نيل الأوطار » شارحاً فيه كتاب ابن تيمية . . . « متقى الأخبار » عارضاً الأحاديث النبوية ، مجتهداً فى فهمها ، وفى استنباط الأحكام الشرعية منها ، ولو خالف المذاهب الأربعة كلها ، ودعا فى قوة إلى عدم زيارة القبور والتوسل بها وقد قال فى « نيل الأوطار » . . . « وكفى سرى عن تشييد القبور ونحسينها من مفاصد يئس لها الإسلام . منها : اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام ، وعظم ذلك فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر فجعلوها مقصداً لطلب قضاء الحوائج ، وملجأً لنجع المطالب ، . . . ومع هذا الكفر الشنيع لا نجد من يغضب لله ويغار على دينه الخفيف ، لا عالماً ، ولا متعلماً . ولا وزيراً ولا ملكاً وقد بلغ الأمر أن الواحد منهم يحلف بالله كاذباً ، فإن قيل له احلف بشيخك تلعم وتلكأ . وهذا من أبين الأدلة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال إنه تعالى ثاين اثنين أو ثالث ثلاثة (١٦) .

(١٥) انظر فى هذا الموضوع .

كتاب : إذا هبت ريح الإيمان للمفكر الإسلامى «أبو الحسن الندوى» . طعة الهند وكتاب «موجر التاريخ تجديد الدين وإحيائه للعلامة المودودى» ص ١٢١ ط بيروت

(١٦) زعماء الإصلاح ص ٢٢

وفي سومطرا وجدت الدعوة الوهابية لها أعواناً ، وأنصاراً على يد المحتاج
الذين زاروا مكة واعتنقوا الدعوة ، وقد عظم شأن هذه الدعوة هناك حين بدأت
توسع نطاق نفوذها بالقوة . ولم يستطع الهولنديون كسر شوكتها قبل ستة عشر عاماً
من القتال فوق أرض سومطرا^(١٧) .

وفي غرب أفريقيا انتشرت هذه الدعوة على يد المجاهد الشيخ عثمان دقديو كما
سبق بيانه^(١٨) .

وفي مصر شب الشيخ محمد عبده ، فرأى تعاليم ابن عبد الوهاب نملاً للجو ،
فرجع إلى أصولها من عهد ابن تيمية إلى عهد ابن عبد الوهاب ، وقد هداه بحته
 واجتهاده إلى هذين الأساسين اللذين بنى عليهما محمد بن عبد الوهاب دعوته وهما
محاربة البدع ، وفتح باب الاجتهاد .

وقد ذكر باول شمستر Paul Schmits في كتابه الإسلام قوة القديس^(١٩) : إن
الوهابيين أمتد سلطانهم إلى كربلاء في العراق ، وإلى جبال لبنان وامتدت سيطرتهم
إلى شواطئ البحر الأحمر والمحيط الهندي .

ومها يكن قول المؤرخين والفقهاء في حركة محمد بن عبد الوهاب ، فإنها في
الحق : - وكما يقول العلامة محمد إقبال - كانت « أول نبضات الحياة في الإسلام
الحديث ، وقد كانت هذه الحركة مصدر إلهام بصفة مباشرة أو غير مباشرة لمعظم
الحركات الإسلامية الكبرى في آسيا وأفريقيا^(٢٠) » .

• • •

(١٧) الإسلام قوة القديس ص ١١٩

(١٨) انظر في هذا الموضوع : انتشار الإسلام والعروبة لها على الصحراء الكبرى ص ٧٦ وكتاب الدعوة

إلى الإسلام ص ٣٦٧ .

(١٩) الإسلام قوة القديس ص ١١٣

(٢٠) تجسيد التفكير الديني في الإسلام ص ١٧٧ ط القاهرة

أما ثاني هذه الحركات التي ظهرت في القرن التاسع عشر ، فهي الحركة السنوسية . وتنب هذه الحركة إلى السنوسى الكبير . وهو محمد بن على السنوسى الخطاى الإدريسى ، ولد في سنة ١٢٠٢ هـ . وتوفي سنة ١٢٧٦ هـ . والمسرح الزمنى لهذه الحركة هو النصف الأول من القرن التاسع عشر .

وقد ولد السنوسى في قرية «الواسطة» بالقرب من بلدة «مستغانم» في الجزائر . وينتهي نسبه إلى الحسن البسط بن على بن أبى طالب وقاطنة بنت رسول الله - ﷺ - ، كما يتتب إلى الإدارة التي أسس إدريس الأكبر دولة لهم في مدينة «وليلي» بمراكش (المغرب) سنة ١٧٢ هـ في القرن الثامن الميلادى .

وهو من عائلة عرفت بالعلم ، ويرجع إلى عمته السيدة قاطنة الفضل في تنشئة الدينية والعلمية بعد أن توفي والده في سن الخامسة والعشرين ، وبقى هو في كتف عمته ، ويقال إنه كان لما شغف علمي ، وإنها انقطعت للدرس والوعظ والإرشاد . كما يقال : إنه كان يتردد على مجلسها كثير من الرجال^(٥١) وقد التحق وهو في سن صغيرة بأحد معاهد بلدة «مازون» بالجزائر ، ثم ذهب إلى «فاس» للالتحاق بجامع «القرويين» الذي يشبه الجامع الأزهر في التعليم ، وهناك في جامع القرويين درس السنوسى فقه المالكية وبعد أن أجيز أقام للتدريس فيه فترة من الوقت ، ثم أقبل على التصوف ، فتلمذ على يد الشيخ أحمد بن محمد التيجاني - صاحب الطريقة التيجانية - التي أسست في آخر القرن الثامن عشر في بلاد الجزائر . وعندما بلغ من الثلاثين ترك السنوسى الكبير مدينة «فاس» قاصداً مكة لأداء فريضة الحج ، وهناك - أبى في مكة - أقام ست سنوات ودرس خلالها الفقه الإسلامى على علماء مكة . وتعرف على أحوال المسلمين عن طريق اتصاله بالحجاج في موسم الحج ، ثم عاد إلى الجزائر حوالى سنة ١٨٢٥ م وبقى هناك إلى سنة ١٨٢٣ م أى بعد الحملة الفرنسية على الجزائر بثلاث سنوات ، ثم ذهب مرة

(٥١) محاضرات في الفكر الإسلامى ص ٧٣

ثانية إلى الحجاز وأقام بمكة حوالي ثمانى سنوات أخرى وأظب فيها على التحصيل والدرس والتقى فيها ببعض العلماء منهم السيد أحمد بن إدريس القاسى الرئيس الرابع للطريقة القادرية المراكشية الذى تجاوب معه روحياً وعلماً . ثم صحبه فى رحلته إلى اليمن وكان معها فى هذه الرحلة السيد محمد عثمان الأميرغنى أحد تلاميذ السيد أحمد القاسى ، ومؤسس الطريقة الأميرغنية فى السودان . وقد عاد السنوسى بعد ذلك إلى مكة . وأسس زاوية « جيل أبو قيس » فالتف الناس حوله وأقبلوا عليه ، فخشى رجال الدولة العثمانية من حركته هذه متأثرين فى ذلك بما لاقوه من الحركة الوهاية وانضم إليهم العلماء وشيوخ مكة وساندوهم فى هذا الموقف كما فعلوا ذلك من قبل فى مقاومة الحركة الوهاية^(٥٢) .

وقد ترك السنوسى الحجاز متجهاً إلى القاهرة ومعه بعض أتباعه ، وأقام فيها بضعة أشهر بين علماء الأزهر وطلابه ، ثم اضطر بعد ذلك إلى الرحيل خوفاً على حياته بعد أن تعرض للقتل بسبب آرائه واجتهاده .

يقول الشيخ محمد عبده^(٥٣) :

إن الشيخ السنوسى كتب كتاباً فى أصول الفقه زاد فيه بعض المسائل على فقه المالكية ، وجاء فى كتاب له مايدل على أنه ممن يقهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة . وأنه قد يرى مخالفة رأى مجتهد أو مجتهدين إذا ما اقتنع برأيه وفقاً للكتاب والسنة . فعلم بذلك أحد المشايخ^(٥٤) للمالكية . فحمل حرية وطلب الشيخ ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين . ولولا مغادرة السنوسى للقاهرة لارتكب الشيخ القاضل

(٥٢) كان السنوسى قد اختلق الملعب الوهاى أو السلقى أثناء إقامته فى الحجاز ، ونادى بفتح باب الاجتهاد والرجوع إلى الكتاب والسنة . انظر فى هذا الموضوع الإسلام قوة المد العالمية ص ١١٩ - والدعوة إلى الإسلام ص ٣٧١ . وانتشار الإسلام والعروة فيما على الصحراء ص ٢١

(٥٣) الإسلام فى القرن العشرين ص ١١١

(٥٤) هو الشيخ عيسى وكان من كبار علماء الأزهر . وكان مالكي القديس .

هذه الجريمة وقتل السنوسى ورأيه بهذه الحرية . . . !
إنها مأساة الفكر فى كل عصر ، وهى مأساة تبلغ ذروتها حين تنسب إلى دين من
أهم خصائصه أعمال النظر والفكر ، ويعتبر العقل أساس التكليف فى كل ما يصدر
عنه من نهى أو أمر .

• • •

لقد رحل صاحبنا عن القاهرة ، واتخذ مقامه فى الصحراء الغربية مبتدأ حركته
الإصلاحية ، واختار لمقامه « واحة جغبوب » وبنى بها مسجداً ومدرسة للعلوم
الدينية ، ثم بدأ فى نشر طريقته ببناء الزوايا فى أرجاء العالم الإسلامى ، فقام الكثير
من هذه الزوايا فى « برقة » وطرابلس ، ومصر ، والسودان ، وبلاد العرب . . .
ولم يمض السنوسى فى عام ١٨٥٩م حتى كان قد نجح فى تأسيس دولة دينية بقوة
عبريته الصافية ودان أتباعه بالطاعة والولاء لهذه الدولة ، وقد التزم هؤلاء الأتباع
بتنفيذ أوامر القرآن بدقة ، وقد أوجبوا على أنفسهم الامتناع عن شرب القهوة ،
والتدخين ، وأن يتجنبوا كل اتصال باليهود والمسيحيين ، وأن يساهموا بنصيب من
أموالهم يضاف إلى أموال الجماعة إذا لم يستطيعوا أن يكرسوا أنفسهم لخدمتها ، كما
أوجبوا أن يكون نشاطهم كله موجهاً إلى خدمة الإسلام ، وإلى مقاومة التدخل
والنفوذ الأوربى فى أى بلد من بلدانه ، وفى أى قطر من أقطاره .

وكانت زواياهم الفرعية قد بلغت ١١٢ زاوية ، وكانت هذه الزوايا الفرعية
تلقى التعاليم والأوامر - من الزاوية الرئيسية فى الجغبوب - فى كل المسائل المتعلقة
بشئون هذه الدولة الدينية الكبرى التى كانت تضم فى نظام رائع آلافاً من أشخاص
ذوى جنسيات وقوميات منبئة . وقد شغل نشاطهم أرجاء السودان وسنغاليا
وببلاد الصومال كافة . بل نجدهم كذلك فى بلاد العرب والعراق وجزائر أرخبيل
الملايو (٥٥)

ومع أن السنوسية كانت في أول أمرها حركة إصلاح داخلية في الإسلام نفسه . . . فإنها أصبحت إلى جانب ذلك ، حركة لنشر تعاليم الدعوة^(٥٦) وأصبحت عدة قبائل أفريقية كانت من قبل وثنية أو ملحة إسلاماً اسمياً ، أصبحت هذه القبائل من أتباع الإسلام للتحسين منذ أن حل فيهم دعاة السنوسية ، وكان لهم نشاط كبير في بلاد الجالا Galla كما كان لهم نفوذ في بلاد هرر Harer . وقد طهروا من استيطانهم في الصحراء وبخاصة في وادي Wadai بزيادة كبيرة في عددهم ، وكان يتم ذلك بشراء عبيد كانوا يعلمونهم في « جنوب » مركز الحركة فإذا ما رأوا أنهم تعلموا مبادئ الدعوة تعليماً كافياً ، أعقبهم وأعادهم إلى أوطانهم كي يدخلوا إخوانهم في الإسلام^(٥٧) .

• • •

لقد بلغت السنوسية في دعوتها أقصى درجات النجاح ، بفضل هذا النظام الدقيق الذي كانت تسير عليه « الزوايا » وما اتسم به هذا النظام من « إسلامية » التوجيه والفكر ، بين الفاعلين فيها والمترددين عليها ، كما كان لشخصية السنوسى الكبير أثرها الفعال في إضفاء نوع من التقديس والاحترام على هذه الزوايا وفرض سيطرته عليها ، وكانت الزوايا من جانب آخر هي المجال العلمى لأفكار السنوسى والزوايا من الجهة المساحية كانت تضم المؤسسات الآتية :

(أ) مسجداً .

(ب) مدرسة لتحفيظ القرآن .

(ج) مساكن للطلاب الغرباء يطلق عليها « خلوة » وكانت « الخلوة » مقسمة

بحسب مواطن الغرباء وكل قسم منها يسمى « رباطاً » .

(د) مكتبة علمية .

(٥٦) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٧١

(٥٧) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٧٢

(هـ) معهداً دينياً لتدريس العلوم الإسلامية .

(و) بيتاً للإخوان وهم الأساندة .

(ز) مجلساً للضيوف . وهو مكان يعد لاستقبال الوافدين وإقامتهم فترة

من الوقت .

لهذا . . . كانت لاتقام الزاوية إلا في بقعة مختارة اختياراً دقيقاً . . . بحيث تسهل فيها الحياة ، وبحيث تؤدي فيها الرسالة لأكبر عدد من الرواد والمقيمين ، فكانت لاتقام إلا بجوار الآبار ، وعلى الأطلال التي خلفها الرومان في الصحراء ، وفي المواضع الصالحة للزراعة ، وفي المواقع الاستراتيجية ، كأن تكون في تقاطع عدة طرق أو ملتقى القوافل ، أو قرية من الحدود الليبية ، في اتصالها بمصر أو تونس ، أو الجزائر ، أو السودان ، أو قلب الصحراء الكبرى^(٥٨) .

وقد تحولت هذه الزوايا السنوسية عندما بدأ الغزو الإيطالي لليبيا عام ١٩١١ م إلى مراكز للمقاومة ، وأدت في خدمة الوطن الليبي مهمة جليلة ، إذ بفضلها استمرت المقاومة الشعبية من سنة ١٩١١ م - ١٩٢٨ م ولم تنته المقاومة إلا بعد أن تألب العالم الغربي على الحركة السنوسية ، فسلمت إنجلترا واحة «الجغبوب» إلى إيطاليا باسم الحكومة المصرية . . . ! ودخلت الحكومة الفرنسية «فران»^(٥٩) . باسم المحافظة على تونس .

توزيع رخيصة للفتنم . . . واتفاق خسيس بين المتآمرين على الضحايا . . . لقد تركوا بريطانيا حرة في ابتلاع السودان ومصر . . . فلماذا لانتزكهم هي الأخرى يفعلون ماشاء لهم الحق والطمع والغدر ؟ !

وقد استطاعت إيطاليا في النهاية القضاء على آخر جيوب السنوسية بجريمة بشعة ، فقد ألقى القبض على السيد «عمر المختار» زعيم المقاومة ، ثم حمل إلى طائرة ، وبعد أن ارتفعت في الجو . أسقطوه منها فوق عدد كبير من الليبيين ،

(٥٨) محاضرات و الفكر الإسلامى ص ٨٢ (٥٩) نحد الأقاليم الليبية من جهة الغرب

فاستشهد في التو^(٦٠)

• • •

ولقد كان السنوسي سياسياً بعيد النظر ، حين اتجه بنشاطه وحركته إلى الجنوب في الصحراء ، بعيداً عن مركز السلطة ، التي كانت تمثل السلطان ، آنذاك . . . ويبدو أنه استفاد من « الدرس » الذي لفته دولة الخلافة للحركة الوهابية ، ثم إن الجيش الذي قضى على هذه الحركة - وهو الجيش المصري - كان على مرمى حجر من مقره ، وقد كانت واحة « الجنوب » مركز الحركة تابعة لمصر في هذا الوقت كما قلنا .

يقول بول شمر :

« لقد تفادى السنوسيون المقاومة ضد سلطان القسطنطينية ، فلم يوجهوا دعائهم إلى طرابلس ، حيث يعتبر السلطان نفسه هو الحاكم عليها ، وبحثوا عن أماكن لا تقابلهم فيها مقاومة السلطة الحاكمة ، ووجدوا ذلك في الجنوب ، وكان أحسن حقل نبت فيه دعوتهم ، وعندما غزت إنجلترا السودان لاقت مقاومة عنيفة من المهدي في السودان . وقدم السنوسيون للمهدي مساعدات كبيرة وعضدوه ضد الغزو الأجنبي^(٦١) »

• • •

لقد انبثت هذه الحركة في ظروف عصية أملت بالعالم الإسلامي . . . ودأبته في معاقله . إنها نفس الظروف التي أحاطت بابن تيمية في القرن الرابع عشر - قبله - وهي نفس الظروف التي لم تتبدل حين قام محمد بن عبد الوهاب بحركته في القرن الثامن عشر ، كان الشعور بضعف المسلمين بسبب الفرقة المذهبية والتوجيه

(٦٠) محاضرات في الفكر الإسلامي ص ٧٣ ولقد كان الإيطاليون يحملون زعماء المقاومة في طائفة ثم يألون كل واحد منهم عريه . فإذا قال ، محمد ، ألقوه من الطائرة وقالوا له : ليأت محمد ويخلصك . . !

(٦١) الإسلام قوة الفتى العالية ص ١٢١ - ١٢٢

المنحرف في الشؤون الدينية ، والانهيار الاقتصادي ، وتهديد الغزو الأجنبي ، وتفكك أجزاء الوطن الإسلامي وضعف السلطة في مقر الخلافة كما كان الحال في بغداد على عهد ابن تيمية ، كان الحال كذلك في « القنططية » على عهد محمد ابن عبد الوهاب ، ومحمد بن علي السنوسي ، كان الشعور بضغط العالم غير الإسلامي ، على العالم الإسلامي يتمثل في عهد ابن تيمية في هجوم التار والصليبيين منذ آخر القرن الحادي عشر إلى قرب نهاية القرن الثالث عشر .

وفي عهد محمد بن عبد الوهاب والسنوسي بدأ يتمثل في هجوم الاستعمار الغربي على رقعة العالم الإسلامي ، ولهذا نرى أن ما يؤثر من آراء السنوسي لابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب من بعده ، وما فعله السنوسي نفسه يعتبر رد فعل لعوامل واحدة ، وعلاجاً لحالة متشابهة .

وقد ترك لنا السنوسي بعض آثاره^(٦٢) العلمية التي يمكن أن نلخص آراءه واجتهاده فيها بأنني :

- أولاً : وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة .
- ثانياً : وجوب اتباعها وتقديمها على رأى أى مجتهد .
- ثالثاً : فتح باب الاجتهاد ورد قول من يقول : إن الاجتهاد قد انقطع .
- رابعاً : رفض التقليد والنهي على المقلدين .

يقول لوثرروب ستودارد^(٦٣) :

« كل هذا برهن على أن السنوسي كان جاداً غير منقطع في إعداد ما يستطيعه من الوسائل لتنفيذ خطته التي كان ينوي تنفيذها بعد اكتمال العدة ، وكانت هذه الخطة تهدف إلى افتتاح جميع البلاد الأفريقية ، ثم سائر الأقطار الإسلامية .

(٦٢) منها كتاب « إيضاح الوسائل » ، وكتاب « السبيل المعين » ، محاضرات في الفكر الإسلامي

(٦٣) حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ٢٩٩

ثم جعل العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه . . . مملكة متحدة علق رأسها خليفة واحد . . .

• • •

الحركة الثالثة والأخيرة من هذه الحركات هى حركة جمال الدين الأفغانى وكما يقول : لوثرروب ستودارد^(٦١) :



سيد جمال الدين

كان جمال الدين سيد النابغين الحكماء . وأمير الخطباء البلقاء ، وداهية من أعظم الدهاة . دامغ الحجة ، قاطع البرهان ، متوقد العزم ، شديد المهابة ، فلهذا كان المهاج الذى انتهجه عظيماً ، وكانت سيرته كبيرة . فبلغ من علو المترلة بين المسلمين ما قل أن يبلغ سواه . وكان سائماً جواباً ، طاف العالم الإسلامى وجمال فى غربى أوروبا بلداً بلداً . فأكسب من هذه السباحات الكبرى . ومن الاطلاع

(٦١) حاض العالم الإسلامى ج ١ ص ٣٠٥

العميق والتبحر الواسع في سبر الأمم والعالم علماً راسخاً . وكان جمال الدين يعامل منجته داعية مسلماً كبيراً ، فكانه على وفور استعدادة ومواجهه ، إنما خلقه الله في المسلمين لنشر الدعوة فحسب . فانتقادت له نفوسهم ، فليس هناك من قطر من الأقطار الإسلامية وطئت أرضه قلما جمال الدين الأغفاني إلا وكانت فيه ثورة اجتماعية لا تخبو نارها ، وكان أول مسلم أبقن بخطر البطرة الغربية وأدرك شؤم المستقبل ، وما سيقترل بساحة الإسلام والمسلمين من النالبة الكبرى إذا لبث الشرق الإسلامي على حاله التي كان عليها ، فهب جمال الدين يفضحي بنفسه في سبيل إنقاذ العالم الإسلامي وإنذاره بسوء العقبى .

وتتلخص دعوة جمال الدين . . . في أن العالم النصراني على اختلاف أممه وشعوبه هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم ، وللإسلام على الخصوص . فجميع الدول النصرانية متحدة على ذلك المالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً . وإن الروح الصليبية لم تزال كامنة في صدور النصارى كمون النار في الرماد ، وإن روح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل ، فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً في عناصرها متغلغلاً في أحشائها ، ومنشياً في كل عرق من عروقها . وهي أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة العدا والحقد ، والتعصب الديني المفقوت ، وحقيقة هذا الأمر وتبجته واقعتان في كثير من الشؤون الخطيرة والمواضع الكبرى حيث القوانين الدولية لم تعامل الأمم الإسلامية مستوية مع الأمم النصرانية^(٦٥) .

كما تتحل الدول النصرانية أعداء شتى في كرهها وهجومها وعدوانها على الممالك الإسلامية وإذلالها وإكراهها . . . ولم تزال هذه الدول تتذرع بألوف الذرائع حتى بالحديد والنار للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون في بلادهم وديارهم في سبيل الإصلاح والنهضة ، وإن جميع الشعوب النصرانية مجتمعة ومتفقة على عدا

(٦٥) حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ٣٠٦ - ٣٠٧ . زعماء الإصلاح ص ١٠٥

الإسلام ومسححه سحقاً^(٦٦) .

وقد أرقه هذه الحال كثيراً ، وشغلت باله طويلاً . وكان يقول دائماً : « لقد جمعت ماتفرق من الفكر ، ولمت شعث الشعور . ونظرت إلى الشرق وأهله فاستوقفتني أرض الأفغان وفيها تثقف عقلي ، فإيران بحكم الجوار والرباط . فجزيرة العرب . وهي مهبط الوحي . والعراق وبتداد وهارونها وبأمونها ، والشام ودهاة الأمويين فيها ، والأندلس وحمراؤها . . . وهكذا . . . كل صقع ودولة من دول الإسلام فخصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه ، ونحوى دوائه . فوجدت أقل أدوائه داء انتقام أهله ، وتشت آرائهم . واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف . . فعلت على توحيد كلمتهم وتنبههم للخطر المحقق بهم »^(٦٧) .

كان له مذهب فى الكلام يتفق وطبيعته النارية الملتبة . . كان يحدث من يفهم ومن لا يفهم ، ومن يستعد ومن لا يستعد . . كالسحاب يتزل الغيث فتتفع به الأرض الصالحة ، وتسوء به الأرض الفاسدة . وكان من خصائصه كما يقول الشيخ محمد عبده : أنه يجذب مخاطبه إلى ما يريد . وإن لم يكن من أهله وكنت أحسده على ذلك لأننى تؤثر فى حالة المجلس ، فلا تتوجه نفسى للكلام إلا إذا رأيت استعداداً ظاهراً^(٦٨) . وكان من عادته . . . أن يقطع بياض نهاره فى داره ، حتى إذا جن الظلام خرج متوكئاً على عصاه إلى مقهى قرب « الأزيكية »^(٦٩) وجلس فى صدر فته تتألف حوله على هيئة نصف دائرة تجمع اللغوى ، والشاعر والمنطقى . والطبيب . والكهاوى . والتاريخى ، والجغرافى . . . فيتسابقون إلى إلقاء

(٦٦) حاضر العالم الإسلامى ص ٣٠٧

(٦٧) العروة الوثقى ص ٤ ط دار العرب القاهرة .

(٦٨) عصاه الإصلاح ص ٧١

(٦٩) حى فى وسط القاهرة قريب من الأهرام

أدق المسائل عليه . ويبسط أعوص الأحاجي لديه ، فيحل عقد إشكالاتها ويفتح أغلاق طلاسمها ورموزها ، فلا يتلعم ، ولا يتردد . بل يتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكلال ، فيدهش السامعين ويفهم السائلين ، (٧٠) .

• • •

كان يرى في الإسلام مزايا على سائر الأديان كلها ، أولاها : صقل العقول بصقال التوحيد ، وتطهيرها من لوث الأوهام ، فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله منفرد بتصرف الأكوان ، متوحد في خلق الأفعال ، وإن من الواجب طرح كل ظن في إنسان أو جاد . وثانيها : أن الإسلام فتح أبواب الشرف للأنفس كلها وأثبت لكل نفس حق السمو ، وحق امتياز الأجناس ، وقوم الناس بالكمال العقلي والنفسي ، وثالثها : أن الإسلام يكاد يكون منفرداً بين الأديان بتقريب المعتقدين بلا دليل ، فهو كلما خاطب . : خاطب العقل . . وكلما احتكم احتكم إلى العقل . تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة ، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل ، ورابعها : أن الإسلام أوجب تعليم سائر الأمة ، وتنوير عقولها بالمعارف والعلوم . وفرض نصب المتعلم لتعليم الجاهل ، وإقامة المؤدب ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى هذه الأركان الأربعة بنى الإسلام ، وكل ركن منها له أثره البالغ في تقوم المدينة ، وتشييد بناء النظام وتدعيم السعادة الإنسانية ، وقد دارت حالة المسلمين رقباً والمخطاطاً على حب نمسكهم بهذه العناصر أو تخليهم عنها (٧١) .

وكان مثله الأعلى حكومة إسلامية واحدة تأنم بالإسلام وتعالجه . ولما رأى أن ليس في الإمكان خضوعاً لأمير واحد . . اكتفى بالدعوة إلى أن ترتبط أجزاءها بروابط محكمة ويكون لها مقصد واحد . ونحكم الأقطار كلها بحكومات إمامها القرآن ، وأساسها العدل والشورى ، واختيار خير الناس لتولى

(٧٠) المصدر السابق ص ٧٢

(٧١) زعماء الإصلاح ص ٧٩

الأمر فيها . . . ويقول في هذا :

« لا أنفس بقول أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً . . . فإن هذا ربما يكون غيراً . . . ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن . ووجهة وحدتهم الدين » (٧٢) .

• • •

لقد طاف في فارس والهند ، والحجاز والآستانة ، وأقام فيها . ولكن لعل أنصب زمنه ، وأنفع أيامه ، ما كان في مصر مدة إقامته فيها من أول المحرم ١٢٨٨ هـ إلى سنة ١٢٦٩ هـ (مارس ١٨٧١ م - أغسطس ١٨٧٩ م) ثماني سنين كانت من خير السنين بركة على مصر ، وعلى العالم الإسلامي ، لا بما أفاد من جمال مظهرها وحن رونقها ، ولكن لأنه كان يدفن في الأرض بذوراً تنبأ للنماء ، وتستعد للظهور ، ثم الازدهار ، فما أتى بعدها من تعشق للحرية . وجهاد في سبيلها فهذا أصلها ، وإن وجدت بجانبها عوامل أخرى ساعدت عليها وزادت في نموها (٧٣) .

وكما يقول : باول شمتر Paul Schmitts (٧٤) فقد تلقت القاهرة التأثير المصلح وأفسحت له مكاناً . . . وقد تبين لجمال الدين في القاهرة مدى الخطورة التي تهدد الشرق . ففي مصر تتركز هجمات أوروبا فأعلن المقاومة ، ولم يكن كفاحه ضد الاستعمار الغربي أقل من معارضته موقف الطبقات الحاكمة . واستغلال الباشوات الشرقيين للشعوب الإسلامية ، ومن هنا اقتنع اقتناعاً جازماً أنه يجب بذل الجهود ، وشحذ الحمم للمحافظة على الوحدة الفكرية في العالم الإسلامي . وتثقيف العامة . ورفع مستواهم الفكري . لأن ذلك يؤثر في المجال السياسي . ويبين جمال الدين أن

(٧٢) المصدر السابق ص ٨٤

(٧٣) المصدر نفسه ص ٦٢

(٧٤) الإسلام قوة الغد العلية ص ١٠٨

الإسلام يعطى الشعب حق تقرير مصيره . .

وإن نظم الحكم الموجودة لا يجوز قبولها على أنها قضاء وقد ركب على جبين هذا الشعب ، ولانسلم لعنه اعتماداً على أن ذلك إرادة الله . . بل يجب الكفاح ضدها حتى تستقيم أو تزول . . ! لنحل محلها حكومات عادلة . . والدفاع عن الشعب وحقوقه واجب مقدس فى عتق كل مسلم . . وعندما غادر القاهرة مضطراً فى عام ١٨٧٩م (كما سيأتى بيانه فى الفصل الخاص بالتيارات السياسية) ترك خلفه عدداً من التلاميذ الذين حافظوا على أفكاره ، وكان محمد عبده الذى تولى منصب الإفتاء فيما بعد ألجب تلاميذه . وكان يقول لمن يسألونه بعد مفارقه مصر - عن وصيته :

« حبكم محمد عبده . . حبكم محمد عبده من وصى أمين ، وطلق يداكره بعد ذلك فى رحلاته ، ويكنى من الدلالة عليه بالأخ الصديق^(٧٥) . ، ولم يتصل السيد جمال الدين بأحد من أصدقائه وتلاميذه فى مصر إلى ما بعد انتهاء الثورة العرابية^(٧٦) . . ثم كتب بعد ذلك خطاباً إلى الشيخ محمد عبده يشكره فيه رعايته لحادمه ، ويذكر له عنوانه فى العاصمة الإنجليزية التى سافر إليها بعد رفع الرقابة عنه فى المنى ، وقد طلب منه أن يكب إليه إما فى إدارة « جريدة الشرق والغرب » أو عند الشاعر المشرق المسر بلنت .

• • •

كان الشيخ محمد عبده يومئذ منفياً فى بيروت بعد إخفاق الثورة العرابية فبادر بالرد على أستاذه ، وأرسل إليه خطاباً يقول فيه :

« قد تغلب أعوان الشر ، وأنصار السوء ، بقوة جاههم ، وشدة بأسهم فأرغموا العقول على اعتقاد بالمحال ، والتصديق بما لا يقال ، حتى إنهم غيروا قلب

(٧٥) محمد عبده تأليف عباس العقاد ص ١٣٠

(٧٦) د الفصل الثال تفصيل لهذه الحركة

« رياض باشا » (٧٧) عليك وعلى تلاميذك الصادقين أياماً معدودة ركن فيها للعمل بالشدة . والأخذ ببادرة الخدمة . لكن لم يلبث أن وصلنا إليه . وجلوت له الأمر وكشفت له ما غمض من الحقيقة . حتى زال ما لبس المبتلون . وهكذا ضمت كل من كان يتسب إليك صادقاً في الانتساب أو كاذباً . حتى إنى لم أتأخر عن مساعدة أولئك الأشقياء الأذنياء وأمثالهم من اللثام . تحسناً للظن . وإيثاراً للغفور فأصلحت لهم القلوب . وفشحت لهم في الصدور . وفشحت لهم أبواب التقدم إلى المنافع الغزيرة . ولكنهم لم يرفعوا ودّاً . ولم يحفظوا عهداً . ولا حاجة الآن إلى إيضاح ما صدر عنهم خيانة ولؤماً وسيرتنا في الحوادث نأ طویل إذا أردت بامولای أن أقدم إليك به تاريخاً ربما يكون مفيداً . فإنا رهن الإشارة . ونحن الآن في مدينة بيروت نقضى بها مدة ثلاث سنوات . لالذنب جيناه . ولا جرم اقترفناه . فها نحن سالكون في سلك . وعلى سلك . ولا تزال إلى انقضاء الآجال . ولولا أطفال لنا رضع ونساء لنا طوع . أينما لهم الذل . وأنفنا لهم الفس . فأتينا بهم إلى هنا . لكن أول من يلقاك في مدينة باريس لأسعد بالإقامة في خدمتك » (٧٨) .

كان سفر السيد جمال الدين إلى أوروبا . وفق الشيخ محمد عبده إلى بيروت فرصة اعتبها كلا المصلحين لاستئناف جهادهما المشترك في خدمة الإسلام والمسلمين . فقد استقر الأفغانى في باريس . ومن هناك كتب إلى الشيخ محمد عبده يأمره بالحضور والإقامة معه . فسافر إليه الشيخ وهناك أسسا معاً جمعية « العروة الوثقى » وهى جمعية إسلامية عالمية هدفها إعادة عزة الإسلام ومجده . والعمل على تطهير عقائده . وتحرير العالم الإسلامى من ذل الاستعمار وعبوديته . وأصدرت هذه الجمعية مجلة تحمل اسم « العروة الوثقى » كانت الأفكار فيها للسيد جمال الدين . أما

(٧٧) كان وليس وزراء مصر . قد احتضن كلا من السيد جمال الدين ومحمد عبده في أول الأمر .

(٧٨) محمد عبده ص ١٣٤ وكان الشيخ محمد عبده قد نفي إلى بيروت بعد فشل الثورة العربية

الأسلوب والعبارة فقد نركا للشيخ محمد عبده . وقد لحصت هذه الجمعية أهدافها في العدد الأول من هذه المجلة فيما يأتي :

أولاً : تضع الجمعية نفسها في خدمة الشرقيين عامة . والمسلمين خاصة فحين لهم الواجبات التي يجب عليهم القيام بها ، والتي كان التفريط فيها سبباً في تدهورهم وانحطاطهم .

ثانياً : بحث المسائل والعلل التي أدت إلى ضعفهم وفي طليعتها تفريطهم في دينهم .

ثالثاً : كشف الغطاء عن الشبه التي شغلت أوهام المترفين . وإزاحة الوسوس التي سيطرت على عقول المتعصبين مما أدى إلى اليأس من الإصلاح .

رابعاً : إحياء الأمل في النفوس ، وتوضيح طريق النهوض والتخلص من أسباب العجز وقصور المهمة .

خامساً : الاهتمام بالرد على التهم التي توجه إلى الشرقيين عامة . والمسلمين خاصة . وتفنيد مقترحات الغرب التي تقول : إن المسلمين لن ينهضوا أبداً ماداموا متمسكين بدينهم^(٧٩) .

سادساً : اطلاع الشرقيين على الأحداث العالمية وأسرارها . ليحيطوا علماً بما يدبره السياسيون الأوروبيون ضدهم ، وتعريفهم بما يقع في العالم حولهم .

سابعاً : تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية . وإيقاظ روح الأخوة بين شعوبها المختلفة^(٨٠) .

وفي مقال تحت عنوان « ماضي الأمة وحاضرها وعلاج عللها » تقول مجلة العروة الوثقى :

(٧٩) اقرأ في هذا الموضوع ذلك البحث القيم الذي كتبه المرحوم الأمير شكيب أرسلان في كتاب « لماذا تأخر المسلمون ؟ »

(٨٠) العروة الوثقى ص ٧

... ماذا يصنع المشفقون على الأمة ، والزمن قصير ؟ ماذا يحاولون والأخطار محدقة بهم ؟ بأي سبب يتمكنون ورسل المنابا على أبوابهم ؟ أرسل فكرك إلى نشأة الأمة التي خملت بعد النباهة ، وضعفت بعد القوة ، واسترقت بعد اليادة ، وضيمت بعد المنعة ، وتبين أسباب نهوضها الأول ، حتى تبين مضارب الخلل ، وجرائم العلل ، فقد يكون ما جمع كلمتها ، وأنهض همم آحادها ، ولحم بين أفرادها ، وضعد بها إلى مكانة تشرف منها على رهوس الأمم ونسوسهم . إنما هو دين قوم الأصول محكم القواعد . شامل لأنواع الحكم . باعث على الألفة . داع إلى المحبة ، مزك للنفوس . مطهر للقلوب من أدران الخسائس ، منور للعقول بإشراق الحق ، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مبادئ الاجتماعات البشرية . وينادى بمعتقدبه إلى جميع فروع المدنية .

فإن كانت هذه شرعتها ، ولها وردت . وعنها صدرت . فما تراه من عارض خللها وهبوطها عن مكانتها ، إنما يكون من طرح تلك الأصول وتبديدها ظاهرياً . وحدث بدع ليست منها ، وأعرضوا عما يرشد إليه الدين ، وعما أتى لأجله حتى لم يبق منه إلا أسماء تذكر ، وعبارات تقرأ ، فعلاجها الناجع . إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها . والأخذ بأحكامه ، على ما كان في بدايته وإرشاد العامة بمواعظه وإيقاد نار الغيرة ، وجمع الكلمة ، وبيع الأرواح لشرف الأمة (٨١) .

• • •

وتحت عنوان « الوحدة الإسلامية » كتبت المجلة :
« أظلت ولاية الإسلام مابين نقطة الغرب الأقصى ، إلى « توكاني » على حدود الصين . أقطار متصلة . وديار متجاورة . كان لهم فيها السلطان الذي لا يغال ، أخذ بصولجان الملك منهم ملوك عظام فأداروا بشوكتهم كرة الأرض إلا قليلاً . ما كان يهزم لهم جيش . ولا ينكس لهم علم . ولا يرد قول على قائلهم . . . كان

في نقطة الشرق من حكمائهم ابن سينا ، والفارابي ، والرازي وفي الغرب : ابن رشد ، وابن طفيل ، وما بين ذلك أمصار - تراحم فيها أقدام العلماء في الحكمة ، والطب ، والهيئة والهندسة ، فضلاً عن العلوم الشرعية التي كانت عامة في طبقات الأمة . . . كان الخليفة العباسي ينطق بالكلمة فيخضع لها ، فغفور الصين (٨٢) وترتعد منها فرائص أعظم ملوك أوروبا . . كانت لأساطيل المسلمين سلطة لا تبارى في البحر الأبيض والأحمر والمحيط الهندي ، ولها الكلمة العليا في تلك البحار إلى زمان غير بعيد كان مخالفوهم يدينون للكنوت فضلهم ، كما يذلون لسلطان عليهم . كان هذا شأنهم بالأمس ، فما بالهم اليوم وقد تفرقوا ؟ واختلفوا وتنازعوا وسبقهم غيرهم من الأمم وتأخروا ؟

إنه تنازع الأمراء . وتفرق الكلمة . وانشقاق العصا ، فلهوا بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم ، ضرب الفساد في نفوس أولئك الأمراء بمرور الزمان ، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل ، فاقبلوا مع الهوى وقنعوا بالقباب الإمارة وأسماء السلطنة ونعومة العيش ، واختاروا موالاة الأجنبي المخالف لهم في الدين والجنس ، ولجأوا للاستنصار به ، وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم . وهذا هو الذي أباد مسلمي الأندلس ، وهدم أركان السلطنة التيمورية في الهند ، ومحا أطلالها ، وهكذا تلاعبت أمراء السفهاء بالممالك الإسلامية ، ودهورتها أمانتهم الكاذبة

ألا قاتل الله الحرص على الدنيا . والنهالك على الخسائس . أما وعزة الحق وسر العدل ! لو ترك المسلمون وأنفسهم مع رعاية العلماء والعاملين ، لهم ، لتعارفت أرواحهم . وانتلفت آحادهم . ولكن وإنساء . . . ! تخلفهم أولئك المقيدون الذين يرون كل السعادة في لقب أمير أو ملك . ولو على قرية لا أمر فيها ولا نهي . هؤلاء هم الذين حولوا أوجه المسلمين عما

(٨٢) لقب من القاب ملوك الصين .

ولا هم الله . حتى تناكرت الوجوه وتباينت الرغائب .^(٨٣)

وفي مقال تحت عنوان « الأمة وسلطة الحاكم المستبد » تقول المجلة :

« . . . إن الأمة التي ليس لها في شئونها حل ولا عقد . وإعماهى خاضعة لإرادة حاكم واحد . يحكم بما يشاء . ويفعل ما يريد . تلك أمة لا تبث على حال واحد . ولا ينضبط لها سير . فإن كان حاكمها جاهلاً . أسقط للأمة بتصرفه إلى مهاوى الحسran . وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر . وجار في سلطته عن جادة العدل . وفتح أبواباً للعدوان . فيقلب القوى على الضعيف . ويختل النظام . وتقصد الأخلاق . ويغلب اليأس . فتمتد إليها أنظار الطامعين وتضرب الدول بمخالبها في أحشاء الأمة . . . عند ذلك إن كان في الأمة رمز الحياة . وأراد الله بها خيراً . اجتمع أهل الرأي وأرباب المهمة من أفرادها . وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة . واستئصال جذورها . قبل أن تنثر الرياح بذورها السامة القاتلة وبادروا إلى قطع العضو المجذوم قبل أن يسرى فسادُه إلى جميع البدن فيمزقه »^(٨٤) .

وقد خصصت . العروة الوثقى . الكثير من صفحاتها للهجوم على دولة بريطانيا لأنها الدولة التي لقي المسلمون . الأمرين . على يديها . وهي الدولة التي تخصصت في تمزيق وحدة المسلمين والقضاء عليها . وهي الدولة التي جعلت . إضعاف الإسلام وتنحيته عن الحياة . هدفاً رئيساً لسياستها . وقد أهابت المجلة بالمسلمين في كل مكان أن يتسبوا لمؤامراتها الدنيئة . وضررت له الأمثال في التهور من شأن قوتها . وحرصتهم على الثورة عليها . ورفض سيطرتها والركون إليها . وفي هذا تقول العروة الوثقى :

« ذكروا في أساطير الأولين أن هيكلاً عظيماً كان خارج مدينة . اصطخر . وربما آوى إليه بعض سراة الليل . إذا اشتدت بهم وحشة الظلام . وما آوى إليه

(٨٣) العروة الوثقى ص ٧٠

(٨٤) العروة الوثقى ص ١٠٤ انظر في هذا الموضوع طلائع الاستعداد لـ عبد الرحمن الكواكبي .

أحد إلا غائته المنية ، فبأنى طلاب أثره لتقصي خبره فيدخلون الهيكل في ضوء النهار ، فيجدونه ميتاً ، ثم لا يبتدون لسبب موته ، لسلامة بدنه من كل ما يعهد سبباً للموت ، واشتهر أمر الهيكل بين السابلة والقطان ، وأخذ كل قاصد حذره من الميت فيه ، حتى ضاقت الدنيا برجل فاختر الموت على الحياة . فذهب إلى الهيكل لعله يصادف منيته ، فإذا بالقرب منه رجال نصحوه وحذروه عاقبة الملاك . فلم يصغ إليهم وقال : إنما أتيت لتلك العاقبة وانفلت من نصحاته إلى حيث يظن هلاكه ، فلما توسط الهيكل فاجأته أصوات مزعجة هائلة كأن جمعاً عظيماً يخاطبه : هانحن وصلنا لتمزيق بدنك . وسحق عظامك ، فصاح اليائس : ألا فأقدموا فقد شمت الحياة . . . فلم يتم كلامه إلا وقد حدثت فرقة شديدة ، وانحل الطلم ، وانشق الجدار ، وتناثرت منه الدراهم والدنانير ، وتفتحت أبواب الكنوز . . . فاطمان الحائف ، ونام حتى أصبح ، ولما أضحى النهار وجاءه الواقفون على خبره ليحملوا جنازته ، وجدوه فرحاً مسروراً يسألهم بعض الأوعية ليحمل ما وجدوه من الذهب والفضة ، فاستخبروه قصته : فبعد البيان علموا أن هلاك من هلك إنما كان بالفرع من تلك المزعجات التي لا حقيقة لها . . . ! وبريطانيا العظمى هيكل عظيم يأوى إليه المفرورون إذا أوحشت نفوسهم ظلمات السياسة ، فتذكرهم المنية بمزعجات الأوهام .^(٨٥)

وفي أسطورة أخرى تقول المجلة :

وقالوا : إن زنجياً أسود ، هائل المنظر ، غليظ الشفتين ، أحمر الحدقتين ، بشع الوجه ، كان يحمل طفلاً في ليلة مظلمة ، يسير به في زقاق من أزقة بغداد ، وكان الطفل كلما نظر إليه بفرع ويكي وبصيح ، وكلما اشتد به الفرع ، ربت الزنجي ومسح على ظهره وقال له : لا تخف يا ولدي ، فإني معك ، وأنيك وحافظك من كل شر ، فقال له الصبي : إنما خوفي وفرعي منك لامن وحشة الظلام ، وهكذا

(٨٥) العروة الوثقى : ص ٢٢٣ خاطرات : جمال الدين الأسطى - عبد القادر اللزني ص ٢٠ - ٢١

شأن حكومة إنجلترا مع المصريين ، كلما اشتدت الخطوب ، وعظمت المصائب ، مسحت بريطانيا على ظهر الحديد توفيق ووزرائه بيدها الناعمة - وإنما هي نعمة الشعبان - وأقبلت على الأهالي تمنيم وتقول لهم : لا تخزنوا فإنى معكم ، وجميع المصريين : من توفيق ووزرائه إلى عامة الأهلين ، يجأرون وينادون : إنما خوفنا منك ، وراحنا واطمئنا بتحكك عنا ، وتركنا وشأنا . . . (٨٦)

• • •

لقد صدر العدد الأول من «العروة الوثقى» في ٥ من جمادى الأولى سنة ١٢٠١ هـ الموافق ١٣ من مارس ١٨٨٤ م . وكانت حركة المهدي السوداني على أشدها ، فقد أخفقت كل الحملات العسكرية التي وجهتها بريطانيا للقضاء على هذه الحركة ، وظهر للعالم الإسلامي أن بريطانيا كما تقول مجلة «العروة الوثقى» أسطورة . فاستنلت المجلة هذه المزاعم التي حلت بها وطالبت المسلمين أن يقتفوا أثر إخوانهم في السودان بالثورة عليها . .

وفي مقال تحت عنوان «سياسة إنجلترا في الشرق» كتبت المجلة : «أرسلت بريطانيا غوردون باشا إلى السودان لتفريق كلمة المتحاربين ورقية محمد أحمد (المهدي) . . . السودانيون لم تلتئم جراحتهم بعد من ظلم غوردون أيام كان حاكماً عليهم . مستبداً بهم ، وفي علمهم أنه أعدى أعداء الديانة الإسلامية . . . فقد طلب وهو فيهم قسياً من السويس لنشر المذهب البروتستانتي بين مسلميه . فهل تمكنه الفصاحة الإنجليزية أن يمحس صدور العرب من الضغينة الدينية والديوية ؟ وهل يسهل عليه إرضاء محمد أحمد (المهدي) بعد ما قام بدعوة عظيمة كهذه . . . » (٨٧)

وفي مقال بعنوان «نصيحة» نقول المجلة :

(٨٦) العروة الوثقى ص ١٣٨

خاطرات جمال الدين الأصلى ص ٢٢

(٨٧) العروة الوثقى ص ١٥٥

« أشد ما كانت هبة الإنجليز وملكهم ، فكتوريا ، على الشرقيين ، إلا أن هذه الدولة ألجأتها حوادث السودان أن تسوق جيشاً للإيقاع بجيش « عثمان دقنة » - أحد قواد المهدي - إلا أن عثمان دقنة دفع على الصفوف الإنجليزية جماعة من عراة العرب وحفاتهم ، فهدموا قلاعها (أى بريطانيا) وفوضوا أبراجها ، وبعد تدافع وتضام ، وتقدم وتأخر في موقعتين عظيمتين لم الإنجليز إلى « سواكن » على البحر ، وأخلوا ساحات القتال ، ثم هربوا بطريق البحر إلى مصر أو إنجلترا . ولما اشتد القتال بمن في « خرطوم » نهض الجنرال « غوردون » لفلك الحصار ، فلم تكن إلا كرة وتبددت فيها جيوشه ثم أعقبها قرة إلى داخل المدينة ، ولكن لبيتر هزيمته ، أمر بإعدام ضابطين مصريين كبيرين بتهمة الخيانة ، وهما حسن باشا ، وسعيد باشا . (٨٨)

وفي مقال ثالث تحت عنوان : « عودة إلى خرطوم » نقول « العروة الوثقى » « نوهنا مراراً للمسلمين عموماً ، والمصريين خصوصاً بالانقباض عن حرب إخوانهم (السودانيون) وإراقة دماء أبناء ملتهم ، لمجرد أوامر تصدر إليهم من مخالفينهم في الجنس والاعتقاد ، لا يعلمون لها عاقبة . ولا يدرون من يخفى ثمارها . بل يوقنون أنهم إنما يقتلون إخوانهم ليورثوا أرضهم لقوم آخرين ، ولهذا لم بأخذنا العجب من خذلانهم لـ « هكس » في السودان الغربي ، ولـ « بيكر » في السودان الشرقي ، ولأما بلغنا في هذه الأيام من خذلان « غوردون » في الخرطوم (٨٩) ، ولم يمتلج في صدورنا ولا في خطرات أنفسنا ، أن انهزامهم (أى المصريين) منشأه الجبن ، ولكن لأننا نعلم أنهم يفضلون الموت بين إخوانهم على الظفر بهم ، لتكون أموالهم وديارهم غنيمة لصاحب أمرهم من الأجانب وهو

(٨٨) المصدر السابق ص ٢٠٧

(٨٩) كان الكثير من قادة الجيش المصري وضباطه . وجنوده يرضون قتال إخوانهم السودانين . ولقد لم الكثير منهم إلى معسكر المهدي وخالفوا أوامر القادة الإنجليز بقتل وضرب أبناء دينهم .

« غوردون »^(٩٠) .

إنها دعوة إلى الجيش المصرى بالتمرد والثورة ، وعصيان الأوامر للجنرال الإنجليزي . « غوردون » . . . لأن منطق الإيمان والعقيدة يرفض أن يكون لغير المسلم ولاية على المسلم ، ومنطق الإيمان والعقيدة يرفض رفضاً باتاً محاربة المسلم لأخيه المسلم ، فإذا كانت هذه الأوامر صادرة من أجنبي في الجنس والعقيدة ، ومن ظالم لطخت صفحاته بالقدر والقوة ، فإن طاعته في هذه الحال تكون خيانة للأمة ، وردة بعد إيمان في العقيدة . ولقد كان في داخل مدينة الخرطوم - في أثناء الحصار - عالم أزهرى من رجال الثورة العرابية اسمه الشيخ أحمد العوام - كان قد نفي إلى السودان بعد فشل هذه الثورة هذا العالم الأزهرى تصرف بمنطق إيمانه ودينه وهو محاصر كغيره .

يقول نعوم شقير في تاريخه^(٩١) :

« وكان في الخرطوم رجل من خطباء الثورة العرابية ، يقال له أحمد العوام . وهو مصرى الجنس . حثى الانتساب . وقد نفي إلى الخرطوم بسبب الثورة العرابية . فرأى الثورة المهدية في وجهه . فتشبع لها . وقد اطلعت على رسالة له بتاريخ ١٧ من رمضان سنة ١٣٠١ هـ . ١١ يولية سنة ١٨٨٤ م سماها « نصيحة العوام »^(٩٢) فإذا هي ثورة محضة . وقد أعلن فيها تشبعه للثورة المهدية وكرهه للحكومة الخديوية (أى المصرية) ومما قاله مشيراً إلى موظفى حكومة الخرطوم : . . . وطلالاً جادلهم بالحق سراً . ونصحت لهم حتى في دار الحكومة جهراً على رأى ومسمع من وكيلها النصارى - بقصد جوردون - أن يسعوا في

(٩٠) العروة الوثقى ص ٢١٦ لقد كتب هذا المذلل في عام ١٨٨٤ م ولا تزال حتى اليوم في العالم الإسلامى والعربى حكومات تأمر جيوشها بقتال المسلمين لحسب أعداء المسيح !

(٩١) حفرية وتاريخ السودان ص ٨٢٨ - ٨٢٩

(٩٢) توجد نسخة منها في المتحف البريطانى بلندن

الصلح بين الطائفتين المتحاربتين عملاً بأمر الله . فلم أجد يسهم محققاً . كلا ولا ماعياً
بكلمة حق لإخماد هذه الحرب بين المسلمين . وعباد الله المؤمنين . . . ولذلك
اعتزلتهم ، وجميع المحصورين ، إلا من جاعف يسمى وهو يخشى فأبلى له
محض النصح حتى يفتح الله بيننا وهو خير الفاتحين .

وقد أثرت أقواله تأثيراً سلباً في نفوس أهل الخرطوم ، فسجنه غوردون وكبله
بالحديد . . . ! ثم عفا عنه وجعله معاوناً في الحكمدارية براتب ١٥٠٠ قرش في
الشهر ، ولكن ما لبث أن عاد إلى سابق عاداته من انتقاد أعمال الحكومة ونسب
أهل البلاد ضدها ، ولما جاء الخبر بزحف المهدي على الخرطوم . وأعلن غوردون
خبر قدوم الجيش الإنجليزي ، جاهر - الشيخ العوام - في تكليب غوردون
وتصديق المهدي ، ولم يقتصر على ذلك . بل أغرى إحدى النساء فرمت جمره من
شباك على معمل الفشكيلك (الدخيرة) بقصد إحراقه فسقطت الجمره على بعض
الأوراق ، فأحرقها فشر بها الحارس فأطفاها . . . واعترفت المرأة أن أحمد العوام
هو الذي أمرها بذلك فأمر غوردون بقتله ، فقتل في سراي الشرق . . . !

• • •

لقد نشرت العروة الوثقى العديد من المقالات عن حركة المهدي وتابعت أصداء
هذه الحركة على الصعيدين الإسلامي والدولي ، وهي إذ تفعل ذلك . إنما تفعله
إيماناً بوحدة الحركة الإسلامية . وإلهاباً لمشاعر الحماس في العالم الإسلامي ، وإحياء
لروح الجهاد ضد الخطر الاستعماري .

• • •

لقد عجزت بريطانيا بنفوذها وقوتها عن إسكات هذا الصوت . فطلجأت إلى
أستراليا المعروفة في الإغراء والحيلة . وأرسلت إلى السيد جمال الدين تدعوه لزيارة
لندن لمناقشته حول قضية المهدي .

وحين سافر إلى لندن ، والتقى هناك بالمسؤولين في الحكومة ، قال له اللورد سالسبوري :

« إن بريطانيا تعلم مقدرته ، وتقدير رأيه حق قدره ، وهي (أى بريطانيا) تريد أن تسلك مع الحكومات الإسلامية سلك الولاء والمودة . . . لذلك رأينا أن نرسلك إلى السودان بصفة سلطان عليه . . . ! فتأصل فتنة المهدي ونمهد لإصلاحات بريطانيا فيه !

ويرد جمال الدين بقوة :

إن السودان ليس ملكاً لبريطانيا حتى تتصرف فيه » (٩٣) !!!

• • •

ومرة ثانية حاولوا مع الشيخ محمد عبده فدعوه لزيارة إنجلترا ثم قالوا له :
« . . . كثيراً ما سمعنا من الأجانب الذين يتحون إلى البلاد المصرية أخباراً متعلقة بها . . . ! (لاحظ هنا ما يحاولونه من الإيقاع بين جمال الدين) أما أنت فلكونك عريقاً في المصرية ، وعالماً من علماء المسلمين . فحب أن تبين أفكارك ، وما تعلمه من أحوال الأهالي المصريين وشئون أمراتهم واستعدادهم وما يليقون له ، وما يليق بهم » .

فقال الشيخ محمد عبده :

أما بالنسبة للخديو توفيق : فإنه أساء إلينا إساءة بالغة ، لأنه مهد للدخولكم بلادنا ! ورجل مثله انضم إلى أعدائنا في قتالنا ، لا تشعبر إزاءه بأى احترام ! لكنه إذا ندم على ما فرط منه ، وعمل على الخلاص منكم فربما غفرنا له سيئاته ، إننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية .

فلما مثل عن حركة « المهدي » وما يقال من أن حركته تهدد مصر بالخطر قال

الشيخ محمد عبده :

لاخطر على مصر من حركة المهدي ، إنما الخطر على مصر من وجودكم فيها ، وإنكم إذا غادرتم مصر ، فالمهدي لن يرغب في الهجوم عليها ، ولن يكون في هجومه أدنى خطر ، وهو الآن محبوب من الشعب المصري ، لأنهم يرون فيه المخلص لهم من الاعتداء الأوربي ، وسيقتضون إليه عند قدومه (٩٤) .
وتتورثاثة بريطانيا . . . فتلقى بكل قوتها ، وتتور مراجل الغضب والسخط في قلبها ، وتتعب الصحيفة المجاهدة ومحررها ، حتى تقضي عليها قبل أن تتم عاماً واحداً من حياتها (٩٥) .

ولكن الرجل العظيم لا يضيره مثل هذه الأمور الصغيرة. فقد كان « جمال الدين » يجد مادة الكلام في كل شيء تقع عليه عينه . . في السجارة يشعلها وفي الطفل حين يسأله . . وفي حادثة زواج أو طلاق ، كان يستطيع أن ينشئ أمتع الحديث في الشيء الجليل ، والشيء التافه . وكانت له القدرة على أن يلهب مستمعه ، فلا يزال يروح على « الفحم » حتى يلهبه ، فإذا جلس به يرى بعد الجلسة راحته في السر لاني الركوب ، وفي العمل لاني السكون ، فكان بهذه الخصال في غنى عن المجلة أو الصحيفة .

ولكن الشيء المزعج في هذا الأمر هو الفراق . . . فراق الأستاذ لتلميذه بعد أن التأم شملها من جديد في باريس وقد فرقت بينهما الأحداث قبل ذلك في القاهرة . إن الذي أهمه كان انفراط عقد صحبته للشيخ محمد عبده ومن يدري؟ ماذا يكون بعد هذا الفراق ؟ إن أحداث العالم الإسلامي ، وطبيعته الحكم والحكام في أقطاره ، واضطراب الأمور والأحوال في أرجائه ، وصراع القوى الخفية والظاهرة في أنحائه ، كلها أشياء تقبض النفس ، ويضيق بها الصدر .

(٩٤) انظر العروة الوثقى ص ٢٧٧ - محمد عبده - تأليف الطقاد ص ١٣٨

(٩٥) صدر العدد الأول من مجلة العروة الوثقى في ٥ جمادى الأولى ١٣٠١ هـ وصدر العدد الأخير منها في

دى الحجة ١٣٠١ هـ .

وقد لبث جمال الدين قليلاً في أوروبا بعد إغلاق المجلة ، يحاول في عواصم الغرب محاولاته السياسية على خطته الممهودة . فقد بدا له أن يذهب إلى روسيا ، وهو بنوى أن يستخدم مقامه فيها لتخفيف الظلم عن المسلمين وإطلاق حريتهم الدينية ومحاولة التوفيق بين روسيا ودولة الخلافة ، واستغلال الخلاف بين السياسين الروسية والبريطانية لصالح الشعوب الشرقية .

وحين قابل القيصر سأله عن آرائه في الشرق . . . ثم يسأل - أي القيصر - السيد جمال الدين عن سبب خلافه مع الشاه في فارس . فقال جمال الدين : إنه الحكومة الشورية . . . أدعو إليها ولا يراها أي - لا يوافق الشاه عليها .

فقال القيصر : الحق مع الشاه . . فكيف يرضى ملك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته ؟ !

فقال جمال الدين :

أعتقد باجلالة القيصر أنه خير للملك أن تكون ملايين رعيته أصدقاءه ، من أن يكونوا أعداء يترقبون له الفرص (فلم يعجب القيصر هذا الكلام وقام علامة الإذن بالانصراف) (٩٦) . .

وقد عاد جمال الدين بعد ذلك إلى أوروبا ، وتقابل هناك مع الشاه ناصر الدين فعرض عليه العودة إلى فارس ، ووعد بتنفيذ الإصلاح الذي يريده وبعد إلحاح قبل السيد أن يعود إلى طهران ، وسرعان ما اجتمع حوله العلماء ، وطلاب الإصلاح من كل مكان ، غير أنه لم يهنأ طويلاً بهذا الحلم فقد فوجئ بالجنود

(٩٦) فقد كان جمال الدين أعداء نظراً من القيصر ألف مرة . فلم يكذب بمضى على هذا الحديث حوالى ثلاثة وثلاثين عاماً حتى كان القيصر وأسرته وطبقة الأشراف والسلام في ملته أشلاء ممزقة بأيدي هؤلاء الفلاحين . ولم استجاب "الطغاة" والفضلة لصوت العدالة والحق لأعدائهم وشعوبهم تلك التحارب الدامية التي لا تزال نشد طلابها الكنية على أقطار شتى في العالم كله

يهجمون عليه ، ثم حملوه مكبلاً على ظهر دابة ، وهو مريض وفي فصل الشتاء حتى أوصلوه إلى « خانقين » ثم تركوه ليواصل سفره إلى البصرة ، وقد اشتد عليه وطأة المرض ، وكادت تودى بحياته لولا لطف الله به (٩٧) . . .

وفي هذه الآونة تجمع عند السلطان - عبد الحميد الثاني - من الأسباب ما حمله على دعوة السيد إلى الآستانة ، فأتى في أول الأمر ، ولكن السلطان عبد الحميد استطاع بدهائه أن يقنعه في النهاية وزيّن له طريق الإصلاح ووعدته بتنفيذ ما يقترحه ويراه حتى قبل ووافق على السفر ، وما إن وضع قدمه في الآستانة حتى وجد نفسه في قصص من ذهب . وقد أمر السلطان باستقباله استقبالاً حسناً ، وأجرى عليه راتباً كبيراً ، وأنزله بيتاً ظريفاً ، وجعل تحت يديه خدماً وحشماً ، بعضهم للخدمة ، وأكثرهم للتجسس . . . (٩٨) .

وحين قابله السلطان في قصره ببلدز ، طلب منه أن يكف عن مهاجمة الشاه ، فقال له السيد :

من أجلك عفوت عنه ! فارتاع السلطان لمثل هذا القول ، وينظر إلى السيد وهو يلعب بسبخته ، فيلفت نظره إلى ذلك رئيس التشریفات بعد خروجه فيقول له السيد جمال الدين :

إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة . . أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بسبخته ؟

وقد عرض عليه السلطان منصب « شيخ الإسلام » فرفضه ، إلا إذا عدل النظام من أساسه ، وأخيراً انتهى رأى جمال الدين في السلطان عبد الحميد - بأنه سل في رثة الدولة (٩٩) ۱۱۱

(٩٧) زعماء الإصلاح ص ٩٧

(٩٨) المصدر السابق ص ١٠٠

(٩٩) زعماء الإصلاح ص ١٠١

أما الشيخ محمد عبده فقد عاد إلى بيروت وهو يزدد إيماناً بعقم المحاولات السياسية ، وضعف الأمل في الأمراء والملوك ، ووجوب التحويل بعد هذه المحاولات العقيمة ، على الأمم دون غيرها ، وحصر هذا الأمل كله في إعداد الأمة بعدة العلم الصحيح ، والتربية الاجتماعية الصالحة ، واتخذ من الأرزاء التي ابتلى بها أستاذه على أيدى الأمراء والملوك حجة جديدة على ضعف الأمل فيهم ، ووجوب التحول بالجهود إلى أنفسهم ، فقد شهر به خديو مصر ونقاه ، وعذبه شاه إيران وأهانته لتلاميذه : إن السياسة ضيقت علينا أضعاف ما أفادتنا . وأن السيد جمال الدين وطرده ، وخيب رجوات الهند رجاءه واعتقله السلطان في قفص من ذهب بالآستانة ، وقد ظل الشيخ محمد عبده يزدد اقتناعاً برأيه يوماً بعد يوم ، وكان يقول كان صاحب إقتدار عظيم لو صرفه ، ووجهه للتعليم لأفاد الإسلام أكبر فائدة ، وقد عرضت عليه حين كنا في باريس أن نترك السياسة ونذهب إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات^(١٠٠) ونعلم ونربي من نختار من التلاميذ على مشربنا ، فلا تمضي عشر سنوات إلا ويكون عندنا عدد من التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك أوطانهم والسير في الأرض لنشر الإصلاح المطلوب ، فيتشر أحسن الانتشار . فقال : إنما أنت مبسط^(١٠١) . . . !

• • •

ما أغرب تصارييف الدهر . . . !

لقد افترق الصديقان الحميان . . . رأيا . . . ومكاناً . . . جمال الدين في الآستانة يحاول ما استطاع أن يصلح ، والشيخ محمد عبده في بيروت يتهج لنفسه أسلوباً جديداً على أمل أن يفلح .

• انظروا . . . لقد تحطمت حلقة الوحدة . . . وفقد آل إبراهيم .

(١٠٠) يلاحظ في الاتجاه أنه متأثر بالحركة السوفية .

(١٠١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٨٩٤ تأليف السيد رشيد رضا

« أى المسلمون - لذة العهد والميثاق الذى أخذه الله عليهم . .
« اصطادتهم أوربا كما يصطاد المرء السمك . . فأصبح فى حلق كل مسلم شخص
أوربا .

« وآل حال الشرق للخراب بسبب الاستعمار .

« فيها يازنذة رود .

« أشعل النار فى الوجود بأبيات من الشعر . .

« وفاتنا متعبة والحمل ثقيل^(١٠٢)

• • •

يقول الرحالة الروسى الشيخ عبد الرشيد^(١٠٣) :

دخلت على الشيخ جمال الدين فى أخريات أيام مرضه . فأشار بيده أن ادن ،

فدنوت منه ، وكان لا يستطيع الكلام . . فأخذ قلماً وورقة وكتب فيها :

تشهد بالله أن كلام النبى ﷺ قبل وفاته :

أمنى . . أمنى . . وأنا أقول ملنى . . ملنى . .

قال - أى الشيخ عبد الرشيد - وبعد نحو ساعتين رجعت إليه فإذا بهم

يقولون : توفاه الله . . . !

• • •

والآن يحق لنا أن نتساءل . .

ماذا أخذ المهدي من هذه الحركات الثلاث . . وماذا ترك منها . . ؟ ماذا أخذ

من محمد بن عبد الوهاب وحركته الإصلاحية الكبرى . . هذه الحركة التى تجاوزت

حدود السودان غرباً . . حتى انطلقت إلى نيجيريا على يد عثمان دقندبو . . ؟

واندفعت شمالاً حتى وصلت إلى ليبيا على يد السنوسى وطارت شرقاً ليحمل لواءها

(١٠٢) العلامة محمد إقبال : جاويد نامه كوكب عطار . . ترجمة الدكتور محمد السيد .

(١٠٣) جمال الدين الأفتلى - عبد القادر المرنى ص ١٢٣

مصلحون في الهند وسومطرا؟

ثم أخذ من الحركة السنوية ، وأفكارها ، وتنظيماتها . . . ؟ لقد توغلت السنوية في السودان نفسه ، وأقامت زواياها بيد السودانيين أنفسهم . ثم ماذا أخذ من حركة الأفغانى التى هزت العالم من حوله هزاً وارنجت أركان الاستعمار بسببها خوقاً ورعباً ، وكانت صلتها بالسودان أكثر عمقاً وأوسع مجالاً . . . وأفقاً . . . فلم يكن السودان ومصر في ذلك الوقت إلا بلداً واحداً . . . وكنا شريكين في الألم والأمل معاً . . .

ثم إن السودان بوضعه الجغرافى أكثر شعوب أفريقيا تأثراً . . . وكل ما يدخل إلى القارة لابد أن يمر به عابراً ، أو يستقر فيه مقيماً . . .

لقد دخل الإسلام إلى السودان من ثلاثة منافذ رئيسية . . . من الشمال عن طريق مصر ، ومن الشرق عن طريق الحجاز وباب المندب ، ومن الغرب عن طريق ليبيا ، وجنوب الصحراء الكبرى . انتشر الإسلام في السودان عن طريق هذه الجهات والأماكن ، لما الذى يحول بين انتشار هذه الحركات الثلاث في السودان ، وقد كانت كل واحدة منها في موقع من هذه المواقع والصلة بينها جميعاً وبين السودان صلة محكمة الأواصر والروابط . . . ذلك ما سوف تكشفه لنا وثائق الحركة . . . وتعدد الأعمال والوقائع في النهاية . . .

الفصل الثالث

الظروف السياسية والاجتماعية التي رافقت ظهوره

النظرة الإسلامية إلى هذا التقسيم ، أو الفصل بين السياسة والدين نظرة غريبة عن الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية ، ذلك لأن الإسلام ليس كغيره من الديانات والمعتقدات التي تنظر إلى الإنسان نظرة مستقلة عن الكون والحياة ، وليس في الإسلام من يقول : دع ما لقيصر لقيصر ، وما لله . . . لله . . .

الإسلام عقيدة وشريعة ، وقانون ونظام ، ودولة ودين ، فهو بصاحب الإنسان منذ ولادته إلى أن يمحن أجله ، وهو فيما بين الحياة والموت يرافق هذا الإنسان في كل خطوة يخطوها ، وفي كل حركة يفعلها^(١) .

وبالنسبة لقضية كهذه القضية التي نعالجها يصبح من الصعب الفصل بين هذه التيارات وبين العقيدة ، والفارق الوحيد بين التيارين فارق شكلي لا يمس الجوهر والحقيقة ، والأزمات الطاحنة التي تتعرض لها الجماعات الإنسانية ، سواء في الاقتصاد أو في السياسة ، ترجع في النهاية إلى الخروج على تلك القواعد التي وضعها الدين لكيفية التعامل أو التصرف في الثروة ، وكيفية الولاية وأسلوب الحكم في الدولة .

وقد ضرب لنا العلامة ابن خلدون مثلاً لاختلال الأمور عندما تفقد هذا

(١) انظر في هذا الموضوع كتاب النظريات السياسية الإسلامية تأليف الدكتور محمد طه الدين الرئيس

ص ١٧ ١٨ الطبعة الثانية ١٩٥٧ .

الشرط . وتخرج عن هذا الأصل نقلاً عما حكاه المسعودى فى أخبار الفرس عن « الموبدان » صاحب الدين عندهم أيام « بهرام بن بهرام » وما عرض به للملك فى إنكار ما كان عليه من الغفلة والظلم وأثر ذلك فى خراب العمران وسقوط الدول بضرب المثال فى ذلك على لسان اليوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له : إن يوماً ذكراً يروم نكاح يوم أنثى ، وأنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب فى أيام « بهرام » قبل شرطها وقال لها : إن دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية وهذا أسهل مرام . . . ١

فتنبه الملك من غفلة وخلأ بالموبدان وسأله عن مراده . فقال له : أيها الملك . . . إن الملك لا يتم عزة إلا بالشرعية ، والقيام به بطاعته ، والتصرف تحت أمره ونهيه ، ولا قيام للشرعية إلا بالملك . ولا عز للملك إلا بالرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالمال ، ولا سيل للمال إلا بالعمارة ، ولا سيل للعمارة إلا بالعدل . والعدل الميزان المنصوب بين الخليفة ، نصبه الرب ، وجعل له قياً وهو الملك^(٢) . . . !

بعد هذه المقدمة . نعود إلى بحثنا الخاص بهذه القضية .

• • •

فى مطلع القرن التاسع عشر ، وعلى وجه التحديد ، فى عام ١٨٠٥ م استطاع (محمد على) أن يجند بحبته وذكائه علماء الأزهر فيأبعمه حاكماً على مصر ، وبإيعاز الشعب من ورائهم أملاً فى الخلاص والحرية والعدل . ولكن الطبع فى النهاية يغلب التطبع ، والشاة التى أرضعت جرو الذئب ليكون حملاً ، لم تلبث غير قليل حتى تبين خطأها الفادح وهى ترى الجرو يمزق بأنيابه صغارها الرضع . . . ! سخرة وضرائب ، قسوة وظلم ، غدر ومؤامرات . . . لقد كشف محمد على حقيقته . . . لقد تذكر الجرو فجأة أنه ذئب . . . ومصر الوديمة الطيبة صارت بين

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٨٧ ط المكتبة التجارية القاهرة .

أنياه ومخالبه غنية حرب . . . ١

وفي هذا المقال الذى نشره الشيخ محمد عبده بمناسبة الاحتفال بمرور مائة سنة على قيام نظام حكم محمد على فى مصر. صورة وصفية لهذا الحكم ، ونوعية هذا الرجل الذى أقام فى مصر هذا الحكم .
يقول الشيخ محمد عبده (٣) :

« . . . لم يستطع أن يحمى ، ولكنه استطاع أن يبيت ، كان معظم قوة الجيش معه ، وكان صاحب حيلة بالفطرة ، فأخذ يستعين بالجيش على إعدام كل رأس من خصومه . . ثم يعود ثانية بقوة الجيش ويغزب آخر على من كان معه أولاً فيمحقه . . وهكذا . حتى إذا سحقت الأحزاب القوية ، وجه عنايته إلى أصحاب البيوت الرفيعة ، فلم بدع رأساً فيه ضمير . أنا . . . واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهالى حتى فد بأس الأهالى وزالت ملكة الشجاعة فيهم ، فلم يبق فى البلاد رأساً حتى خلعه من بدنه أو نفاه إلى السودان فهلك فيه . (١) »

« أخذ يرفع الأسافل ، ويعطيهم فى البلاد ، حتى انحط الكرام وساد اللثام ولم يبق فى البلاد إلا آلات له يستعملها فى جباية الأموال ، جمع العاكر بأية طريقة ، وعلى أى وجه لمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة ، واستقلال نفس ، لتصبح البلاد المصرية إقطاعاً واحداً له ولأولاده . . اشترأت نفسه لأن يكون ملكاً غير تابع للسلطان العثمانى ، فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوربيين ، فأوسع لهم فى المجاملة ، وزاد لهم فى الامتياز خارجاً عن حدود المعاهدات ، حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكاً من الملوك وصغرت نفوس الأهالى بين الأجانب بقوة الحاكم ، وانقلب الوطنى غريباً فى داره

(٣) المروة الوثقى ص ١٢

(١) المصدر السابق ص ١٢

غير مطمئن في قراره فاجتمع على سكان البلاد ذلان : ذل ضريته الحكومة الاستبدادية وذل سامهم الأجنبي إياه ليصل إلى ما يريد منهم ، غير واقف إلى حد ، أو مردود إلى شريعة ، كان رجال الحكومة إما من الأرناؤوط أو السراكسة ، أو الأرمن أو ما أشبه هذه الأوشاب ، وكانوا يحكمون بما يهون لا يرجعون إلى شريعة ولا قانون ، ولا يستحي بعض الأحداث من أن يقول : إن « محمد علي » جعل جدران سلطانه الدين . . . أى دين كان دعامة لسلطان محمد علي . . . ؟ دين التحصيل . . . ؟ دين الكرياج ؟ دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده ؟ أى عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة الدين ؟ لا يذكره إلا المسألة الوهاية وأهل الدين يطمون أن الإغارة فيها كانت على الدين . . . لا للدين .^(٥١)

• • •

هذا هو « محمد علي » . . . كان عاصفة هبت على مصر . . . فبدأ الشعب يرحل وبهاجر ، ولم يترك الطاغية للشعب هذه الفرصة ، فد عليه منافذ الهجرة بالقوة . . . ثم انجه بشره إلى السودان فوجه إليه حملة إثر حملة . . . يقول نعم شقير^(٥٢) : في عام ١٢٣٦ هـ - الموافق لعام ١٨٢١ م أرسل محمد علي باشا أول حملة عسكرية لفتح السودان ، وقد وضع نصب عينيه جملة أسباب لإقناذ هذه الحملة والعمل على تنفيذها بسرعة :

أول هذه الأسباب : الاستيلاء على مناجم الذهب في « سنار » التي طبقت شهرتها الآفاق وبخاصة في القاهرة .

ثاني هذه الأسباب : استئصال شأفة المالك - أعدائه الخطيرين - بعد أن فر

(٥١) المصدر السابق ص ١٦

(٥٢) جغرافية وتاريخ السودان ص ٤٩١ - ٤٩٢ ولم ترد هذه الأسباب عما كنا نعلمه في المثلوس والأزهر . قبل سقوط أسرة محمد علي وقيام الحكم الجمهوري في مصر .

بعضهم إلى الجنوب - عقب المذبحة التي دبرها لهم في القلعة .
ثالث هذه الأسباب : التخلص من المتاعب التي سببها له الجنود المرتقة من
الأتراك والشراكسة ، وأسباب أخرى تتعلق باكتشاف منابع النيل . وتوسيع نطاق
الزراعة والتجارة .

• • •

هذه الأسباب التي حفزت « محمد علي » إلى غزو السودان وقضه ، تحدد لنا
بدقة هدف هذا الرجل من فتح السودان وغايته ، وتضاف كذلك إلى هذه الصورة
التي وصفها الشيخ محمد عبده بقلبه .
ولم يستح بعض المؤرخين أو - الأحداث - كما وصفهم الشيخ محمد عبده ، لم
يستجروا من القول . إن هدف « محمد علي » كان تحقيق وحدة وادي النيل بين
السودان ومصر . .

ماذا كان يعرف « محمد علي » عن السودان حتى يسعى إلى تحقيق وحدة بينه
وبين مصر ؟ . . . لقد كان جندياً ألباني الأصل ، جاء في حملة أرسلتها دولة
الخلافة لإخراج الفرنسيين من مصر ، واستطاع بجبلته ودهائه - كما ذكرنا - أن
يجلس على كرسي الحكم ، ثم انقلب بعد ذلك على دولة الخلافة كما انقلب قبل
ذلك على العلماء والشعب في مصر . . .

وذهب محمد علي . . مات بعد أن أصابه العته والجنون من الظلم ، وخلف من
بعده خلف ، كانوا على شاكلته في العلوان والبغى ، وسارت الأمور على هذا
النوال حتى وصل إسماعيل إلى الحكم ، فأغرق - بفأته - البلاد في الديون ،
ووقعت مصر بذلك في قبضة المرابين ، وفي هذا الوقت وصل إلى مصر الحكيم
الأفغانى جمال الدين . . .

يقول الشيخ محمد عبده في وصف أحوال مصر قبل مجيئه^(٧) . .

(٧) مذكرات الشيخ محمد عبده ص ٥٥ ٥٦

وإن أهالي مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ كانوا يرون شئونهم العامة ، بل الخاصة ملكاً للحاكم الأعلى ، ومن يستنيه عنه في تدبير أمورهم ، يتصرف فيها حسب إرادته ، ويعتقدون أن سعادتهم وشفاهم موكولان إلى أمانته وعدله ، أو خيائته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يديه في إدارة بلاده ، أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيها صلاحاً لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مصرفون فيما تكلفهم به الحكومة ، وتضربه عليهم وكانوا في غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى ، سواء أكانت إسلامية أم أوربية ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوربا وتعلم فيها ، من عهد محمد علي باشا إلى ذلك التاريخ ، وذهاب الكثير منهم إلى ما جاورهم من البلاد الإسلامية . . لم يشعر الأهالي بشيء من ثمرات تلك الأسفار ، ولا فوائد تلك المعارف ، ومع أن إسماعيل أبدع مجلس الشورى في مصر ١٢٨٣ هـ ، وكان من حقه أن يعلم الأهالي أن لهم شأنًا في مصالح بلادهم ، وأن لهم رأياً يرجع إليه فيها . لم يحس أحد منهم ، ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن له ذلك الحق ، الذي يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية ، لأن مبدع المجلس قيده في النظام والعمل ، ولو حدث إنساناً فكره السليم بأن هناك وجهة غير التي يوجهه إليها الحاكم لما أمكنه ذلك . فإن بجانب كل لفظ نفياً عن الوطن . . أو إزهاقاً للروح . . أو تجريدًا من المال . .

في هذا الجو المعتم . . جاء إلى هذه الديار في سنة ١٣٨٦ هـ رجل بصير في الدين ، عارف بأحوال الأمم ، واسع الاطلاع ، جم المعارف ، جرىء القلب واللسان ، وهو المعروف بالسيد جمال الدين الأفغاني ، فعرف عليه في بادئ الأمر طائفة من طلبة العلم ، ثم اختلف إليه كثير من الموظفين والأعيان ثم انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من أفكار وعقائد ، فكان ذلك داعياً إلى رغبة الناس في الاجتماع به لتعرف ما عنده . . وهو في جميع الأوقات يجتمع بالناس ولا يسأم من الحديث فيها بنير العقل ، وبطهر العقيدة ، أو يذهب بالناس إلى معالي الأمور أو

يلفت النظر إلى الشئون العامة ، مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ، وكان طلبة العلم يتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام الإجازة ، وكان الزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم ينشرونه في الناس ، فاستيقظت مشاعر واثبتت عقول ، ونحف حجاب الغفلة في أطراف البلاد ، وبخاصة في القاهرة (٨) . .

• • •

ثم زاد مركزه خطراً لأنه تدخل في السياسة ، وأخذ يقرب منه العوام ويقول لهم : إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد ، وريتم في حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ ملوك الرعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتعنون لوطاة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتكم الحيف والجور ، وتقتل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون . بل راضون ، وتستترف قوام حياتكم التي تجمعت مما يتحلب من جباهكم بالعصا ، والمقرعة ، والسوط ، وأنتم صامتون ! فلو كان في عروقهم دم فيه كريات حيوية ، وفي رؤوسكم أعصاب تأثر فتشير النخوة لما رضيت بهذا الذل ، وهذه المسكنة . . أفيقوا من سكرتكم . . ! عيشوا كباقي الأمم أحراراً سعداء (٩) . .

وخطب مرة في مدينة الإسكندرية فقال (١٠) :

أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنب ما تسد به الرمح وتقوم بأود العيال . . فلماذا لا تشق ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك . . . !

بهذه الجرأة كان جمال الدين يخطب ، ويتكلم ، وكان لكلامه أثر عميق في إيقاظ الناس ، وتنيه المحكومين إلى حقوقهم قبل الحاكمين فاتجه الناس إلى نقد

(٨) المصدر السابق ص ٥٧ .

(٩) زعماء الإصلاح ص ٧٢

(١٠) راجد الفكر الحديث - د طه حسين ص ٢٢

أصحاب السلطان ، وأخذت تتضاءل عقيدة سيادة الحاكم ، وحقه المطلق في التصرف .

• • •

كان الحاكم لمصر في ذلك الوقت هو الخديو إسماعيل الذي جرت سياسته الخراب والدمار على مصر كما قلنا ، وزاد الطين بلة أن أصحاب الديون فقدوا ثقتهم في الحكم ، وفي الطريقة التي تناس بها الأمور ، ولم نهداً نائرة هؤلاء المرابين إلا بعد تعيين وزيرين في الحكومة . . أحدهما إنجليزى ، والآخر فرنسى . شيء غريب حقاً . . . صورة مضحكة ومبكية معاً : وهى صورة نحدد لنا بوضوح مدى الانحدار الذى وصل إليه الحكم ، ومدى الضياع الذى انتهت إليه شئون الأمة ، وقد انطلقت الألسنة بانتقاد الارتباك الشديد الذى أوقع البلاد في هذه الورطة .

• • • • وكانت الآراء السياسية التي يبثها جبال الدين في تلامذته ومريديه وما بينه لهم وللناس من أنواع الحكومات الاستبدادية^(١١) والدستورية تؤثر فيهم وفي غيرهم من الطبقات ، ولكن الشعور بحقوق الأمة في أمر حكم نفسها ، ومراقبة أعمال حكامها لم يسر في هذه النابتة من المصريين إلا وقد صحبه رؤية التصرف الأجنبي في حكومتهم ، والتحكم الأوربي في شئون بلادهم ، فغلقت آمال البصراء من المواطنين بإصلاح عظيم ، غير أن سوء حال الحكومة الوطنية ، وفساد رجالها ، والخوف من السلطة الأجنبية ، كل ذلك . كان عقبة في طريق الإصلاح^(١٢) . .

ولما كان جمال الدين عنيماً بطبيعته ، لا يشتهى شيء عن هدفه ، ولا يتراجع أمام عقبة تعترض سبيله ، فإنه عندما شاهد الخطر يزحف على مصر ، وأيقن بفساد

(١١) اقرأ في هذا الموضوع كتاب (طوائف الاستبداد) تأليف عبد الرحمن الكواكبي

(١٢) مذكرات الشيخ محمد عبد ص ٥٩

إسماعيل فساداً لا منجاة منه ، اقترح على تلميذه الشيخ محمد عبده أن يقتل الخديو إسماعيل . . .

يقول الأستاذ الإمام : وكنت أنا موافقاً على قتل إسماعيل ، لو أننا عرفنا « عرابي » في ذلك الوقت ، فرمما كان في إمكاننا أن ننظم الحركة معه ، لأن قتل إسماعيل في ذلك الوقت ، كان يعتبر أحسن ما يمكننا عمله (١٣) . . .

• • •

وعلى أية حال . . فقد كفى الله المؤمنين شر القتال ! وأرغم إسماعيل على التنازل عن الحكم ، وجاء ابنه الخديو توفيق طيقاً للخطة التي رسمها جمال الدين مع الزعماء ورجال الفكر .

وكما فعل محمد علي مع العلماء الذين بابغوه حاكماً على مصر ، تكررت المأساة من جديد على يد توفيق مع جمال الدين الذي مهد له الطريق إلى الحكم . استدعاه مرة - أي الخديو توفيق - إلى قصر عابدين وقال له :
إني أحب كل الخير للمصريين ، ويسرني أن أرى بلادى وأبنائى في أعلى درجات الفلاح والرق . ولكن مع الأسف . إن أكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس ، والأقوال المهيجة ، فيلقون أنفسهم والبلاد في تهلكة .

فأجاب جمال الدين :

إن الشعب المصري كسائر الشعوب ، لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفرادهم ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعامل ، فبالنظر الذي تنظرون به إلى الشعب المصري ينظر إليكم . . ! وإن قبلتم نصيح هذا المخلص ، وأسرعتم في إشراك الأمة ، في حكم البلاد عن طريق الشورى . فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن

(١٣) العروة الوثقى ص ٣١

الامة تسن القوانين ، وتنفيذها باسمكم وإرادتكم . يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم .

ثم خرج من عنده بخطب في الموضوع . ويستحث تلاميذه ، وأعوانه على الكتابة فيه في حماسة وقوة^(١١) .

• • •

لقد أحدثت هذه الأفكار انفجاراً هائلاً زلزل أقدام الطغاة في مصر وأثارت من العقد والقصبة ضد هذا التأثير المصلح بقدر ما كان في هذه الأفكار من قوة وعنف . . . وكان وكلاء الدول الأجنبية ، قد تقدموا إلى الخديو بإقامة الأدلة على خطر الرجل ، وأخافوه منه ، فأخذ في الطريق آخر الليل وهو ذاهب إلى بيته . هو وخادمه وحجز في الضبطية^(١٢) ، ولم يمكن من أخذ ثيابه . وبعد أن انتشر ضياء النهار ، حمل في عربة مقفلة إلى محطة السكة الحديدية ، ومنها ذهب تحت المراقبة الشديدة إلى السويس ، ومنها أُنزل إلى البحر ليأمر إلى بومباي Bombay قطع الماسة بقميص واحد على بدنه ، والوقت صيف والحرارة شديدة ، حتى تفرح جسده ، ولم يكن معه من النقود أكثر من ثلاثة جنيهات عثمانية ، وبعض فروش من القضة ، وهذا المبلغ أخذ منه في السويس ولم يبق معه شيء . . . ولما علم بذلك أحمد بك النقاوى ، وكان متصل دولة إيران في السويس ذهب لتوديعه ، وعرض عليه مبلغاً وافراً من المال ، فأبى أن يأخذ شيئاً . . . ولا ريب أن الانزعاج بنفى جمال الدين كان عاماً ، والكدر كان تاماً ، ولكن الخديو أظهر سروره مما فعل . وتحدث به في محضر جماعة من المشايخ على مائدة الإفطار في رمضان ، فأظهر الطرب بذلك من كان لا يعرف لنفسه قيمة في العلم والفضل . . . وألزمت الجرائد بنشر الأمر الصادر بالنفى ، وفيه من التبريع الشديد ما لم يكن

(١١) رعاء الإصلاح ص ٧٦

(١٢) هي ما يعرف بـ قسم البوليس في القاهرة



أحمد عراي باشا

يستحقه الرجل ، كما أنه كان فيه تشيع جارح بمن كانوا يجتمعون عليه ، فنشره البعض ، وأبت إحدى الجرائد نشره ، لأن محررها كان من تلامذته فعطلت . . . على أن هذه الشدة لم ترد الأفكار إلا حدة ، ولا الألسن إلا جرأة . ولا الإحساس بضرورة الإصلاح إلا نمواً وظهوراً .^(١٦)

• • •

وتحرك الجيش . . . وكان تحركه في أول الأمر احتجاجاً على التفرقة والمحاباة التي يتمتع بها الضباط الأجانب من الترك والشركس ، والأرناؤود ثم تحول بعد ذلك إلى ثورة شعبية وقف فيها الشعب كله وراء الجيش .

كان أحمد عراي ، وعبد العال حلمي ، وعلى فهمي ، وغيرهم من كبار ضباط الجيش المصريين قد اجتمعوا في بيت أحمد عراي وكتبوا عريضة حددوا فيها مطالبهم ، ثم حملوها بعد ذلك إلى رياض باشا رئيس الوزراء طالبين رفعها إلى الخديو توفيق . وحين قابلوا رياض باشا قال لهم : إن أمر هذه العريضة مهلك . . فقال له عراي : إننا لم نطلب إلا حقاً وعدلاً .

(١٦) مذكرات محمد عبده ص ٧٢ ٧٣

وليس في طلب العدل والحق من خطر ، وإنا نعتبرك أباً للمصريين فما هذا التلويح بالتهديد ؟ !

قال رياض باشا : ليس في البلاد من هو أهل لأن يكون عضواً في مجلس النواب . قال له عراي : إنك مصري ، وياق النظار (الوزراء) مصريون والحدود أيضاً مصري أظن أن مصر وللتكم ثم عقت ؟ كلا . فإن فيها العلماء والحكام ، والنباه ، قال رياض باشا : ستظر يلقه في طلباتكم هذه . . ثم انصرفنا . ثم فوجئ عراي وزملائه بعد ذلك بصدور الأمر بإيقافهم ومحاكمتهم عسكرياً ، فالتق القبض عليهم ، ثم جردوا من رتيم ، وأودعوا السجن ، ولم يكده خير اعتقالهم يصل إلى الجيش ، حتى تحرك لإيقادهم وإخراجهم من السجن . ثم بدأت الأمور تتوتر وتتأزم بينهم وبين الحدود حتى كان ذلك اليوم الذي خرج فيه الجيش في مظاهرة عسكرية إلى القصر .

يقول أحمد عراي :

« . . . فلما كمل اجتماع الجيش في « عابدين »^(١٧) ، كان الميدان غاصاً بمجاهير المخرجين من الوطنيين والأجانب ، ونوافذ البيوت المجاورة للراي وأسطحها ملأى بالمخرجين والمخرجات . وأما الحدود . . فقد نزل من القصر ومشي في الميدان ، ومن حواله المتر كوكسن - قنصل إنجلترا في الإسكندرية والجنرال جولد سميت - مراقب الدائرة السنية - ونقر من جاوشية الرسالة الحدودية . حتى إذا ما توسط الساحة طلبنى . فوجهت إليه لأعرض مطالب الأمة^(١٨) ، وكنت راكباً جوادى ، وسبقني في يدي ، ومن خلفي نحو ثلاثين ضابطاً . فلما دنوت منه . صاح لي

(١٧) « عابدين » هو قصر الحكم في مصر . وأمامه ميدان فسيح يتبع لحوال ملته وخمس ألفاً من

المس . مذكرات عراي ص ٧٨

(١٨) كانت هذه المطالب تنادى بضرورة إنشاء مجلس النورى . وحكم البلاد حكماً دستورياً وهي نفس

المناخ الذى كان حاله ليس يطالب بها الشعب المصرى

أن ترجل واغمد سيفك . . فعلت ، ثم أقبلت عليه . وفي تلك اللحظة أشار عليه
المستر كوكسن أن يطلق غدارته على !

فالتفت إليه وقال :

أفلا تنظر إلى من حولنا من العساكر ؟ ثم صاح بمن خلق من الضباط أن
أغمدوا سيوفكم ، وعودوا إلى بلوكاتكم (أى الشكنات) . . . فلم يفعلوا . . .
وظلوا وقوفاً خلقى ، ودم الوطنية يغلى في مراحل قلوبهم . . ولما وقفت بين يديه
مشيراً بالسلام خاطبني بقوله :

- ما هي أسباب حضورك بالجيش إلى هنا ؟ .

فأجبت بقول : جئت يا مولاي لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة ، وكلها
طلبات عادلة . .

فقال : وما هي هذه الطلبات ؟

قلت : هي إسقاط الوزارة المستبدة ، وتأليف مجلس نواب على النسق
الأوروبي .

فقال : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد من
آبائي وأجدادي ، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا . . !

قلت له : لقد خلقنا الله أحراراً ، ولم يخلقنا ترثاً وعقاراً . فوالله الذي لا إله
إلا هو . إننا سوف لا نورث ، ولا نستعبد بعد اليوم . . !

ويقول عرابي :

كنت أرى الجنرال جولدميث كلما سمع جملة من كلامي رجع القهقري
خطوات . . . ثم يعود إلى محله في الدائرة المحاطة بالضباط ، والجاوبشة ، فأشار
المستر كوكسن على الحثيدو بالرجوع إلى السراي ، زاعماً أنه يخشى عليه سوء
العاقبة ، إذا زادت المخاطبة عن هذا الحد .

وبعد رجوع الحثيدو إلى السراي عاد المستر كوكسن ، ومعه المستر كلفن المراقب

المالى الإنجليزى ، وخاطبني بالنيابة عن الخديو كرمبول من طرفه قائلاً :
إن طلب إسقاط الوزارة ، وطلب تأليف مجلس النواب من حقوق الأمة لا من
حقوق الجيش .

قلت له : اعلم يا حضرة القنصل أن طلباتى المتعلقة بالأهالى لم أعمد إليها إلا
لأنهم أقاموني نائباً عنهم فى تنفيذها بوساطة هؤلاء العساكر الذين هم إخوانهم
وأولادهم . فهم القوة التى ينفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة ، وانظر
إلى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر فهم الأهالى الذين أنايوننا عنهم فى طلب
حقوقهم ، واعلم علم اليقين أننا لن نتنازل عن طلباتنا ، ولا نبرح هذا المكان ما لم
تنفذ . . .

فقال القنصل : علمت من كلامك أنك ترغب فى تنفيذ اقتراحك بالقوة ،
وهذا أمر ينشأ عنه ضياع بلادكم وتلاشيها !

قلت : كيف يكون ذلك ؟ ومن الذى يعارضنا فى أحوال داخلينا ؟ فاعلم أننا
سنقاوم من يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة إلى أن نفنى عن آخرنا .

فقال القنصل كوكسن : وأين هى قوتكم التى ستدافع بها ؟ !

قلت : عند الاقتضاء يمكن أن يحشد مليون من العساكر يدافعون عن بلادهم
يسمعون قولى ، ويلبون إشارتى .

فقال كوكسن : وماذا تفعل إذا لم تجب إلى ما تطلب ؟ !

قلت : أقول كلمة أخرى .

فقال : وما هى . . . ؟

قلت : لا أقولها إلا عند اليأس . . . !

. . .

ماذا يمكن أن يقال عن الخديو توفيق بعد ذلك ؟ ماذا يقال عن هذا الحاكم
الذى ينظر إلى شعبه هذه النظرة المقتبة ، ويعتبره ميراثاً ورثه عن آبائه وأجداده ،

كانهم لبوا بشرأ لهم حقوق البشر ، وليوا شعباً لهم ما للشعوب من حقوق مقررّة
في كل الشرائع والدمائير والنظم ؟

ماذا يقال عن الحاكم الذي يفوضه أجنبياً ، هو المتركوكسن في الحديث
نيابة عنه إلى ممثلي الشعب ، وقادة الجيش ، وفي الحديث عن حقوق الأمة التي
أهدرت على أيدي الأجانب والمتحصرين وأعداء الشعب ؟

إن المتركوكسن لم يكن مخلصاً حتى للرجل الذي أنابه عنه في التحدث باسمه ،
لم يكن حريصاً على حل هذه المعضلة التي دفعت بعراي وزملائه إلى هذا الموقف
الذي وقفوه من أجل مصر . وهل كان من الإخلاص ، أو الحكمة ، أو المصلحة .
أن يطلب المتركوكسن من الخديو قتل عراي على مرأى ومسح من الجيش
والشعب . . . ؟ لقد كان للمتركوكسن يعمل لحساب دولته ، وكان حريصاً على
إثارة الشعور ، وتوسيع شقة الخلاف لحاجة في نفسه ، وفي حديثه إلى عراي ،
وطريقة سؤاله يمكن إدراك الهدف الذي كان يسعى إليه بالتعرف على مدى القوة
التي يمكن أن تساعد الثوار إذا حزب الأمر ، ودق ناقوس الخطر .

والخديو نفسه كان شخصيته باهتة لا أثر فيها للحكمة ، وكان شخصية غريبة
الشعور عن الجيش وعن الأمة ، كان يفكر بعقل غيره ، ويتكلم بلسانه ، ولو كان
هذا العقل وهذا اللسان مصرياً مسلماً لكان الأمر ، ولكنه كان يفكر بعقل كوكسن
وجولد سميت ! ومن كلام أنصاته الإنجليزي ، وبينهم المؤرخ الشهير ألفريد
بتلر . . . إنه كان يحتفل بمجاملتهم بين كبار موظفيه ، فيقضي الساعات يتكلم
معهم باللغة الإنجليزية التي لا يعرفها أولئك الموظفون ، ويذكر الأسماء بالحروف
المجانية في سياق أحاديثه ليخفي موضوع الكلام عن سامعيه الذين يعرفون أصحاب
تلك الأسماء ، ويفضي في هذه الأحاديث بأخبار من المعلومات الخاصة والأوراق
المحفوظة تتعلق بالأسرة ، وعظماء البلاد (١٩) . . .

(١٩) محمد عبده - تأليف عباس الخياط ص ١٢٩

وقد لحص المرحوم عبد الرحمن الراجحي الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة
العراية واندلاعها فيما يأتي :

أولاً : تنمر الضباط المصريين من سوء المعاملة التي كانوا يلقونها من رؤسائهم
من الأرمن والشركس والترك .

ثانياً : سوء نظام الحكم القائم ، ورغبة المصريين في التخلص منه ، فقد كان قوام
هذا الحكم اضطهاد الوطنيين ، والاستبداد بهم ، فلم يكن هناك عدل ولا قانون .
ولا قضاء يتصف للمظلوم ، ولا حرية ، ولا مساواة ، وكان الضرب بالكرباج
شائعاً يتخذه الحكام وسيلة لجمع الأموال ، وكانت السخرة مضروبة على البلاد ،
ولم تكن مقصورة على المنافع والأعمال العامة ، بل كانت تستخدم لاستصلاح
أطيان ذوي السلطة والجاه ، وكان النفي إلى أقاصى السودان عقوبة يعانها الكثيرون
لمجرد الشبهة أو النكايه وقد بلغ عدد المنفيين إلى السودان ٩١٢ منفيًا .

ثالثاً : كانت سياسة رياض باشا سبباً من أسباب الثورة العراية فقد وقف موقفاً
عدائياً من مطالب الأمة ، والعمل على إقامة حياة دستورية ، ومالاً الأجانب على
حساب المصلحة العامة ، وحارب الرأي وحرية الفكر في الصحافة وقد أمر
بمصادرة الصحف وإلغاء امتيازها إذا كتبت رأياً يخالف رأى الحكومة .

رابعاً : قيام حزب وطني بين صفوفه كل العناصر الوطنية ورجال الفكر والصحافة ،
وقد عكف هذا الحزب على دراسة كل الأسباب التي تشكو منها الأمة وعمل على
إزالتها بكل وسيلة . (وكان الشيخ محمد عبده وزملاؤه في مدرسة جمال الدين) في
مقدمة العاملين في هذه الحركة .

خامساً : تدخل الأجانب في سياسة الدولة ، ونظرتهم إلى المصريين نظرة
احتقار ومهانة .

سادساً : سوء الحالة الاقتصادية ، وسيطرة المرابين وأصحاب الديون على
الميزانية العامة . واعتراضهم على كل مشروع يعود بالخير والنفع على الأمة .

سابعاً : الثورة الفكرية التي أحدثها جمال الدين الأفغانى فى أثناء إقامته فى القاهرة ،
والتي هزت الشعب المصرى من أعماقه ليثور على هذه الأوضاع الجائرة ، كما كان
إخراجه من مصر على هذه الصورة البغيضة عاملاً من عوامل اشتعال الثورة ،
وتأجيج مشاعر البغض والسخط ضد الخديو والحكومة ،^(٢٠) .

فالثورة العراية كانت ثورة دفاع عن الحق ، ودفاع عن الحياة ، وكانت ثورة
شعبية اشركت فيها كل طبقات الأمة برغم أنها بدأت كثورة عسكرية .

• • •

لقد انتصرت مصر على كل حال فى هذه المعركة التي قادها الجيش ، فقد أرغم
الخديو على إقالة الوزارة المنسوبة - وزارة رياض - وجاء محمد شريف باشا رئيساً
للوزراء كما أشار الضباط . وبدأ الجانبان يتعاونان معاً لما فيه خير العباد وإصلاح البلاد .
ولكن الدول الأوروبية التي كانت تخطط لابتلاع البلاد الإسلامية ما كانت
لتوافق على هذا الإصلاح ، وتحرير مصر من قبضة المستبدين والطغاة ، كانت هذه
الدول حريصة على إبقاء الحال على ما كان عليه من الظلم ، وإطلاق ملطة الخديو
ليمارس جريمته ضد الشعب فى هذه الأحوال تنتشر القوضى وبعم السخط ويصبح
الطريق ممهداً أمام الطامعين لاحتلال مصر .

فلاستعمار لا يعيش إلا فى جو الفتن ، وفى بلاد مسحونة بالبغضاء والكراهة وفى
أحوال تسمح له بممارسة لعبته ، وارتكاب جريمته . . .

يقول الشيخ محمد عبده^(٢١) :

« . . . وفى أواخر سنة ١٨٨١ م أراد « غمبتا » رئيس وزراء فرنسا إرسال ٢٥
ألفاً من العساكر لتقرير النظام فى مصر ، مع أنه لم يكن حصل فيها شيء ، وقد قال
« غمبتا » فى محادثة له مع اللورد جرانفيل وزير خارجية إنجلترا : قلبى يمتلئ

(٢٠) الثورة العراية من صفحة ٧١ - ٧٨

(٢١) مذكرات الشيخ محمد عبده ص ١٧٠

رجاءاً . . لا أجد وسيلة للاحتياط لمنع نهضة جديدة أفضل من إقحام المصريين أن
إنجلترا وفرنسا لا يمكنها أن تتحملاً شيئاً من هذه المطالب ، ولا تلك التزعات . .
كما كان من رأى « غمبتا » : أن أوروبا بوجه عام ، وفرنسا بوجه خاص لا تصنع
الديمقراطية للتصدير ! وكان ينظر إلى الحركة الوطنية في مصر بعين الاحتقار ، بعدها
تعصباً إسلامياً وأوهاماً ثورية^(٢٢) . . .

وأخيراً اتفقت بريطانيا وفرنسا على توجيه مذكرة إلى الحكومة المصرية ، وقد
جاء في هذه المذكرة :

« إن الحكومتين على تمام الاتفاق في هذا الصدد وإن الحوادث الأخيرة وبخاصة
الأمر الصادر من الخديو باجتماع مجلس النواب قد هيأت الفرصة لتبادل الآراء مرة
أخرى في هذا الشأن . فللرجو أن تبلغوا توفيق باشا بأن الحكومتين الفرنسية
والإنجليزية تعدان تثبيت سمو الخديو على العرش هو الضمان الوحيد في الحال
وللستقبل لاستتباب نظام تقدم وسعادة مصر ! والحكومتان مضفقتان اتفاقاً وطبداً
على بذل جهودهما المشتركة لمقاومة كل أسباب المشاكل الداخلية والخارجية التي قد
تهدد النظام القائم في مصر ! ولا يخامرهما شك في أن الجهر يعزمها في هذا الصدد
سيكون له أثره في اتقاء الأخطار التي يمكن أن تستهدف لها حكومة الخديو ، ومن
المحقق أن هذه الأخطار ستنشأ من فرنسا وإنجلترا اتحاداً وثيقاً بالتغلب عليها ، . .
وتعتقد الحكومتان أن سمو الخديو يجد من هذه التأكيدات الثقة والطمأنينة التي هو
في حاجة إليها^(٢٣) . . . »

وباختصار . . إن الدولتين تضمنان بقاء توفيق حاكماً على مصر فليفعل كما
يشاء إذا ضد الشعب . . !

وبريطانيا وفرنسا مستعدتان للتدخل في الشؤون الخاصة بمصر ولو أدى ذلك إلى

(٢٢) الثورة المصرية - دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفي ص ٧٧

(٢٣) الثورة المصرية دكتور أحمد عبد الرحيم ص ٧٨

نشوب الحرب . . ١

وكان من الطبيعي أن تقابل هذه المذكرة بالغضب والسخط ، ولم يفهم أحد من المصريين لماذا قلمت ، حتى الخديو نفسه لم يطلب من الدولتين إصدار هذه المذكرة التي فصلته فصلاً تاماً عن الأمة ، وزادت الطين بلة ، واعتبر الضباط هذه المذكرة ضدهم فقررروا الاحتجاج لدى الخديو بقوة ، وعلا المد الثورى فى مصر بشكل خطير غطى على كل نداء بتوخى الحكمة ، وأرسل السلطان فى تركيا احتجاجاً إلى الدول الأوربية مؤكداً أنه لا يوجد فى مصر ما يبرر هذه الخطوة . وتطورت الأمور فى مصر فاستقال شريف باشا تاركاً لمحمود سامى باشا البارودى تأليف وزارة ثورية اشترك فيها عراى كوزير للحرية ، وكان تأليف هذه الوزارة يعتبر تحدياً للإنجلترا وفرنسا ، ولم يكذب يتم تشكيل هذه الوزارة حتى أرسل المستر مالت - المعتمد البريطانى فى القاهرة - إلى وزير الخارجية الإنجليزية قائلاً :

لقد توفرت لنا الآن فرصة ممتازة للتدخل . ونشرت جريدة «الأجيشيان جازيت» الوثيقة الصلة بالتمصلية الإنجليزية مقالات عنيفة ضد عراى والحركة الوطنية ، ونصح القنصل الإنجليزي الأسر الإنجليزية بأن ترحل من القاهرة إلى الإسكندرية وأشار على الخديو الاستعانة بالبدو للقضاء على الثورة . ثم قدم ممثلا الدولتين مذكرة إلى الخديو يطالبان فيها باستقالة الوزارة ، وترحيل عراى إلى خارج الديار المصرية . . ١ وقد رفضت المذكرة من زعماء الثورة ، وقدموا احتجاجاً إلى الخديو لقبوله هذه المذكرة ، ثم استقالت الوزارة بعد ذلك وبدأت المساعي لإغراء عراى . فرفض خيانة الأمة ، ثم خرج العلماء وشيخ الأزهر يطالبون بعودة عراى إلى وزارة الحرية . واشترك معهم فى هذه المسيرة ، رؤساء الطوائف الدينية ، فاضطر الخديو وهو صاغراً إلى إعادة عراى إلى الوزارة ، وهكذا عاد زعيم الثورة إلى مركز القيادة ، وطبقت شهرة عراى الآفاق فى العالم الإسلامى كله ، وعلت الأصوات تطالب بخلع الخديو توفيق رأس الخيانة ، وبدأت إنجلترا وفرنسا تفكران

في استعمال القوة المسلحة^(٢٤)

• • •

ولكن كيف ؟ لقد تولى الخديو وأذنا به القيام بهذه المهمة ، فقد استدعى « الخديو » إبراهيم^(٢٥) توفيق مدير البحرية ، وطلب إليه أن يجمع مشايخ قبائل البدو ، ويحضرهم إليه ، ففعل ، وبالح الخديو في حسن استقبالهم ثم أوعز إلى المدير أن يأمرهم بحشد ثلاثة آلاف بدوى وإحضارهم إلى القاهرة بطريق الجيزة ليحدثوا فتنه في البلد ، ولكنه تعذر على المشايخ حشد العدد المطلوب من البدو ، ولما أخفق في معاه هذا أرسل تليفرافاً رمزياً إلى محافظ الإسكندرية هذا نصه : قد ضمن عراي أمن الأمن والنظام ، ونشر ذلك في الصحف ، وجعل نفسه مسئولاً لدى القناصل . وإذا نجح في ضمانه هذا ، وثقت به الدول وصغر شأننا ، أما الآن . . وأساطيل الدول في مياه الإسكندرية وعقول الناس متجهة ، فوقع الخلاف بين الأوربيين وغيرهم أمر محتمل . فاختار لنفسك ، إما خدمة عراي أو خدمتنا . ويقول الشيخ محمد عبده^(٢٦) :

في يوم الأحد ١١ يونيو ١٨٨٢ م كانت القهاوى Cafes غاصة بطالبي الراحة من الأشغال ، فحدثت مشاجرة على قرب من قهوة cafe (القزاز) في آخر شارع البنات نحو الساعة الواحدة بعد الظهر ، حيث يوجد ازدحام كثير من الكراسي و « الطراييزات » وأشخاص منهم القائم والقاعد ، وحدث أن سكر مالطى^(٢٧) يقال إنه خادم المستر كوكين - المعتمد البريطاني في الإسكندرية - وأخذ عربة وطاف بها من محل إلى محل يشرب ويتتره ،

(٢٤) الثورة العربية دكتور أحمد عبد الرحيم ص ٩٦

(٢٥) محمد عبده ، تأليف العقاد ص ١٥٢ - ١٥٣

(٢٦) مذكرات الشيخ محمد عبده ص ٩٨٢ وما بعدها

(٢٧) رجل من جزيرة مالطا

إلى أن وصل إلى خجارة Bar أحد مواطنيه ، فطلب منه سائق العربى المصرى الأجرة ، فأعطاه المالىطى قرشاً واحداً أى ما يعادل بنس ، ثم دخل الخجارة ، فجمعه المصرى فتناول المالىطى سكينة كانت معلقة وطمع بها المصرى فيسقط لا حراك به ، فاجتمع بعض المصريين من أقارب القتل ، وأرادوا القبض على القاتل فجاء خباز يونانى ، ومعه بعض مواطنيه بالسكاكين ، والطبنجات ، وأخلوا بضربون يميناً وشمالاً ، ومضى نحو نصف ساعة قبل أن تصل عساكر البوليس ، ثم تطور التراع بين المسلمين والمسيحيين - من الأجانب - حيث أخذ الأروام والمالىطيون يطلقون الرصاص من أعلى البيوت مع أنهم كانوا فى مأمن ، وعند ذلك أخذ المسلمون يقدون من كل جانب مسلحين بالعصى وبعضهم بأرجل الكرامى المهشمة ، واشتدت المعركة بين الفريقين وتطورت إلى مذبحة ، وفى هذه الحالة رأى المستر كوكسن نازلاً من بيت أحد المالىطين ا فبعه المشاجرون ، وضربوه ضرباً خفيفاً ، ففر ونجا منهم ، وصحبه عمر لطفى محافظ الإسكندرية فى الطريق .

وبعد فترة قصيرة شاهد أحد المواطنين محافظ الإسكندرية واقفاً فى أحد الميادين . فسأله :

كيف تكون هنا والمذابح على خطوات منك ؟ فقال له المحافظ :

هذا لا يعنى ا فقال له المواطن : لم لم تحضر بلباسك الرسمى على حصانك شاهراً سيفك مع خمسين من العساكر وبذلك كان الأمر قد انتهى ؟ فأجابه المحافظ : انصرف ليس هذا من شأنك وهل أنت محافظ البلد . . . ١٤

ويقول الشيخ محمد عبده :

وفى يوم هذه الحادثة (مذبحة الإسكندرية) توجهت إلى السراى قرأت موظفها فى جلد عظيم مما حدث ا وكانوا يبالغون فى رواية الأخبار ، ويضحكون من عهد عراى بالمحافظة على الأمن العام . وبعد ١٢ يوماً من هذا التاريخ كنت بالإسكندرية ، فسمعت الناس أجمع يقولون : إن المحافظ عمر لطفى صمغ بانتشار

الفتنة إلى هذا الحد ، ولم يصدر أمراً بتوقيفها ، ولم يطلب مساعدة العسكر النظامي مع أنهم كانوا على مقربة منه ، وقد أجمع الناس على أن عمله هذا موعز به من الخديو (٢٨) . . .

• • •

لقد أصبح الطريق الآن ممهداً أمام الأدميرال بوشامب سيمور قائد الأسطول البريطاني ليضرب ضربه ، ويطلق مدافعه . . . ماذا يتظر بعد ذلك إذا كان الخديو نفسه على رأس المؤامرة ، وهو لئى الخديو نفسه يدبر هذه المذبحة لتكون ذريعة لتدخله ؟ إن الاستعمار ليس في حاجة إلى حجة لفرض تقوده ، وعنده من الوسائل والفرائع ما يكفي لتدمير العالم الإسلامى كله . فكيف إذا كان الحاكم نفسه هو الذى يدعو لاحتلال بلده ، وقهر شعبه ، وتطبيق المشاقق للأحرار والوطنيين فيه ؟

اضرب ضربتك يا بوشامب !

لقد تحقق الآن حلم ريتشارد (٢٩) . . .

فصر قلعة الإسلام وقلبه التابض أصبحت في متناول اليد . . .

• • •

وفي الحادى عشر من شهر يولية ١٨٨٢ م أصدر الأدميرال بوشامب سيمور أوامره إلى البوارج والسفن بإطلاق النيران على مدينة الإسكندرية . . وقال اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية في تفسير هذا الإجراء إنه لما يضعف مركز دولة كبرى تقوم قوتها في أساسها على الأساطيل أن تقوم بمظاهرة بحرية

(٢٨) مذكرات الشيخ محمد عبده ص ١٨٨

(٢٩) ريتشارد اللقب بقلب الأسد أحد ملوك الإنجليز الذين قاموا بحتى الحملات الصليبية

دون (وخز) (٣٠) ما . . . ! وما لبث النار أن شبت في المدينة الآمنة وأخذ أهلها في الرحيل عنها .

وتقهقر الجيش إلى داخل البلاد استعداداً للمعركة الفاصلة ، وتأهباً للتوقعات المحتملة ، وفي هذا الوقت أرسل عراي إلى الخديو قطاراً خاصاً ليعود به إلى القاهرة فرفض وانحاز إلى الإنجليز ، وأعلن دخوله في حمايتهم ، ثم أصدر منشوراً بعزل أحمد عراي من منصبه كوزير للجهادية ، وطالب الجيش بمخالفته ، وعصيان أوامره .

وفي يوم ٦ رمضان سنة ١٢٩٩ هـ الموافق ٢٢ يوليو ١٨٨٢ م انعقد مؤتمر عام في ديوان الداخلية ، وبعد تلاوة الأوراق المعروضة للتذاكر في شأنها صدرت فتوى شرعية من الشيخ العارف بالله شيخ الإسلام والمسلمين السيد محمد عlish ، وشيخ الإسلام الشيخ حسن العدوى ، والشيخ الخلفاوى وغيرهم من العلماء ، بمروق الخديو توفيق باشا من الدين مروق السهم من الرمية لخيانته لدينه ووطنه ، وانحيازه لعدو بلاده ، وقر قرار المجلس بما يأتي (٣١) :

بعد تلاوة الأوامر الصادرة من الخديو توفيق باشا أولاً وآخرها وفيها الأمر الصادر إلى أحمد عراي باشا ، وتلاوة منشورات عراي باشا وهو : هل وجود الخديو في الإسكندرية هو ونظاره (ووزراؤه) تحت عساكر الإنجليز يقضى عدم تنفيذ أوامره أولاً ؟ وإذا صدرت له أوامر من الخديو هل يعمل بها أو لا ؟

وقد رأينا أن وجود العساكر الإنجليزية في الإسكندرية ، وبقاء مراكيم الحرية في السواحل المصرية ، ووقوف عراي باشا لمداغة العدو ، كل ذلك يوجب بقاء الباشا المشار إليه (عراي) في نظارة الجهادية والبحرية مداوماً على قيادة العسكر ، وعدم انفصاله عن تلك الوظيفة .

(٣٠) الثورة العربية ص ١٠٩

(٣١) مذكرات عراي ج ١ ص ١٩٦ ١٩٧

ورأينا توقيف أوامر الخديو ، وما يصدر من نظاره (وزرائه) الموجودين معه في الإسكندرية ، كيف كانت ، ولأى جهة من الجهات ، وعدم تنفيذها حيث إن الخديو خرج عن قواعد الدين الخفيف ، والقانون المنيف . . .

• • •

وقد كتب « عراي » إلى المشرق البريطاني مستر بلنت Blant وكان في لندن بما يأتي :

« لتأكد إنجلترا أن أول بندقة تطلقها على مصر ، ستحرر مصر من كل المعاهدات ، والاتفاقيات ، ومعنى هذا انتهاء الديون ، والمراقبة ، ستدمر قنواتنا ، ونقطع مواصلاتنا ، ونستغل الحماسة الدينية الإسلامية لإعلان الجهاد للمقدس في سوريا ، والجزيرة العربية ، والهند . وقد ألقى الخطب بهذا المعنى في مساجد دمشق ، وتم الاتفاق مع الزعماء المدنيين في كل بلد في سائر أنحاء العالم الإسلامي ، وإني أحذر مراراً وتكراراً من أن أول ضربة توجهها إنجلترا أو حليفاتها إلى مصر ، ستسبب في إراقة الدماء أنهاراً في طول آسيا وأفريقيا وعرضها . وقد أرسل المستر بلنت فحوى هذه الرسالة إلى المستر جلادستون وأئذره بأن التهديدات التي تحتويها ستنفذ ، وبأن المصريين سيحرقون مدنها كما أحرق الروس موسكو ١٨١٢ م ، وأنهم سيقطعون قناتهم كما عمل الهولنديون في عام ١٦٧٤ وأضاف مستر بلنت قائلاً :

« إن هذا هو القرار البائس الأخير الذي اتخذه شعب يرى نفسه مهدداً بمخضوعه مرة أخرى للعبودية » (٣٢) . . .

• • •

وفي الوقت الذي استعد فيه المصريون للحرب قدر طاقتهم ، بعد أن بدأت إنجلترا أعمالها العدوانية ، اشتعلت نار الحماسة في العالم الإسلامي وقد كتب قنصل

(٣٢) الثورة العربية ص ١٠٧ - ١٠٨

إنجلترا في دمشق إلى حكومته في ١٤ يولية ، لاشك أن ثمة انجهاً لدى بعض الأشخاص ، ومعظمهم من المسلمين إلى اعتناق آراء الحزب الوطني المصري ، وإني أعتقد ، أن مبعوثين عن هذا الحزب ، قد أرسلوا إلى دمشق وإلى أجزاء أخرى من سوريا ، وفلسطين بقصد نشر أفكاره (٣٣) .

وفي ٢٠ يولية كتب والى سوريا إلى السلطات التركية : لقد أخبرتكم تلفزيونياً ببياج المخاطر التي تترتب على أحداث مصر ، ولكي يستميل عراي باشا سكان البلاد المجاورة ، فإنه لا ينفك يرسل العلماء إلى دمشق . وقد ذهب معظم العلماء ، وأعيان المدينة وكثير من الناس لمقابلة مندوبه ، وهو أحد مشايخ الأزهر واجتمعوا به في المسجد الأموي ، فعرض عليهم الفتوى التي تدعم مركز عراي وقال لهم : إن مصر باب الكعبة وبيضة الإسلام ، وإن هدف الإنجليز هو القضاء على الإسلام ، والاستيلاء على الكعبة الشريفة ، وإن على كل مسلم أن يهب لمساعدة عراي بقوته وأمواله ، طالما أن هذه الحالة تعيد إلى الأذهان قصة العرب في أسبانيا ، وقد كان لهذه الخطبة أثر بالغ (٣٤) .

كما أرسل عراي خطابات إلى والى الحجاز ، وإلى أشخاص آخرين يذكر لهم ، أنه قد حمل السلاح للدفاع عن بلاده ، ويطلب منهم الدعاء في صلواتهم بأن يكلل الله جهوده بالنصر ، كما أرسل مندوبيه إلى الهند ، وتونس ، وطرابلس ، لاكتساب عطف الرأي العام الإسلامي والإعداد للجهاد .

وقد أرسل القنصل البريطاني في « غاليبولي » إلى حكومته في ٢٨ يولية يؤكد أن شعور المسلمين معادٍ للأوروبيين بعد ضرب الإسكندرية ، وأرسل القنصل البريطاني في « سالونيك » يذكر : أن السكان بوجه عام يعتبرون عراي بطل الإسلام ، وفي الأناضول اشتعلت المشاعر ضد إنجلترا ، بل إن بعض السكان هنا صرحوا : بأنهم

(٣٣) المصدر السابق ص ١١٠

(٣٤) المصدر السابق ص ١١٠

سيقيمون من المسيحيين إذا احتل الإنجليز مصر، وبدأ الناس في الآستانة في التطوع للانضمام إلى الجيش المصري . ولم يكن هياج الرأي العام الإسلامي في الهند بأقل منه في العالم العربي ، وفي البلاد الإسلامية الأخرى (٣٥) .

أما في مصر . . فقد وقف الشعب كله وراء الثورة بساندها ويؤازرها . لم يكن في الخزانة العامة في ذلك الوقت قرش واحد . . فقد هرب المستشار المالي الإنجليزي بجميع الأموال ونقلها إلى الأسطول البريطاني . !

« ولما أعلن ذلك جاءت الأمة على اختلاف مذاهبها ، ونخلها بالمال ، والفلال والخيل ، والجمال والأبقار والحواميس ، والأغنام ، والفاكهة ، والخضراوات حتى حطب الحريق . . ومن الأهالي من تبرع بنصف ما يمتلكه ، ومنهم من خرج عن جميع مقتنياته ، ومنهم من عرض أولاده للدفاع عن الوطن لعدم قدرته على الدفاع بنفسه ، وكان نبهاء الأمة يعقدون الاجتماعات ، ويلقون الخطب الحماسية ويؤججون في القلوب روح الجهاد والتضحية . وقد قال الشيخ علي المليجي في خطبة له (٣٦) :

قد مرت بنا في الزمن السالف أيام غير صافية العيش للمسلم ، وما ذلك إلا لعدم الحماية الإسلامية في حكمه الذين كانوا كالليل المظلم ! إذ كانوا منهمكين في ميادين حظهم الدنيوي ، غافلين عن الدين ، وقد ظهرت الآن البشائر بعز المسلمين وسطوتهم ، حيث قد اعتدل حكام الوقت أيدهم الله بالأخذ في أسباب قوة الدين ، ورد ما ضاع من شوكتهم ، باذلين الهمة في التوصل إلى ما يبعد الأمة عن التشويش ، ولما يكونون به آمنين ، إذ قد شرع رئيس المجاهدين أحمد عرابي المؤيد بنصر من عند ربه في المدافعة عن حوزة الأمة ، وباع نفسه وجيشه للجهاد في سبيل الله . .

(٣٥) الثورة العرابية ص ١١١ - ١١٢

(٣٦) مذكرات عرابي ص ٢٠٢ وما بعدها .

وقال الشيخ محمود إبراهيم^(٣٧) : « إن الإنجليز قد طاشت عقولهم وعيبت بصائرهم ، فقد قابلوا نحيبتنا بخداع ، وفشوا أكتافنا لغدر أضمره ليوم الخداع ، ونحن لما جئنا عليه من محاسن الإيمان ، وفيما لهم بعقد الذمة والأمان ، فعاملناهم بالحسنى ، وجبرنا ما كان فيهم ضعفاً ووهناً ، فلما صحت أبدانهم ، وعمرت أوطانهم ، لم يقنعوا بذلك ، بل طلبوا التصرف فيما تصرف للمالك ، فنسأل الله أن يكون سعادة أحمد عرابى باشا هو المشار إليه في حديث : « يبعث الله على رأس كل مائة سنة ، من يحدد لهذه الأمة أمر دينها » فإن البشائر دلت عليه ليمزق البغاة شر ممزق ، ويحیی المنسوب والمفروض للدين الموفق ، ونموت البدع التي اسود القطر بظلماتها ، ونخفي بلاء الظلم بأرجائها . . . »

وفي خطبة أخرى للشيخ محمد أبى الفضل يقول :

« مصرنا هذه قد كادت أن تكون دار حرب ، لا دار سلام ، فقد أهين فيها الوطنى وعظم اللثام ، فطفوا وبغوا وحق عليهم المثل السائر . وعلى الباغي تدور الدوائر . »

وهكذا . . . كانت المقالات الضافية الذبول ، والخطب المسهية ، والقصائد تتلى وتلقى في مجالس المصريين من غير انقطاع تحمياً للأمة ، وتشجيعاً لها^(٣٨) .

• • •

ماذا كان الموقف الذى اتخذته الخليفة العثمانى من هذه الحرب ؟ ومن هذا العنوان الأثيم على مصر ؟

لقد حاول فى أول الأمر اتخاذ موقف حيادى من الخلاف بين عرابى والخديو ، وأوفد لهذا الغرض بعثة لتقصى الحقائق برئاسة المشير « درويش » الذى لم يجد مستمكاً يدين به عرابى ، إلا أن بعض الروايات ذكرت أن الخديو قدم إليه

(٣٧) مذكرات عرابى ص ٢٠٤

(٣٨) مذكرات الشيخ محمد عبد ص ١٨١

خمسين ألفاً من الجنيات رشوة؟ كما قدم إليه هدايا أخرى بخمسة وعشرين ألفاً . . . وأرسلت خطابات مجهولة إلى السلطان تهدده بالخلع إذا أعلن عراي عاصياً ، واعتزمت بعض الدوائر في « الآستانة » على توقيع أى اتفاق مع إنجلترا ضد الثورة ، لما فيه من نمد للمشاعر الدينية ، وخطب أحد العلماء في الآستانة فأعلن أنه إذا ما طلب عراي مالا جمعناه له . وإذا ما طلب جنداً فنحمل جميعاً السلاح لمساعدته . . . إنه رجل مبعوث من قبل الله . . . ومقيض له أن يحمينا نحن الأتراك المؤمنين . . . كما أرسل ثلاثون من كبار العلماء في الأزهر بياناً إلى السلطان يقولون فيه : إنهم إنما يطيعون أوامره وأوامر الحديو طالما أنها متمشية مع أحكام الشرع ، وأنهم سيعتبرون عراي قائداً عاماً للقوات المصرية طالما أن أعماله تتماشى مع الشريعة ، وأن المصريين لن يلقوا السلاح إلا إذا انسحب الإنجليز من الإسكندرية ، وأنهم مجمعون جميعاً على خلع توفيق (٣٩) .

إلا أن اللورد دفرين السفير البريطاني في عاصمة الخلافة استطاع في النهاية استصدار قرار من الصدر الأعظم يعلن فيه عصبان عراي وخروجه على دولة الخلافة ، وتلقف الإنجليز هذا القرار فطبعوا منه الملايين ووزعوه على كل من يعرف القراءة . . . وهنا أصبح عراي يحارب في ثلاث جهات لاق جية واحدة . جية ضد الإنجليز ، وجية ضد السلطان ، وجية ضد الحديو الذى قال له أحد الضباط إن الإسكندرية ستحرق . فقال له : فلتحرق المدينة جميعها ، ولا يبقى فيها طوبة على طوبة ، حرب بحرب . . . كل ذلك يقع على رأس عراي ، وعلى رموس الفلاحين أولاد الكلب . . . ١ ١ ١ (٤٠) .

...

وبدأت عقارب الحيانة ترحف على ضمير الشعب ! كانت خطة عراي تعتمد

(٣٩) مذكرات عراي ص ٥٠٢

(٤٠) مذكرات محمد عبده ص ١٩٣

على حشد قواته في « كفر الدوار » على الطريق بين الإسكندرية والقاهرة وترك الجبهة الشرقية (منطقة قناة السويس) اعتماداً على وعود « فردناند ديلبس »^(٤١) الذي أكد لعرابي احترام الإنجليز لحياة قناة السويس ، واستحالة دخول أساطيلهم منها . لكن متى كان الإنجليز يحترمون القوانين وعدوانهم على مصر خرق فاضح لها ! ثم إن « فردناند » لا يقدر حتى إذا أراد احترام هذه القوانين ومنع الإنجليز من خرقها وإحراقها ، ثم إن دولته (أى فرنسا) ضالعة أيضاً في هذا العدوان ، وقد فكرت فيه قبل بريطانيا ، كما أعلن ذلك « غمبتا » رئيس وزرائها ، ثم . . أليس فردناند هذا هو الذى أرسل إلى البابا - بعد افتتاح القناة - يشره بأن الطريق إلى قلب العالم الإسلامى أصبح ممهداً وميسراً . . ؟

لقد خدع فردناند عرابي وخانه ، وفتحت القناة أمام الأساطيل لتحل « بورسعيد » و « الإسماعيلية » ، ثم بدأت القوات بعد ذلك تتجه إلى القاهرة . وقد نقل عرابي قواته بسرعة إلى هذه الجبهة . وعسكر بيمشيه عند « التل الكبير » استعداداً للمعركة الفاصلة . فعادت الحياة من جديد لتلعب دورها بأيدٍ مصرية . . محمد سلطان باشا . . الذى كان رئيساً لمجلس النواب الذى دعت إليه الثورة ، بخون الوطن والثورة ، ويتولى نيابة عن الإنجليز تسيط همة المجاهدين في المعركة ، والضابط « على خنفس » بخون وطنه فيطلع العدو على خطة الدفاع ، ومواطن الضعف في هذه الخطة .

لقد أحبط بعرابي من كل ناحية . . أطبق ليل الخيانة على جو المعركة فلم يعد إنسان يعرف إنساناً على حقيقته ، فترجل القارس الشجاع عن جواده وعاد إلى القاهرة ليحاكم هو ومن معه !

لقد سقط علم مصر . . سقطت قلعة نازلة من قلاع الإسلام بعد سقوط الجزائر ، وتونس ، وأمسكت بريطانيا بالنيل من قدميه حتى تقطع رأسه . . !

(٤١) صاحب مشروع شق قناة السويس ، ورئيس مجلس إدارة شركتها . وهو فرنس الجبهة

وترحف إلى السودان الذى ظهر فيه للمهدى شاهراً سيفه !
كانت مصر والسودان بلداً واحداً كما قدمتا . وما يصيب أحدهما ينعكس على
البلد الآخر تلقائياً وطبيعياً ، كان الحكم فى البلدين واحداً ، والظلم الواقع عليهما
مشتركاً ، والشعور بالثورة والسخط ضد هذا الحكم عاماً . . . لم يكن السودان
بعيداً عن الأحداث التى وقعت فى مصر ، بل شارك فيها مشاركة إيجابية . . .
كانت الفرقة السودانية فى الجيش المصرى فى مقدمة الفرق الثائرة ، وكان قائدها
(الأميرالائى عبدالعال حلمى) أحد زعماء الثورة . وكان الضباط السودانيون فى
هذه ظهيراً لحركة المهدي فى القاهرة ، وكانوا يمدونه بالمعلومات والأخبار
الهامية . . . وللثيوق الذين نفوا إلى السودان من القاهرة ، وكانوا فى جملتهم من
الوطنيين أصحاب الاتجاهات الإصلاحية ؟ ماذا كان دورهم فى الحركة المهدية ؟
وهل يعقل وجود هؤلاء فى الخرطوم دون أن يساهموا بآرائهم فى الثورة ، وفى إعلان
الغضب والسخط على حكومتهم فى القاهرة ؟ . . . إن قصة الشيخ أحمد العوام
لأنصح دليل على مساهمة هؤلاء فى الثورة ، واشتراكهم الفعلى فى الحركة ،
ووقوفهم وراء المهدي بساندونه بكل قوة .

لقد كانت المعركة واحدة فى كل من الخرطوم والقاهرة ، ولهذا كان الضباط
والجنود المصريون يهزمون بأسلحتهم إلى معسكر المهدية وقد أعده غوردون ضابطين
مصريين كبيرين فى الخرطوم قبل سقوطها فى يد الثورة^(١٢١)

وفى الباب التالى - الخاص بتحليل أصول الحركة المهدية - سنرى إلى أى مدى
كان التشابه والتطابق بين الثورتين السودانية والمصرية ، وأن الثورة العرابية لعبت
دوراً بارزاً فى الثورة المهدية ، فهى التى أعطت المهدي الإشارة ، وفتحت أمامه
الطريق إلى الثورة ، وهتفت بالسودانيين أن هيا . . . وحطوا قيود الذل
والعبودية . . .

(١٢١) العروة الوثقى ص ٢٠٨

الفصل الرابع

كيف صار مهدياً

وأقبل اليوم الموعود ..

لقد أعلن محمد أحمد أنه المهدي المنتظر ، وإمام الزمان الذي نجب طاعته على جميع البشر^(١).

إنه ليوم فصل دخل فيه السودان مرحلة جديدة في تاريخه الحديث ودبت الحياة والعافية في جسمه الجريح ، وانتفض المارد المصفد يحطم قيوده في وجه الظلم القبيح !

«وحيث إن الأمر قد ، والمهدية المنتظرة أرادها الله ، واختارها للعبد الفقير محمد بن السيد عبد الله . فيجب التسليم والانتقياد لأمر الله ورسوله .. وبعد هذا البيان فالؤمن يؤمن ويصدق ، لأن المؤمنين هم الذين يؤمنون بالغيب ، ولا يتظرون لأخبار آخر ، فمن انتظر بعد ذلك ، فقد استوجب العقوبة ، لأنه ~~مكذب~~ قال : من شك في مهديته فقد كفر بالله ورسوله ..»^(٢)

• • •

لقد صدق أهل السودان - خاصتهم وعامتهم - دعوة المهدي ، وأقبل عليه

(١) بدأ المهدي إعلان دعوته في غرة شعبان سنة ١٢٩٨ هـ - الموافق ٢٩ يونية ١٨٨١ م انظر في هذا

مهدي لله . ص ٤٠ ، كجغرافية وتاريخ السودان ص ٦٥٠

(٢) منشورات المهديّة ص ٢٧

الزعماء وشيوخ القبائل مبايعين قاتلين : نبايعك على المهديّة وإن لم تكن مهدياً ..
نبايعك على قتال الحكومة وخلع طاعتها .. ! (٣)

لقد كان لظروف البلاد السياسيّة والاقتصاديّة أعظم الأثر في تقبل الدعوة (٤)
وفي الإقبال على التأييد والمبايعة ، وفي مؤازرة محمد أحمد بقوة ، ومادام أنه المهدي
المستظر الذي يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً فإن طاعته تصبح فرضاً .
ومن لم يبايع طوعاً بايع كرها ..

وماذا يتقص محمد أحمد حتى يكون مهدياً ؟ إنه عالم وصالح وشريف
النسب ، كما أنه أفرق الثنايا على خده خال ، وبينه وبين الرسول ﷺ شبه في
الاسم وشبه في البسم ، إن كل شيء مهياً لهذه الرسالة والناس في كل مكان
يطالبون بالحق والعدالة . لقد آن الأوان بعد الفوت .. وظهر في السودان - بعد
حيرة وترقب - إمام الوقت .. !
لقد بدأت المعركة ..

بدأها المهدي بالخطب والبيانات والإنذارات والرسائل ، والحرب أولها كلام كما
يقول الأوائل .. ، وقد كان كلام المهدي - في كل ما كتب - مفعماً بالشعور
والعاطفة ، والإيمان والحركة ، والبساطة والقوة .

وبنظرة متأنية إلى تلك المنشورات والبيانات التي كتبها المهدي ، يمكن تحليل
عناصر فكره ، وإرجاعها إلى المصدر الأصلي .

وفيما يلي من الصفحات تلخيص واف لبعض هذه البيانات والرسائل ،
وستعودنا قراءتها - في نهاية الأمر - إلى المنبع الذي نهلت منه في الأصول
والمصادر .

• • •

(٣) السردك بين يدي غوردون وكشر ص ٨٥

(٤) انظر الفصل الخامس بالجهاد والثورة .

« من العبد المقتدر إلى الله . . محمد المهدي بن عبد الله إلى أحبائه في الله المؤمنين
بأله وكتابه . . أما بعد (٥) .

فلا يخفى تغير الزمن ، وترك السن ، ولا يرضى بذلك ذوو الإيمان والفطن . . بل
أحق أن يترك لذلك الأوطار والوطن لإقامة الدين والسن .

ثم أحبائي كما أراد الله في أزاله وقضائه ، تفضل على عبده الحقير الدليل بالخلافة
الكبرى من الله ورسوله ، وأخبرني سيد الوجود عليه السلام بأن المهدي المنتظر ، وخلفي
عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسية مراراً بحضرة الخلفاء الأربعة ،
والأقطاب ، والحضر عليه السلام ، وأيدني تعالى بالملائكة المقربين ، وبالأولياء . .
الأحياء والميتين من لدن آدم إلى زماننا هذا . وكذلك (بالمؤمنين) (٦) من الجن
والإنس وفي ساحة الحرب يحضر معهم سيد الوجود عليه السلام بذاته الكريمة وكذلك
الخلفاء الأربعة ، والأقطاب ، والحضر عليه السلام ، وأعطاني سيف النصر من
حضرت عليه السلام ، وأعلمت أنه لا ينصر علىّ معه أحد ولو كان الثقلين الجن والإنس .
ثم أخبرني سيد الوجود عليه السلام ، بأن الله جعل على المهدي علامة وهي الخال على
خدي الأيمن ، وكذلك جعل لي علامة أخرى . . تخرج راية من نور وتكون معي في
حالة الحرب . يحملها عزرائيل عليه السلام . فيثبت بها أصحابي ويترل الرعب في
قلوب أعدائي فلا يلقاني أحد بعداوة إلا خلله الله .

وحيث إن الأمر لله ، والمهدية أرادها الله لعبده الحقير الدليل محمد المهدي بن
عبد الله ، فيجب التصديق بذلك لإرادة الله ، وقد أجمع الخلف والسلف (على)
تفويض (٧) العلم لله . فعلمه سبحانه لا يتقيد بضبط القوانين ، ولا بعلوم المفتنين ،

(٥) منشورات الإمام المهدي ج ١ ص ١١ وما بعدها ، انظر أيضاً :

منشورات المهديّة ص ٢٣ وما بعدها .

(٦) في الأصل المؤمنون وهو خطأ لغوي كما هو ظاهر .

(٧) في الأصل : اجتمع الخلف والسلف في تفويض

بل يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده علم الكتاب قال تعالى : (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء)^(٨) (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو)^(٩) (يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم)^(١٠) .

وقد قال الشيخ محي الدين بن العربي في تفسيره^(١١) : وعلم المهدي كعلم الساعة والساعة لا يعلم وقت مجئها على الحقيقة إلا الله .. .

وقال الشيخ أحمد بن إدريس^(١٢) : كذبت في المهدي أربع عشرة نسخة من نسخ أهل الله . ثم قال : يخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونها .

هذا وقد أخبرني سيد الوجود عليه السلام : بأن من شك في مهديك فقد كفر بالله ورسوله - كررها عليه السلام ثلاث مرات - وجميع ما أخبرتكم به من خلافتي على المهدي . فقد أخبرني به سيد الوجود عليه السلام بقظة في حال الصحة خالياً من الموانع الشرعية ، لا بنوم ، ولا ينجب ، ولاسكر ، ولاجنون . بل متصفاً بصفات العقل . أقهر أثر رسول الله عليه السلام بالأمر فيها أمر به ، والنهي عما نهى عنه .

وإني لا أعلم^(١٣) بهذا الأمر حتى هجم على من الله ورسوله من غير استحقاق لي بذلك . فأمره مطاع وهو يفعل ما يشاء ويختار وحكم نبيه عليه السلام كحكمه ، ولما

(٨) سورة البقرة : الآية رقم ٢٥٥ -

(٩) سورة الأنعام - ٥٩

(١٠) سورة آل عمران الآية ٧٤ .

(١١) يقصد بضمير ابن عربي كتاب الفتوحات للكية . لا هذا التفسير الذي ينسب إلى ابن عربي .

انظر في هذا للوضوح : الفتوحات للكية

(١٢) هو الشيخ أحمد بن إدريس القاسمي مؤسس الطريقة الإدريسية المنتشرة في السودان ومصر وبلاد

الصومال واليمن ، وكان صاحب مدرسة بالإضافة إلى كونه شيخ طريفة ، وكان من تلاميذه السيد محمد بن علي

النوسي الكبير وقد مات في بلدة جسر سنة ١٨٣٧ م .

انظر كتاب سعادة السندي بسيرة الإمام المهدي ص ١٠٢

(١٣) منشورات الإمام المهدي ج ١ ص ٦ ، وانظر أيضاً

منشورات المهدي ص ٢١

تكاثر من البشائر والأوامر في هذا المعنى امتثلت قياماً بأمر الله ، وقد كنت قبل ذلك (ساعياً)^(١٤) في إحياء الدين وتقوم السنة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ولما حصل بأحبابي من الله ورسوله أمر الخلافة الكبرى . أمرني سيد الوجود ﷺ بالهجرة إلى «ماسة» يجبل قدير ، وأمرني أن أكتب بها جميع المكلفين أمراً عاماً^(١٥) . فكتبنا بذلك الأمراء ومشايخ الدين . فانكر الأشقياء ، وصدق الصديقون الذين لا يبالون بمالقوه في الله من المكروه وما فاتهم من المحبوب المشئى بل ناظرون إلى وعده سبحانه وتعالى بقوله : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين)^(١٦)

والهجرة المذكورة بالدين واجبة كتاباً وستة : قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحبيكم)^(١٧) . وقال ﷺ : من لم يدينه من أرض إلى أرض استوجب الجنة . . وإلى غير ذلك من الآيات والاحاديث . فإذا فهمت ذلك فقد أمرنا جميع المكلفين بالهجرة إلينا لأجل الجهاد في سبيل الله ، وإلى أقرب بلد منكم لقوله تعالى : (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار)^(١٨) فمن تخلف عن ذلك دخل في وعيد قوله تعالى : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم) .. الآية .. وقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقموا إلى الأرض)^(١٩) فإذا فهمت ذلك فلهلوا للجهاد في سبيله ،

(١٤) في الأصل ساع وهو خطا .

(١٥) منشورات الإمام المهدي ج ١ ص ١٦٢

وانظر في هذا أيضاً : منشورات الهدية ص ٢٤

(١٦) سورة القصص الآية رقم ٨٣

(١٧) سورة الأنفال الآية رقم ٢٤

(١٨) سورة التوبة الآية رقم ١٢٣

(١٩) سورة التوبة رقم ٢٤ والآية رقم ٣٨

ولا تخافوا من أحد غير الله ، لأن الخوف من غير الله يعدم الإيمان بالله والعباد بالله ..
 من (أجل)^(٢٠) ذلك قال الله تعالى : (فلاتخشوا الناس واتخشوا الله)^(٢١) فمن
 كان مهتماً بإيمانه . حريصاً على أمر ربه ، أجاب الدعوة ، واجتمع مع من ينصر
 دينه ..

وليكن معلومكم : أنى من نسل رسول الله ﷺ . فأبى حتى من جهة أبيه
 وأمه ، وأبى كذلك من جهة أمها ، وأبوها عباس . والعلم لله .. إن لى نسبة إلى
 الحسين ، وهذه المعاني الحسان تكفى لمن أدركه الله بالإيمان فلا عبرة لمن يراها ، ولم
 يصدق بها ..

« ومن البشائر التي حصلت^(٢٢) لنا .. أنه حصلت لنا حضرة نبوية
 (حضرها)^(٢٣) « الفقيه عيسى »^(٢٤) فأتى النبي ﷺ ومجلس معي ، ويقول للأخ
 المذكور : شيخك هو المهدي . فيقول « الفقيه عيسى » : إلى مؤمن بذلك فيقول
 ﷺ : من لم يصدق بمهديته فقد كفر بالله ورسوله . قالها ثلاث مرات . ثم يقول له
 الأخ المذكور : ياسيدي يا رسول الله : الناس من العلماء يستهزئون بنا ، والخشية
 أيضاً من الترك ، فيقول ﷺ : والله . والله . إن قوى يقينكم إن أشرتم بأدنى قشة
 تنقضي حوائجكم ..

(٢٠) غير موجودة في الأصل

(٢١) سورة المائدة الآية رقم ٤٤

(٢٢) من رسالة إلى الشيخ محمد الطيب البصر

انظر منشورات للهدية ص ١٢ وما بعدها .

(٢٣) في الأصل حاضر عليا

(٢٤) في الأصل : « الفقه » وهي كلمة شائعة في مصر والسودان . وتعني الرجل المشغل بشئون الدين

وينطقونها في مصر « الفنى » وتنطق على سبيل الأولاد القرآن .

ثم يقول الشيخ عبد الله^(٢٥) : ياسيدى الشيخ الطيب^(٢٦) نحن مصدقون بمهدية شيخنا ، والناس ليسوا بمصدقين . فيقول الشيخ الطيب : إن شيخك حين ولادته (عرفه)^(٢٧) أهل الباطن والحقيقة فلما أتم الأربعين يوماً عرفه النباتات والحيادات أنه المهدي . ثم يقول الشيخ الطيب : الطريقة فيها الدل والانكار ، وقلة الطعام ، وقلة الشراب ، والصبر وزيارة السادات^(٢٨) . فلك مئة . والمهدية أيضا فيها مئة : الحرب ، والحزم ، والعزم ، والتوكل ، والاعتماد على الله واتفاق القول . فهذه الاثنا عشر لم تجتمع إلا لك ..

ثم يأتي الشيخ الترم^(٢٩) ويلقى على السلام بالمهدية ويقول : اجتهد في قومك على أن يكون الكبير أباً ، والصغير ولداً ، والمساوى أخاً . ثم يأتي جدنا الشيخ البصير^(٣٠) ، ويلقى على السلام بالمهدية . ويتكلم بكلام فهمنا منه أنه قال لى : أشدد الحزام على مئة النبي العدنان . ثم يأتي الشيخ القرشي^(٣١) . فيلقى على السلام بالمهدية ، ويتكلم بكلام المفهوم منه أنه يقول : كن ذاكرًا ، ولن معك سائراً . فيقول الشيخ عبد الله : ياسيدى : الناس منكرون مهديّة شيخنا . فيقول : إن النبي ﷺ أعلمني قبل مماتي بأن شيخك هو المهدي بذاته .

ثم يأتي النبي ﷺ ، ومعه الشيخ عبد القادر الجيلاني لاباً جبةً وعليها سيور . فيقول الشيخ عبد الله : ياسيدى يا رسول الله : الناس منكرون الجبة ، ويتعففون

(٢٥) المقصود عبد الله الصابني . خليفة للمهدي

(٢٦) كان أحد الأولياء السردانيين . وكان ميتاً

(٢٧) في الأصل : عرفوه

(٢٨) المراد بالسلطات هنا اللوق من الأولياء

(٢٩) كان رجلاً صالحاً .. وكان ميتاً أيضاً .

(٣٠) كان الشيخ البصير ميتاً أيضاً ، وكان شيخاً من شيوخ الطريقة السمانية

(٣١) الشيخ القرشي .. كان آخر شيوخ المهدي في الطريقة ، وقد بشره قبل موته بالمهدية وكان لكلامه تأثير كبير في فكر المهدي كما سيأتي .

عنها . أفهى سنة واردة عنك أم لا ؟ .

فيقول **عليه السلام** : وذات الإنسان رقع . في رأسه رقعة زرقاء وباطن شفتيه رقعة حمراء ، وأسنانه رقعة بيضاء ، وأظفاره رقعة صفراء . ولولا أني خشيت عليك أن تكون مفتشاً لأربتك جيب الخلقاء الأربعة ^(٣٢) .

وهذه الليلة المذكورة التي حصلت فيها هذه الحضرة المباركة غرة شعبان ^(٣٣) ليلة الأربعاء .

ثم تلى « علينا » ^(٣٤) جميع الأحوال إلى دخول مكة ، ومنازعة أهلها ، ومبايعة الضعفاء والغرياء أولاً . ثم مبايعة الشريف ملك مكة ، وجميع أشرافها ... ،

• • •

لقد اخترنا هذه النماذج الوافية من بيانات المهدي وكتبه ، وهي بيانات وشواهد كافية للتعرف على منافع إلهامه . ونحدد لنا - بوضوح ودقة - أصول دعوته ومصادر فكره .

لقد بدأ محمد أحمد دعوته بإعلان أنه « المهدي المنتظر » ، وأن الرسول **ﷺ** أجلسه مراراً على كرسيه بعد أن استخلفه نيابة عنه وأن الخلقاء الأربعة . « أبو بكر وعمر وعثمان وعلي » حضروا « حفل » تنصيبه « مهدياً منتظراً » وكذلك الحضر عليه السلام والأقطاب والأولياء من لدن آدم - حتى يومنا هذا - شهدوا هذا المؤتمر .. إلخ .. إلخ ..

من أين جاء المهدي بهذا الكلام .. ؟

• • •

لقد نشأ محمد أحمد أو « مهدي السودان » صوفيًا كما قدمنا ، وهو لم يكن في صوفيته هذه شخصاً عادياً بل كان شيخ طريقة وقطباً ، وللصوفية عالم مليء

(٣٤) في الأصل . لا

(٣٢) انظر منشورات للهيئة ص ١٧

(٣٣) وهي الليلة التي أعلن فيها مبعده .

بالخوارق والكرامات ، وهى كرامات وخوارق لا يعرفها إلا أهل الكشف والمقامات وعلى سبيل المثال ، لا الحصر تضرب هذه الأمثلة من الشواهد والحكايات .

أولاً - رؤية الله :

فقد ذكر محي الدين بن عربي عن شيخه أبي مدين : أن بعض الفقهاء من الصوفية رأى الله تعالى فى المنام وهو يقول لأبى مدين : مادة سرك بسنا نورى ، وقلبك موضع عظمى وجبروتى^(٣٥) .

ويقول أبو الحسن الشاذلى : قيل لى يا على ابط فقلت يارب أقلنى من الناس . فقيل ازل . فقد أصبحناك السلامة^(٣٦) .

وقد ذكر الإمام الغزلى أن التجافى عن دار الغرور ، والإتابة إلى دار الخلود ، والإقبال على الله بكنهه للهمة ، يزيل عن عين القلب كل حجاب ، ويفتح من دون البصرة كل باب وهناك يشهد العبد الرب شهوداً عينياً ، ومحيط بذاته إحاطة كاملة^(٣٧) ..

ثانياً - رؤية الأنبياء والملائكة :

وفى ذلك يقول الشيخ أبو العباس المرسى : كنت مع الشيخ أبى الحسن الشاذلى بالقيروان . وكان شهر رمضان ، وكانت ليلة الجمعة ، وكانت ليلة السابع والعشرين ، فذهبت إلى الجامع مع الشيخ أبى الحسن . فلما دخل الجامع وأحرم رأيت الأولياء يتساقطون عليه تساقط الذباب على العسل . فلما أصبحنا وخرجنا من

(٣٥) الكتاب الطكارى لـ محي الدين بن عربي ، ص ١٤٦ ط القاهرة - سنة ١٣٨٩ هـ

(٣٦) أبو الحسن الشاذلى - تأليف الإمام الأكبر عبد الحليم محمود - ص ٣٥ ط القاهرة ١٣٨٧ هـ

(٣٧) الحياة الروحية فى الإسلام - تأليف الدكتور محمد مصطفى حلى - ص ١٢٨ القاهرة -

١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م .

الجامع قال الشيخ : ما كانت البارحة إلا ليلة عظيمة وكانت ليلة القدر ، ورأيت رسول الله ﷺ يقول : يا علي طهر ثيابك من الدنس ، تحفظ بحد الله في كل نفس (٣٨) . كما حكى عن بعض الأولياء أنه حضر مجلس فقيه ، فروى ذلك الفقيه حديثاً . فقال الولي : هذا باطل . فقال الفقيه : ومن أين لك هذا ؟ قال : هذا النبي ﷺ واقف على رأسك يقول : إني لم أقل هذا الحديث وكشف للفقهاء فرآه (٣٩) !

كما ذكر السيوطي عن جماعة من الأولياء أنهم رأوا النبي ﷺ . بقظة حياً بعد وفاته ، وأن بعضهم التقى ببيدنا إبراهيم الخليل وسأله الدعاء لأهل مصر . فدعا لهم .. فخرج الله عنهم (٤٠)

وقد ألف السيوطي في ذلك رسالة سماها «توير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك» (٤١) ، ذكر في مقدمتها «أن طائفة من أهل العصر ممن لا قدم له في العلم بالغوا في إنكار ذلك ، والتعجب منه ، وادعوا أنه مستحيل فألفت هذه الكراسة في ذلك ، وسميتها «توير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك» وتمسكت بالحديث الصحيح الوارد في ذلك ..»

وقد ذكر الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المقصد من الضلال» (٤٢) قال :

(٣٨) أبو الحسن الشافعي ص ٧

(٣٩) الخواص للفتاوى - الإمام جلال الدين السيوطي ج ٢ ص ٤٤٦ - ط القاهرة - ١٣٧٨ هـ

(٤٠) الخواص للفتاوى - تأليف الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي - ج ٢ ص ٤٤٣ الطبعة الثالثة - القاهرة - ١٣٨٧ هـ

(٤١) للصدر السابق ص ٤٣٧

(٤٢) المقصد من الضلال . تحقيق الدكتور رشيد أحمد ص ٥٠ ط هيئة الأوقاف بمحكمة البنجاب

١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م -

ويقول الشيخ العلامة محمد حبيب الله تطبيقاً على أقوال الطهارة في الأحاديث التي رواها الإمامان البخاري ومسلم . وهي : «من رأى في المنام فقد رأى الحق» . و... «من رأى في المنام فبرأى في البهظة ولا يشغل الشيطان» . و... «من رأى في المنام فقد رأى فإن الشيطان لا يشغل» . يقول الشيخ : والذي يحصل -

إنني لما فرغت من العلوم . أقبلت بهمي على طريق الصوفية ، والقدر الذي أذكره لبضع به . إنني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون بطريق الله خاصة وأن سيرهم وسيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء لغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم لم يحدوا إلى ذلك ميلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس من وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ، حتى إنهم وهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتا ، ويقتبسون منهم فوائد . ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق .

« من كلام المحققين هو : أن رؤيته عليه السلام في البقعة بمكة شرعا وعقلا ، ولا وجه لإنكاره .. ومن حتى الصواب في هذا اللقائهم والجلال السيوطي ، وكتب فيه رسالة سماها « تنوير الحالك في إمكان رؤية النبي وللك » أمثال فيها يذكر الأدلة والوقائع التي وقعت لأكابر السلف من ذلك .. وقال في آخرها : فحصل من مجموع ذلك أن النبي ﷺ حيٌ بجسده وروحه ، وأنه يصرف ويسير حيث شاء في أقطار الأرض وهو بيت التي كان عليها ليل ولذاته ، وأنه لم يتبدل من شيء ، وأنه غيب عن الأبصار كما غيب الملائكة مع كونهم أحياء بأجسادهم . فإذا أراد الله رفع الحجاب عن أراد إكرامه برؤيته رآه على هيئة التي هو عليها ولا داعي إلى التخصيص برؤيته للمال .

ولد مثل العلامة المحقق شهاب الدين أحمد بن حجر الميمني : هل يمكن رؤية النبي ﷺ في البقعة ؟ فأجاب : أنكر ذلك جماعة وجوزوه آخرون . وهو الحق .. ١

ولست على ذلك بصحيح : « من رأى في المنام غيري في البقعة ، وسعته إرادة ذلك يوم القيامة جيد . لأن أمه كلها سواه يوم القيامة . وقد تقررت أن ماجاز للأنبياء معجزة جاز للأولياء كرامة .. انظر في هذا للوضع :

(١) صحيح الإمام البخاري ج ٩ ص ٤٢ طبعة الشعب القاهرة

(ب) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذرى ج ٢ ص ١٦٠ طبعة وزارة الأوقاف الكويتية .

(ج) زاد للمسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم . تأليف الشيخ محمد حبيب الله ج ٢ ص ١٧٩ وما بعدها مطبعة الحلبي . القاهرة .

(د) الحلوى للفتاوى . للسيوطي ج ٢ ص ٤٣٧ - وكتاب الفتاوى الحنفية لابن حجر

ثالثاً - وجود الخضر عليه السلام :

كما يعتقد الصوفية بوجود الخضر عليه السلام ، وبقائه حياً إلى ذلك اليوم ، وقد رووا في ذلك العديد من الحكايات والقصص ، وهم - أى الصوفية - يلتقون به ويستشيرونه ، ويحضر مجالسهم ويستقبلونه .

وفى ذلك يقول ابن عري :

« اعلم أيها الولي الحميم أيديك الله أنه قد اتفق لنا في شأنه أمر عجيب (١٣) » ..

ثم يذكر قصة خلاف وقع بينه ، وبين شيخه أبى العباس الرسى .. فلما ترك منزل الشيخ قابله في الطريق رجل وقال له : صدق شيخك فيما ذكر لك . قال ابن عري : فرجعت من حينى إلى الشيخ لأعرفه بما جرى . فلما دخلت عليه قال لى : يا أبا عبد الله أأحتاج معك إذا ذكرت مسألة يقف فيها خاطرك عن قبولها إلى الخضر يتعرض لك ويقول لك : صدق فلاناً فيما ذكره لك (١٤) .

ويقول ابن عري : إنه اجمع بالخضر ، وإنه - أى الخضر - ألبس خرقه الصوفية ، وإن ذلك تم تجاه الحجر الأسود في مكة ، وإنه أخذ عليه العهد بالتسليم لمقامات الشيوخ « أهل التصريف » وإنه كان متردداً في لبس الخرقه من الخضر حتى أعلمه الخضر أنه لبسها من يد رسول الله ﷺ بالمدينة المشرفة منع الفيض الأتم (١٥) .

(١٣) الفتوحات للكية ج ١ ص ١٨٥ وما بعدها - ط دار الكتب العربية - القاهرة

(١٤) الفتوحات للكية ج ١ الفصل الخامس والعشرون .

(١٥) الكتاب الطحاوى ص ٣٠٤

وقد اختلف في شأن الخضر اختلافاً كبيراً . ويرى أكثر المفسرين : أن الخضر هو الشخص الذى أمر موسى بالتوجه إليه ، والذى أشارت إليه الآية الكريمة « فى سورة الكهف » : « فرجداً عبداً من عبادة آتياه رحمة من عندنا وعلماؤه من لدنا علماً » لكن اختلفوا في كونه نبياً أو ولياً .

والدليل على ذلك فى تفسير الجلالين ما يأتى : « فرجداً عبداً من عبادة » - هو الخضر - آتياه رحمة من عندنا -

رابعاً- قطب الزمان والغوث (١٦) :

ولم يكف الصوفية بكل هذا . فقد ذهبوا إلى القول بأنه .. لما ذهبت النبوة ، وكان الأنبياء أوتاد الأرض ، أخلف الله مكانهم أربعين رجلاً من أمة محمد ﷺ ، يقال لهم الأبدال ، لا يموت الرجل منهم حتى يخلف الله مكانه رجلاً آخر ، وهم أوتاد الأرض . يسبق بهم الفيث وبتصر بهم على الأعداء (١٧) ، وقد ألف العلامة جلال الدين السيوطي في ذلك رسالة قال في مقدمتها : بلغني عن بعض من لا علم عنده إنكار ما اشتهر عن السادة الأولياء ، من أن لهم أبدالا ، وتقباء ، ونجباء ، وأوتاداً . وأقطاباً . وقد وردت الآثار والأحاديث بإثبات ذلك . فجتمعت في هذا الجزء لتستفاد ، ولا يعول على إنكار أهل العناد ، وسحيت ، الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد ، والنجباء والأبدال ، (١٨) .

فإذا ولي الله من ولاء النظر في العالم ، وهو المعبر عنه بالقطب أو الغوث ، أو واحد الزمان ، أو الخليفة . نصب الله له في حضرة المثال سريراً أقعده عليه فإذا نصب الله له ذلك السرير . خلع عليه جميع الأسماء التي يطلبها العالم وتطلبه وأمر الله العالم بيبعته على السمع والطاعة . فالسعيد من عرف إمام وقته قبايعه ، وحكمه في نفسه ، وأهله وماله (١٩) ..

- «نبوة في قوله ، وولاية في قول آخر» وعليه أكثر العلماء وعلمنا من لدنا علماء أي من قبلنا . وجاء في لصفحة للمفسر المحرم محمد فريد وجدي مايلي : فوجدنا عبداً من عبادنا هو الخضر آتينا النبوة من عندنا . وعلمنا مما يختص بنا علماً هو علم الغيب .

«وحكى السهيلي عن قوم أنه كان ملكاً من الملائكة ، وليس من بني آدم» .

(١٦) انظر فتح الباري ج ٧ ص ٢٤٤ ط الحلبي . القاهرة .

(١٧) الفتوحات المكية ج ٣ ص ٣٣٧

(١٨) الحاوي للفتاوى ج ٢ ص ١١٧

(١٩) الفتوحات المكية ج ٣ ص ١٣٧ وما بعدها .

وبما أن للقطب ، أو الفؤث ، هذه الهيمنة والسلطة على العالم ، فلا عجب أن يتحدث إلى الموتى ، ويتكلم إليهم ، ويتبادل الرأي والمشورة معهم ، وقد ذكر الشيرازي : أن السيد البدوي كان يخرج يده من قبره ويصافحه ! وأنه - أي الشيرازي - كان يتحدث إليه ويكلمه^(٥٠) ، وأن الشيخ الشناوي كان يذهب إليه في قبره ويستشيره^(٥١) بل إن بعض الأولياء أحيا الموتى وأعاد إليهم الحركة^(٥٢) وكان بعضهم يتحدث إلى الحيوان والنبات بلغة فصيحة^(٥٣) .

• • •

ولم يكن الصوفية بهذا القدر من الكرامات والخوارق . بل ذهب بعضهم إلى القول إن ما يكتبه في جميع تأليفه ليس عن روية وفكر ، وإنما هو من نقت روعى على يد « ملك الإلهام » من إملاء إلهي ، وإلقاء رباني ، أو نقت روحاني . وفي ذلك يقول ابن عربي :

إن ترتيب الفتوحات المكية لم يكن لي من اختيار ، ولا عن نظر فكري ، وإنما الحق يملئ لنا على لسان ملك الإلهام جميع ما نسطره^(٥٤) .

(٥٠) صوفيات - تأليف الشيخ عبد الرحمن الزكي - ص ٥٥ ط القاهرة

(٥١) السيد أحمد البدوي - شيخ وطريقة - تأليف الدكتور سعيد عاشور - ص ١٦٨ القاهرة -

١٣٨٧ هـ .

(٥٢) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية - تأليف الشيخ عبد الرموف للتاوي - ص ١١ ط

القاهرة - ١٩٣٨ م

(٥٣) انظر في هذا الموضوع :

بحث اللوامب العلية في شرح الحكم العطائية - تحقيق الدكتور عبد الجلم محمود ص ١٣٨

الجزء الثاني - ط القاهرة

الكتاب الطكارى لابن عربي ص ١٢٨

(٥٤) انظر في هذا :

كتاب الفتوحات المكية ج ١ ص ٢٨٧

وكتاب - عبي الدين بن عربي - تأليف عبد الحليظ فرغل - ص ١٦٩ - القاهرة ١٣٨٨ هـ

ويقول أيضاً : إني رأيت رسول الله ﷺ في مبشرة - رؤيا - أريتها في العشر
الأواخر من المحرم سنة ٦٢٧ هـ بدمشق ويده كتاب فقال : هذا كتاب فصوص
الحكم . خطه ، واخرج به إلى الناس (٥٥) .

كما ذكر ابن الفارض أنه كان يتلقى الأوامر من النبي ﷺ بتسمية قصائده التي
ينشئها . ومن ذلك أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام فسأله - أي النبي - عن
قصيدته الثانية الكبرى بم سماها ؟ فأجابه ابن الفارض بأنه سماها «لوائح الجنان
وروائح الجنان» فقال له النبي : لا . بل سماها «نظم السلوك» .. ومن هنا كان
الاسم عنواناً على هذه القصيدة . اشتهرت به (٥٦) .

بل إننا نجد رجلاً مجدداً كالشيخ أحمد شاه ولي الله الدهلوي يقول عن سبب
تأليفه كتاب «حجة الله البالغة» : بينما أنا جالس ذات يوم بعد صلاة العصر
متوجهاً إلى الله .. إذ ظهرت روح النبي ﷺ وغشيتني من فوق بشيء خيل إلى أنه
ثوب ألقى علي ، ونفت في روحي في تلك الحالة أنه إشارة إلى نوع بيان للدين ،
ووجدت عند ذلك في صدرى نوراً لم يزل ينضج كل حين ثم ألهمني ربي بعد زمان
أن مما كتبه على القلم العلى . أن انهض يوماً لهذا الأمر الجلى .. ثم رأيت الإمامين
الحسن والحسين في مقام - رضى الله عنهما - وأنا يومئذ بمكة كأنهما أعطاني قلماً
وقالا لي : هذا قلم جدنا رسول الله ﷺ . ولطالما أحدث نفسي أن أدون به رسالة
تكون تبصرة للمبتدئ ، وتذكرة للنتهى (٥٧) ..

■ ■ ■

لقد وعى المهدي السوداني كل هذا المفاهيم واختزنها في عقله ، كما أننا لانتبعد

(٥٥) المخطوطات - ص ١٢٥

(٥٦) ابن الفارض - دكتور محمد مصطفى حلي - ص ١٩٦

(٥٧) حجة الله البالغة - ج ١ ص ٣ تأليف الشيخ أحمد شاه ولي الله الدهلوي .

ط المطبعة للنيرة - القاهرة - ١٣٥٧ هـ

أن يكون شاهد بعض هذه الأشياء وعاينها بنفسه ، فقد كانت حياته الصوفية غنية بالتجارب الروحية . وكان تاريخه مفعماً بتلك الصور والإشراقات الجميلة . كما كان - على غير عادة أقرانه - مهتماً بالمسائل والقضايا العامة . فاستطاع بذكائه وشفافيته المزج بين الظاهر والحقيقة ، أو بين الواقع والأمنية ، وكان لكل ذلك أثره في تكوين شخصيته ، وفي صياغة فكره وآرائه ، كما ظهر ذلك كله واضحاً في بياناته ومنشوراته وكتبه .

وقد كان لمحيي الدين بن عري تأثيره الكبير في فكر المهدي ، فقد كانت كتبه ومؤلفاته من أكثر الكتب رواجاً وانتشاراً ، وكانت « الفتوحات المكية » من أشد هذه الكتب تأثيراً ، وقد ذكر ابن عري في الجزء الثالث من هذا الكتاب : أن لله خليفة يخرج وقد امتلأت الأرض جوراً وظلماً ، فيملؤها قطعاً وعدلاً ، ولولم يبق من الدنيا إلا يوم واحد طول الله ذلك اليوم حتى يلى هذا الخليفة من عترة رسول الله ﷺ . من ولد فاطمة . يواطى (يشبه) اسمه اسم رسول الله ﷺ .. وأن لهذا الخليفة ملكاً يسدده من حيث لا يراه .. أى ملك الإلهام . سيد الظلم وأهله .. وبقيم الدين .. ينفخ الروح في الإسلام . يعز الإسلام بعد ذله ويدعو إلى الله بالسيف . فمن أبى قتل ، ومن نازعه خذل (٥٨) .

يرفع المذاهب من الأرض .. أعداؤه مقلدة العلماء لما يرونه من الحكم بخلاف ماذهب إليه أنعمهم .. يبايعه العارفون بالله من أهل الحقائق عن شهود وكشف بتعريف إلهي .. فشهادته خير الشهداء . وأمنائه أفضل الأمناء ، يعرف من الله (علم الغيب) قدر ما يحتاج إليه مرتبه لأنه خليفة مدد .. يفهم منطق الحيوان . ويسرى عدله على الإنس والجان من أسرار علم وزرائه الذين استوزرهم الله له . وهم أى الوزراء أو الخلفاء على أقدام رجال من الصحابة صدقوا ما عاهدوا الله

(٥٨) الفتوحات المكية ج ٣ ص ٣٢٧

(٥٩) الفتوحات المكية ج ٣ ص ٣٢٧

عليه (٦٠) .. وهو أعلم الخلق بالله .. ولا يكون في زمانه ، ولا بعد زمانه أعلم بالله منه .. فهو القرآن أخوان .. كما أن السيف والمهدي أخوان (٦١) .. والمهدي حجة الله على أهل زمانه .. وهي درجة الأنبياء ..

والمهدي لا يخطئ .. لأنه يقفو أثر رسول الله ﷺ (٦٢) والإمام - نبي المهدي - يتبعن عليه علم ما يكون بطريق التزويل الإلهي ، كما يحكم المهدي إلا بما يلقى إليه الملك من عند الله الذي بعثه إليه ليسده ، فرفضاً بذلك أنه معصوم .. ولا يخطئ ولا معنى للمعصوم في الحكم إلا أنه يخطئ (٦٣) .

• • •

من أين جاء ابن عري بهذا الكلام وما مصدره ؟
لقد كان ابن عري عالماً متبحراً في آراء الشيعة فنقل آراءهم وأقوالهم إلى التصوف (٦٤) ، وضمن كتابه «الفتوحات المكية» كثيراً من آرائهم وأقوالهم في صورة صوفية ، وقد تأثر المهدي السوداني بآرائه إلى درجة بعيدة ، وكان كتاب «الفتوحات المكية» من أهم هذه الكتب عنده ، فالإمام عند الشيعة له صلة روحية بالله من جنس التي للأنبياء والرسل . وقد كتب الحسن بن العباسي المعروف بأبي الرضا يقول : جعلت فداك . أخبرني ما الفرق بين الرسول والإمام والنبي ؟ فكتب أو قال : الفرق بين الرسول والنبي والإمام أن الرسول هو الذي يتزل عليه جبريل فيراه ، ويسمع كلامه ، ويتزل عليه الوحي ، والنبي ربما سمع الكلام ،

(٦٠) الفتوحات المكية ج ٣ ص ٣٢٨

(٦١) الفتوحات المكية ج ٣ ص ٣٢٩

(٦٢) الفتوحات المكية ج ٣ ص ٣٣٢

(٦٣) الفتوحات المكية ج ٣ ص ٣٣٥

(٦٤) فحوى الإسلام ج ٣ ص ٢٤٥ ، منشورات المهدية ص ٢١

وربما رأى الشخص ولم يسمع ، والإمام هو الذي يسمع الكلام ولا يرى الشخص ، (٦٥)

«والأئمة هم أركان الأرض أن نعيد بأهلها .. وحجته البالغة على من فوق الأرض أو تحت الثرى .. والملائكة تدخل بيوت الأئمة .. وتأتيهم بالأخبار .. وهم - أى الأئمة - معصومون من الذنوب صغيرها وكبيرها . فلا يقع منهم ذنب أصلاً لا عمداً ولا نسياناً ولا سهواً ولا غير ذلك (٦٦) ،

«والإمام بهذا المعنى يوحى إليه .. والله أعظم من أن يترك الأرض بغير إمام عادل . إن زاد المؤمنون شيئاً ردهم ، وإن نقصوا شيئاً أعمه لهم وهو حجة على عبادهم ، ولا تبقى الأرض بغير إمام .. ولو لم يبق في الأرض إلا رجلان لكان أحدهما الحجة (٦٧) .. »

فالشبهة إذاً .. أول من كتبوا عن الإمامة كتابة علمية . وهم أصحاب الفضل الأول في هذا النوع من العلم المسمى بالإمامة .. هم الذين أنشأوه ، وهم الذين اختاروا مصطلحاته ، وقسموا أبوابه . وعينوا مجاله ورسموا حدوده .

وقد اتفق علماء السنة والشيعة على وجوب قيام الإمامة ، وإن اختلفوا في كيفية قيامها . فالنظرة السنية للخلافة نظرة تابعة من الأمة التي يجب عليها اختيار أصلح الناس لقيادتها ، أما النظرة الشيعية فتختلف عن النظرة السنية حول من يجب عليه اختيار هذا الإمام .. فهم - أى الشيعة - يرون أن فعل «اللفظ» واجب على الله - وهي فكرة اعتزالية متفرعة من القول بوجوب فعل الصلاح على الله - وقد نقل الرازي عن أحد أئمتهم أنه قال : اعلم أن مرادنا من اللفظ الأمر الذي علم الله

(٦٥) ففى الإسلام ج ٣ ص ٢١٣ .. وقد نقل ابن عرى هذه الصورة إلى التصوف وكساها إطاراً صوفياً خاصاً .. انظر «الفتوحات» ج ١ ص ١٥٠

(٦٦) ظهر الإسلام ج ٤ ص ١١٠ - الطبعة الخامسة - ١٣٨٨ هـ

(٦٧) ظهر الإسلام ج ٤ ص ١١٣

تعالى من حال المكلف أنه متى وجد ذلك الأمر كان حاله إلى قبول الطاعات والاحتراز عن المعاصي ، أقرب مما إذا لم يوجد ذلك الأمر^(٦٨) ..

ومن ثم فإنهم كونوا القياس الذي يستدلون به على مذهبهم على هذا النحو : قالوا : بما أن فعل اللطف واجب على الله ، وبما أن الإمامة لطف فإقامتها إذن واجب على الله ، لأننا نحتاج إلى الإمام ليكون لطفاً ، في أداء الواجبات العقلية ، والاجتناب عن القبائح العقلية ، وليكون حافظاً للدين عن نقصان والزيادة ، وهذا مذهب الإمامة الاثنا عشرية ، وقد شرح الإمامية مذهبهم هذا فقالوا : إن الشريعة التي جاء بها النبي ﷺ لا بد من وصولها صحيحة إلى الناس بعد عهده ليحصل عليهم التكليف ، فلا بد لها من حافظ يحفظها من التغيير ..

ولابد أن يكون هذا الحافظ والناقل غير جائر عليه الخطأ ، وإلا كان وصول الشريعة غير متحقق وقالوا : إن إثبات الإمامة باختيار الناس يفضي إلى الفتنة ، إذ يحدث الاختلاف بين الناس لأسباب كثيرة ، لرفع أسباب هذا التراع إنما يكون بتعيين الإمام من الله . أي بنص الشرع لطفاً من الله بعباده ورحمة بهم^(٦٩) . وقالوا : إن الإمام يجب أن يكون واجب العصمة ، وأن يكون أفضل الخلق كلهم .. وأن يكون أعلم الأمة وأنه لو جاز الخطأ على الإمام .. لثبت أن الله أمر باتباع الذنب ، أو المعصية وهو غير جائر على الله^(٧٠) ..

إن الإمام نائب عن الله ، ونائب عن رسوله . ونياية الغير لا تحصل إلا بإذن ذلك الغير ، فوجب ألا يثبت الإمام إلا بنص الله ، ونص رسوله ، فثبت أن الإمامة لا تثبت إلا بالنص^(٧١) ..

• • •

(٦٨) كتاب الأربعين في أصول الدين - القصر الرازي - ص ٤٢٩ طبعة جيل آباد الدكن - ١٣٥٣ هـ

(٦٩) النظريات الإسلامية السياسية ص ١٥٠

(٧٠) المصدر السابق ص ١٥٠

(٧١) المصدر السابق ص ١٥٠

لقد أخذ ابن عري عن الشيعة هذه الأفكار والمفاهيم ، ونقلها المهدي عن ابن عري في فترة مبكرة من التلق والتعليم .

ومما بلغت النظر في هذا المقام - كما يقول المرحوم عباس العقاد :
« إن دعوته الأولى كانت باسم الإمام الثاني عشر الذي يتظره الشيعة الإمامية (٧٢) » .

ولم يكن في السودان يومئذ من يشك في اقتراب الساعة لواء الحال ، وشيوع الفساد ، واجترأ المفسدين على الجهر بمنكراتهم ، حتى اجترأ بعضهم على زفاف الغلمان بدلا من النساء ، ووافق ذلك سخطاً عاماً بين العامة وكبار الرعماء والتجار الذين أرهقهم الضرائب والمظالم ، فتبأت العقول للإصغاء إلى دعاة الإصلاح أو دعاة التغيير كيف كان (٧٣) ..

• • •

لقد كان السودان يعيش هذه الفترة من تاريخه في ترقب وانتظار ، كان الجميع يتوقعون ظهور المهدي المتظر الذي يملأ الدنيا عدلاً ، بعد أن ملئت جوراً وظلماً ، وكانت أحاديث أهل الورع والتقى تلوح حول « حجة الزمان » و « إمام القرن » و « خليفة النبي » الذي لابد أن يظهر قريباً ، ولم يكن السودان ، وشعب السودان وحدهما في هذا الانتظار والترقب ، كان العالم الإسلامي كله مهيباً لقدوم هذا البطل المتقد ، وكان المسلمون الأفارقة يستعجلون ظهوره . لإنقاذهم من الخطر الاستعماري المهدق ، وكانت أول حركة من هذا النوع حركة مهدي السخال المعروف بالحاج عمر ، وقد عبر الحاج عمر السودان الأوسط فقطفر بكثير من الأتباع وكرم كمهدي جديد ، وما إن وافق سنة ١٨٤١ م حتى بلغ جبال « فوتا جالون »

(٧٢) الإسلام في القرن العشرين ص ١٣٩

(٧٣) انظر في هذا الموضع الفصل الخامس بالجهاد والثورة

حيث سلح أتباعه ، وبدأ سلسلة من الحملات في نشر تعاليم الدعوة^(٧٦) وكان الناس يعتقدون في « السيد محمد المهدي بن السيد محمد علي النوسي الكبير » أنه المهدي المنتظر^(٧٧) .

وقد فكر « لويس رين » Louis rinn أن هدف النسبة كان الإمامة ، أو تشيد صرح الدولة الإسلامية^(٧٨) . كما ترك لنا الشيخ المصلح « عثمان دنفديو » مخطوطة^(٧٩) تحدث فيها عن « المهدي المنتظر » وعلاماته وقرب ظهوره قال في مقدمتها : « ما أردت بتأليف هذا الكتاب إلا قرار بأنني أنا الإمام المهدي ، وإنما أردت بتأليفه أن أبين لكم بأن الله تعالى قد من على بموافقة أحوال أحوال الإمام المهدي التي أوردها العلماء في كتبهم امتثالا لقوله تعالى : « وأما بنعمة ربك فحدث » . وللإمام المهدي رضى الله عنه أوصاف أسرار لا يتصف بها مثل ، وأين دوى الزبور من نعمة الزبور ! »^(٨٠) يؤكد ذلك تلك الرسالة - التي بعث بها « حياة بن سعيد » - حفيد عثمان دنفديو - إلى المهدي السوداني رداً على رسالته : « إلى سيدنا »^(٨١) ، وقلوبنا ، ووصلتنا إلى ربنا خليفة رب العالمين ، ونجل سيد الأولين والآخرين ، ورحمة الله المهداة للمؤمنين ، والحجة الواضحة على المنكرين ، وسيفه المسلول على الكافرين ، ناشر العدل بأقصى البلاد على رغم أنوف الظالمين . الذي نتظره كانتظار « شوال » من الصائمين . سيدنا محمد المهدي المنتظر بن السيد عبد الله الحسني ، وابن ساداتنا إلى سيد الوجود ﷺ ، وعليهم

(٧٦) الدعوة إلى الإسلام - توماس أرنولد - ص ٣٦٧

(٧٧) النسبة دين ودولة ص ٧١

(٧٨) النسبة دين ودولة ص ١٨

(٧٩) مخطوطة خاصة بمكتبة الدكتور حسن عيسى عبد الظاهر مبعوث الأزهر إلى ليبيا واسم هذه

المخطوطة « التبا الملاي إلى أحوال الإمام المهدي »

(٨٠) منشورات المهدي ص ٣٣٤

أبرك نحية ، ، وأطيب سلام بغاية رضا ، وأعلى إكرام .

وبعد : فقد وصلنا كتابك الكريم ، وتلقيناه بأسرع ترحيب ، وأيقن تسليم ،
وقد روبنا به بعد ظمأ ، وحيينا به بعد موت ، واهتدينا به بعد ضلالة ، وقفنا على
بصيرة قائلين بلسان الحال والمقال . الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا
أن هدانا الله .

لقد جثت ياسيدي بالحق ، وزهقت الباطل ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه
الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ..
وقد أثبتنا بما سيجعل الله به كلمة الذين كفروا السفلى . وكلمة الله هي العليا ،
فأما بك مخلصين ومتقادين لك ظاهراً وباطناً ، وبايعناك على كتاب الله وسنة رسوله
ﷺ . معتقلين بل موقنين أن يدك الكريمة تآبئة عن يدي الحق التي فوق أيدينا إن
شاء الله تعالى ، وتركنا كل ما نحن فيه توفية لما عاهدتنا ، راغبين القرب منك في
الدنيا والآخرة ولو كنا ظالمين . وإن متنا على بيعتك . فله الحمد والشكر على هذه
النعمة التي لا نعمة فوقها ، وقد رأينا الكرامات وصدقنا ووقفنا على الآيات ،
واعتبرنا وأطعنا الأمر ..

وما نحن ياسيدي مهاجرون إلى الله ورسوله وإليك ، وأرجو أن نكون أنصار
الله ورسوله وأنصارك . سيما أنت اليوم قبلة الله ومسجده الحرام ، فتوجهنا إليك
إبراهيمي الوجوه ، وما خرجت من بيتي وأهلي ياسيدي وخليفة ربي إلا لكثرة ذنوبي
وسوء أخلاقي . راجياً لرحمة ربي ، قاصداً بيته ، وقبر نبيه ، لعله يرحمته الواسعة
أن يغشني بلفائفه ، وما أفتت في ذى البلاد إلا لا انتظارك وقد بايعتك أنا ووالدي
وجميع من تعلق بي قبل ظهورك الحسى ، وشأننا مع شأنك معلوم عندنا .. سيما قد
أوصانا جدنا الشيخ عثمان بن فودي - رضى الله عنه - بالهجرة إليك ونصرتك
ومعيتك إذا ظهرت ، ونحن معك قلباً وقالباً في نصر دين الله ، وسنة رسول الله إن
شاء الله . إلا من سبق عليه القول والعياذ بالله .

لكن ذلك كله لم يكن كافياً لمبايعة محمد أحمد كـ «مهدي» إن الأمر لم يكن بهذه السهولة في مجتمع تتعدد فيه القيادات ، وتتصارع فيه الزعامات ويحتل فيه شيوخ الطرق مكانة الرسل والأنبياء ! إن رد الفعل سيكون عنيفاً ، وسيكون رد هذا الفعل عند الحكومة قوياً ومحيفاً .

ماذا يفعل محمد أحمد ؟ إنه حتى الآن لم يقل إنه مهدي . كل ما يعرفه الناس عنه أنه صالح وتقي ، وأنه في ورعه وصلاحه ولي ، ولكن مقام المهدي شيء آخر . إن مقامها مقام النبي . فمن يجرؤ على ادعاء هذا المقام النبوي ؟

في هذا الوقت مات شيخه القرشي ، وكان من كلامه قبل أن يموت : أن من يجتث أولادى ، ويبنى قبة على ضريحى سيكون هو المهدي^(٧٩) !

والتقطها محمد أحمد بأذنيه المرهفتين ، وإحساسه المرهف .. سيكون هو المهدي .. ؟ ولم لا أكون أنا ؟ إن أمر بناء القبة سهل ، وختان الأولاد أكثر سهولة . وما دام ثمن ذلك هو المهدي فلم لا أكون أنا المهدي !

وشرع على الفور في بناء القبة . وبينما هو على هذا الحال إذ وقد عليه رجل فارع القامة ، قوى الجسم ، وماكاد نظره يقع على محمد أحمد ، حتى سقط مغشياً عليه ، ولم يبق من غشيته إلا بعد ساعة ، ولما أفاق عاد فنظر إلى محمد أحمد وتقدم لمصافحته ، فأغشى عليه مرة ثانية ! ثم أفاق وتقدم إلى محمد أحمد حبواً على الأرض ! فأخذ يده وشرع في تقيلها وهو يرتعد ويكي . فقال له محمد أحمد : من أنت يارجل وما شأنك ؟ قال :

ياسيدى أنا عبد الله بن محمد ود نورشين . من قبيلة التعايشة وقد سمعت بصلاحك في دار الغرب فجئت لأخذ الطريقة عنك ، وكان لى أب صالح من أهل الكشف ، وقد قال لى قبل وفاته : إنك ستقابل المهدي وتكون وزيره ! وقد أخبرنى بعلامات المهدي وصفاته ، فلما وقع نظرى عليك رأيت فيك العلامات التى

(٧٩) انظر في هذا الموضوع : الفصل الخامس بنشأة المهدي وثقافته .

أخبرني بها والذي بعينها ! فابتهج قلبي لرؤية مهدي الله ، وخليفة رسوله ، ومن شدة الفرح الذي شملني أصابني الذي رأيته (٨٠) !

لقد صادف هذا الكلام قبولاً وهوى في نفس محمد أحمد ، وجاء مطابقاً تماماً لما ذكره الشيخ القرشي ، وكان لهذا الإيجاء - أو هذه التخليبة - التي قام بها التعابشي دور خطير في إعلان « ظهور » المهدي !

كان التعابشي رجلاً قوى الشخصية ، وكان طموحه لا يقف عند غاية ، وقد حال دون بلوغه أربه نشأته المتواضعة ، وسمعة الرديئة ، وقد وجد في محمد أحمد فرصة السانحة ، وشعر بما يشعر به السودانيون من سخط وثورة ، ومن تطلعهم إلى منتقذ يخلصهم من تلك للآسى الدامية المحزنة ، فاستعمل معه ذكاءه وحرفته (٨١) ، وزكى في نفسه الإحساس والشعور بأنه المنتقذ الذي تنتظره الأمة .

وقد حفظ له المهدي هذا الجميل وكافأه ، فجعل منه خليفة وقائد جيوشه واعتبر الناس بشخصه علواناً على شخصه هو وكرامته ، ووجه إلى الناس هذا البيان يحذرهم فيه من الخوض في عمله وتصرفه :

إن الخليفة عبد الله هو مني ، وأنا منه ، وقد أشار إليه سيد الوجود ﷺ . فتأدبوا معه كتأديبكم معي ، وسلموا له ظاهراً وباطناً كسليمكم لي ، وصدقوه في قوله ، ولا تنهوه في فعله ، فجميع ما يفعله بأمر النبي ﷺ ، أو يأذن منا ، لا بمجرد اجتهد منه ، بل هو نائب عنه في تنفيذ أمره ﷺ ، والقضاء بإشارته فإن فعله بكم ، وحكمه فيكم بحسب ذلك .

(٨٠) انظر في هذا الموضوع :

جغرافية وتاريخ السودان من ٦٤٣ وما بعدها

مهدي الله ص ٢٣

(٨١) كان التعابشي يشتغل بالتنجيم والسحر . وسوف تناول شخصيته بالتفصيل في الفصل الخامس

بفكر الحركة المهدية .

واعلموا يقيناً أن قضاءه فيكم ، هو قضاء رسول الله ﷺ كما قال تعالى :
 (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم
 ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ^(٨٢)) . فمن كان في صدره حرج
 لأجل حكمة ، فذلك لعدم إيمانه وخروجه من الدين بسبب غفلة ، وذلك بشاهد
 قوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في
 أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ^(٨٣)) ولا شك في شرك من استنكف عن
 حكم الله ، وحكم رسوله ، سيما بقوله ﷺ « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك
 الحق » مع أنه خليفة الصديق ، وأول المصدقين في المهديّة فانظروا لمكانة الصديق
 عند الله ورسوله بنص القرآن ، وانظروا لمن أورثه الله مكانة الصديق بالباطن -
 بالخضر عليه السلام - فهو - مدد مؤيد من الله ورسوله ، ويد من أيادي الله
 لنصرة دينه بإشارة سيد الوجود ﷺ . فحيث فهمتم ذلك . فالتكلم في حقه يورث
 الويال والمخذلان وسلب الإيمان .

واعلموا أن جميع أفعاله ، وأحكامه محمولة على الصواب لأنه أرق الحكمة
 وفصل الخطاب .. ولو كان حكمه على قتل نفس منكم أو سلب أموالكم ، فلا
 تعترضوا عليه ، ومن تكلم في حقه ولو بالكلام النفي فقد خسر الدنيا والآخرة !
 ويخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله ، لأنه خليفة الصديق الذي قال
 الله في حقه (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) ^(٨٤) ، وقال ﷺ :
 « ما طلعت شمس على أحد بعد النبيين أفضل من أبي بكر » وحيث علمتم ذلك .
 فهو بمرتبة الآن . لأن أصحابنا كأصحاب رسول الله ﷺ .
 وللمذكور خليفتنا في الدين ، وخلافته بأمر من النبي ﷺ ، فمن كان منكم

(٨٢) سورة الأحزاب الآية رقم ٣٦

(٨٣) سورة النساء الآية رقم ٦٥

(٨٤) سورة التوبة الآية رقم ٤٠

مؤمناً بآله واليوم الآخر ، ومصدقاً بمهديّ فليسلم للخليفة عبد الله ظاهراً وباطناً ،
وإذا رأيتم منه أمراً مخالفاً في الظاهر فاحملوه على التفويض بعلم الله والتأويل
الحسن .

وإنما أنذرتكم بهذا رحمة بكم ، وشفقة عليكم ، وليبلغ الشاهد منكم
الغائب ..

وإن الخليفة هو (قائد)^(٨٥) جيوش المسلمين ، وخليفتنا ، والثائب عنا في
جميع أمور الدين ، وإياكم والوسوسة في حقّه . وظنّ السوء به وعدم الامتثال إليه
في قوله ، والمشاجرة له أو لأحكامه ، ومن عاد فبنتقم الله منه ويسلطه عليه .

وهذا بيان أمر الله ورسوله . فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ،
أو يصيبهم عذاب أليم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(٨٦) .
وقد أتانا خبر من الخضر عليه السلام . أن الأولياء اجتمعوا في بيت المقدس
يقولون : الحمد لله الذي أظهر المهدي ، وجعل عبد الله وزيره .. !

ثم وجد - أي الخضر - اجتماع الشياطين وهم يقولون : كان عشنا بالغش
والخداع ، والمكر والكذب . فأتى المهدي ، وقطع علينا عشنا . ولولا أن عبد الله
وزير له ، وكان الخليفة غيره . لكنا نجد في المهديّة دخولا^(٨٧) . !

• • •

هذا الاهتمام بالتعاشي ، وإنزاله هذه المترلة الرفيعة ، وادعاء القداسة والعصمة
لشخصه وتصرفاته - بالرغم مما عرف عنه ونسب إليه - يدفع الباحث المنصف إلى

(٨٥) في الأصل قادة

(٨٦) منشورات الإمام المهدي ص ١ من ٣٠ وما بعدها . وانظر أيضاً : منشورات المهديّة ص ٦٦

وما بعدها تحقيق محمد إبراهيم أبو سليم

(٨٧) المصدر السابق ص ٧٧

تأكيد هذا الدور الذي لعبه التعايشي في الحركة المهدية ، ومبايعة محمد أحمد مهدياً ..

وقد ذكر - علي المهدي - في كتابه « جهاد في سبيل الله » ما خلاصته : إن المهدي كان يتوى إعلان المهدية بعد بلوغه سن الأربعين ، لأن كل الأعمال العظيمة تأتي بعد تمام الأربعين ، ولكن مجيء الخليفة عبد الله التعايشي قلمها ستين ! ولو تأخر - أي التعايشي - عشر سنوات ، لتأخرت - أي المهدية - عشر سنوات (٨٨) .. ! حتى إن البعض كان يعده صاحب الفكرة والدعوة (٨٩) ..

• • •

لقد حصل محمد أحمد إذاً .. علي « مهديته » عن طريق التصوف ، وكان لابن عربي وكعبه تأثير شديد في اتخاذه هذا الموقف .

فالتصوف هو الذي فتح له الطريق ، ومنحه إلى « المهدية » جواز المرور ، وقدم له في كل ذلك الأدلة والأسانيد .

كان التصوف في السودان هو شعار غالبية الناس في هذه الفترة ، وكان شيوخه هم المرجع الوحيد في شئون العقيدة ، وكانت مفاهيمه وتصوراتهم هي « السند الصحيح » في كل قضية ..

وقد لعبت كل هذه العوامل دورها في إعلان « مهديته » محمد أحمد وزادها خطراً وتأثيراً ما كان يمر به السودان من ظروف صعبة وقاسية ، وما أعلنه الشيخ القرشي من تصريحات ألحبت مشاعره وطموحه ثم ما قام به عبد الله التعايشي ، وأسهم به في هذه الحركة .

وبالرغم من أن المهدي قد ألغى الطرق الصوفية (٩٠) ، واعتبر كلمة

(٨٨) كتاب المهدي بسيرة الإمام المهدي ص ٩٤

(٨٩) المصدر السابق ص ٩٠

(٩٠) انظر منشورات المهدية ص ٦١ وما بعدها .

درويش^(٩١) جريمة يعاقب قائلها بأشد العقوبة ، إلا أننا سنجد بالرغم من ذلك كله ، أن هذا الأساس الصوفي الذي قامت عليه دعوة محمد أحمد ظل ملازماً له طوال حياته ، وبقى كامناً في عقله إلى آخر عمره ، وكان بلجاً إليه أحياناً في معالجة أعدائه وخصومه .

لقد نشأ محمد أحمد صوفياً . لكنه كان صاحب عقل متمرد على كل ماحوله ، وكان في تمرده على التصوف سلفياً شديد التبعة ، وكان فوق ذلك كله ثائراً تتأجج في نفسه عوامل الانقلاب والثورة .

وبإعلان محمد أحمد مهديته إلى الشعب . وإقبال الناس لمبايعته من كل حذب وصبوب ، كان البطل الذي يبحث عنه السودان قد استكمل كل عناصر الثورة والحرب .

شعب يرسف في الأغلال .. مسخط متزايد على الأوضاع . حكام جهلة . أغنياء غارقون في الظلم والرشوة . والفساد .
لقد ظهر المهدي المنتظر ..

فإلى قاطبة العلماء والتجار والعمد والفقراء والمساكين من عبد ربه محمد المهدي ابن عبد الله^(٩٢)

اعلموا وفقني الله وإياكم إلى اتباع الكتاب والسنة . أن قد أيدني الله تعالى بالخلافة الكبرى . وأعلمني سيد الوجود ﷺ بأنني المهدي المنتظر . وخلفني بالجلوس على كرسيه مراراً بحضرة الخلفاء والأقطاب والحضر . وأوتيت سيف النصر من حضرته ﷺ ، وأعلمت أنه لا ينصر عليّ معه أحد . وأيدني الله تعالى بالملائكة المقربين والأولياء من لدن أينا آدم عليه السلام إلى وقتنا هذا . وكذلك الجن إلى وقتنا هذا بعد أن أسلموا وصدقوا بمهديتي .

(٩١) المصدر السابق ص ٢٩٦

(٩٢) منشورات الإمام المهدي ج ٢ ص ٣٨ وما بعدها .

وفي حال الحرب يحضر مع الجميع أمام جيشي سيد الوجود ﷺ وسلم بمذاته
الكريمة . ثم قال ﷺ :

إن الله قد جعل لك على المهدية علامة وهي الخال على خدي الأيمن ، وجعل
علامة أخرى . تخرج راية من نور وتكون معي في حالة الحرب ، يحملها عزرائيل
عليه السلام . فثبت الله بها قلوب أصحابي ، ويترل الرعب في قلوب أعدائي ، فلا
يلقاني أحد بعداوة إلا خذله الله تعالى ولو كان الثقلين الجن والإنس ..

فمن له سعادة صدق بآني المهدي المنتظر .. ولكن لا يخفى أن البيان لا يهدي ..
وإنما الهادي هو الله تعالى . وقد أعلم الله نبيه ﷺ بأن ليس عليه إلا البلاغ ، وأنه
لا يهدي من أحب . ومعلوم أنه لا يكذب على الله ورسوله إلا من لا أخلاق له عند
الله تعالى ، ومن يعلم علم يقين أن متاع الدنيا قليل لا يزن عند الله جناح بعوضة
لا يؤثره على ما عند الله تعالى ، ولو أثر عليه لزال كأن لم يكن . ولولا أني على نور من
الله ، وتأيد من رسول الله لما قدرت على شيء ، ولا ساغ لي أن أحكي بشيء . وما
أخبرت عن النبي ﷺ بما أخبرت إلا بأمر من ﷺ .

وقد أخبر ﷺ مراراً أن من شك في مهديني كفر بالله ورسوله ، وأن من عاداني
كافر ، وأن من حاربنى بجذل في الدارين ، وأمواله وأولاده غنيمة للمسلمين .
وقد بشرني ﷺ أن أصحابي كأصحابه ، وأن عوامهم لهم رتبة عند الله تعالى
كرتبة الشيخ عبد القادر الجيلاني .. ولا تغفروا بالخطب التي ألقاها في ذمنا وتكذبتنا
علماء السوء ممن وقع في عرضنا . فهؤلاء ممن أدخل الله في قلوبهم النفاق بحب المال
وحب الجاه ، ولا يخفى عليكم أن العلماء ينكرون كثيراً من أمور المهدي لأنه ليس
معتقدهم الذي يظنون ، ولأنه يخالف (٩٣) مذاهبهم . والتصديق بالمهدي أمر
صعب لا يوفق إليه إلا من أدركه الله بسابق سعادة .

وحيث إن الأمر لله ، والمهدية أرادها الله واختارها للعبد الفقير محمد بن السيد

(٩٣) إنه هنا يردد قول ابن عري وزيه . انظر الفتوحات المكية ج ٣ ص ٣٢٨

عبد الله فيجب التسليم والانقياد لأمر الله ورسوله ..
وبعد هذا البيان فالمؤمن يؤمن ويصدق ، لأن المؤمنين هم الذين يؤمنون
بالغيب ، ولا يتظرون لإخبار آخر . فمن انتظر بعد ذلك فقد استوجب العقوبة ..
ومن لم تنفعه الموعظة طهره السيف ..
لقد بدأ الطوفان ..
وفي سفينة المهدي لمن شاء الأمن والأمان .. !!

الفضل الخامس

الجهاد والثورة

لقد أصبح محمد أحمد عبد الله مهدياً !
والمهدي والسيف أخوان كما يقول ابن عربي ، ولكن المهدي السوداني لم يكن
في حاجة إلى هذا القول ليكون مهدياً ، ولم يكن في حاجة إلى مبرر ليحمل سيفاً .
لقد كان السودان كله معبئاً ومشحوناً ، وكان كل من فيه يتطلع إلى يوم يكون
الخلاص فيه قريباً ، فلم يعد هناك أمل في إصلاح تقوم به الحكومة .
الحكومة نفسها كانت لعنة ! ونظام الحكم في القاهرة أصبح عاراً وسباً ، لم
يكن هناك قانون يحكم ، وحتى لو كان هناك قانون فلن يجد الرجل الذي ينطق به
ويتكلم . كل شيء كان منهاراً . . فساد ورشوة وظلم ، وحكام جهلة قساء فقدوا
كل إحساس بالكرامة والعدل ، وسياط محموعة لا تعمل من التعذيب والجلد .
ظلمات بعضها فوق بعض !

ماذا يمنع من الثورة إذا ؟ لقد أصبحت هذه الثورة ضرورة دينية وقضية
وطنية ، ضرورة دينية لأن الإسلام عدو الاستبداد والظلم ، وقضية وطنية لأن حق
الشعوب في الحرية ثابت وباق ما بقيت السموات والأرض ، لكن الثورة تحتاج
لنجاحها إلى ظروف مهيأة ، وإلى فرص وإمكانات كبيرة ، وقد قدمت الحركة
العراية في مصر كل أسباب النجاح لهذه الثورة ، وكانت آثارها في هذا النجاح
سلبية وإيجابية . كما أنها - أي الثورة العراية - قامت لنفس الأسباب التي دعت

المهدى والسودانيين إلى الثورة .

يقول المؤرخ المصرى عبد الرحمن الرافعى (١) :

كان من أسباب ثورة عرابى تضر الضباط المصريين من سوء معاملة الأتراك والأرناؤود ، ولم يكن الضباط المصريون يجدون منهم فى الجملة إنصافاً ولا مساواة ، ولا معاملة حسنة .

وكان من أسباب ثورة المهدى مظالم الحكام ، وما عاناه المواطنون من العنف والظلم . فإن غالبية هؤلاء الحكام كانوا من الشركس أو الأرناؤود أو الترك ، وقد زاد فى ارتكاب هذه المظالم أن الحكومة كانت تعتبر السودان منقلى للحكام ، ولم تكن الحكومة ترسل إليه - فى الغالب - إلا الموظفين المغضوب عليهم . فالموظف الذى يذهب إلى السودان وهو شاعر بأنه مبعث أو منقلى لا يتظر منه العدل . أضف إلى ذلك أن حكام مصر لم يكونوا فى الغالب مثال العدل . بل إن مظالمهم هى التى أدت إلى قيام الثورة العرابية فى مصر (٢) .

• • •

فما شكا منه المصريون ارتفعت بالشكوى منه ألسنة السودانين ، وكما يقول ونستون تشرشل الزعيم البريطانى الشهير : إن أهل شمال وادى النيل وجنوبه كانوا فى البلوى سواء ، وقد تطلع أهل الشمال إلى زعيم يتقدمهم مما كانوا فيه ، فوجدوه فى صورة زعيم عسكرى هو عرابى باشا ، وتطلع أهل الجنوب إلى زعيم يتقدمهم مما حل بهم ، فوجدوه فى صورة زعيم دينى هو محمد أحمد (٣) .

فالثورة العرابية كانت من أجل مصر ، وكانت ضد هذه الطغمة الحاكمة من الشركس ، والأرناؤود والترك ، والثورة المهدية لم تكن ضد مصر ، بل كانت ضد

(١) الثورة العرابية ص ٧٣

(٢) مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال - عبد الرحمن الرافعى ص ١٠٩

(٣) مهدى الله ص ٢٧

هذه الفئة الباغية التي تمك في مصر والسودان بمقاليد الحكم ، وقد التزم المهدي - في بياناته ومشوراته - بهذا الخط ، وكان في تعبيره واضحاً وضوحاً لا يقبل الشك .

يقول المهدي :

« . . إن هؤلاء الترك لما بسط الله عليهم النعم ، ومد لهم في العمر وطول العافية ، ظنوا أن الملك لهم . والأمر بأيديهم ، وخالفوا أمر الله ورسوله وأنبيائه ومن أمرهم بالافتداء بهم ، وحكموا بغير ما أنزله الله ، وغير ما شرعه سيدنا محمد ﷺ ، وسبوا حنين الله ، ووضعوا الجزية في رقابكم مع سائر المسلمين ، وكل ذلك لم يأمرهم به الله ولا رسوله ، ومع ذلك أمهلهم الله وبسط عليهم النعم ، فلم يشكروا حتى خذلهم الله ، وسلبهم ثوب الملك والهيبة ، بتعديهم حدود الله . لا انظروا الآن كيف صاروا عندكم . . . ومكنكم الله من نواصيتهم ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم مع آله صولتهم ، وقد أهلكهم الله بالفرور والأمان . أتريدون أن تكونوا مثلهم ؟ أو تهلكوا كما هلكوا ؟ أم تريدون أن يغضب الله عليكم ويستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم فتقلبوا على أعقابكم بعد أن منَّ الله عليكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، تقربوا إلى الله واشكروا نعمه عليكم . فإن النعم وحشية . . فقيدوها بالشكر .

إن الترك كانوا يسحبون رجالكم ، ويسجنونهم في القيود ، ويأسرون نساءكم وأولادكم ، ويقتلون النفس التي حرمها الله بغير حقها ، وكل ذلك لأجل الجزية ، التي لم يأمر الله ، ولا رسوله بها ، ومع ذلك لم (يرحموا صغيركم ولم يوفروا كبيركم) ^(١)

كيف نسبتم هذا كله ؟ وتخلفتم عن الجهاد في سبيل الله ، ولم تأخذكم الغيرة على الدين وانتهاك محارمه ؟ ومع إهانة الترك لكم . وذلكم إليهم . كنتم سامعين

(١) في الأصل : ولم يرحموا . ولم يوفروا وهو خطأ لقري ظام

طائعين متقادين لأمرهم حينئذ أمروا . فكيف إذا أظهرني الله من جود فضله وكرمه ؟
ألا توافقون على إقامة الدين ، وهلاك القوم الكافرين ؟^(٥)

وكان من أسباب الثورة العرابية : سوء الحالة الاقتصادية ، وتدهور الأوضاع المالية بسبب الديون التي اقترضها إسماعيل ، وجلبت على البلاد الخراب والفقر ، هذا فضلا عن فداحة الضرائب ، وعدم توزيعها توزيعاً عادلاً ، ونحصيلها بوسائل القهر والإرهاق ، فانضم الأهلون إلى الثورة بمجرد قيامها^(٦) .

• • •

وكان من أسباب ثورة المهدي : فرض الضرائب على الأهالي ، وزادها ثقلاً أنها لم تكن موزعة بالقسط ، بل كانت شديدة على الفقراء ، خفيفة على الأغنياء ، وفوق ذلك فقد استعملوا في تحصيلها منتهى القوة والعنف ، حتى إن الرجل لبيع متاعه ، وكل شيء ليبلغ الضريبة الباهظة . . . فإن عجز يطرأ على وجهه ، وتندق أربعة أوتاد وتربط كل يد من يديه ، وكل رجل من رجليه إلى وتد منها ، ويقف الجلاد يجلده بالسياط حتى يدمى جسده ، أو يلقي مكثوفاً في قيظ الهاجرة ، ولظى الشمس المتوقدة بلهب جسده ، أو أنهم يضعون في سراويله هراً بعد أن تغل يدها ، ويترك الهر داخل سراويله ، وأن المرأة كانت تحبس إذا تأخر زوجها ، أو وليها عن وفاء الأموال الأميرية ، وتبقى في السجن إلى أن يدفع ما عليه فيضطر للدفع منها كلفه ذلك^(٧) .

وشر من ذلك كله ، مما لم يكن له مثيل في غير السودان . أن هؤلاء المأمورين لم يكتفوا بالضرائب الرسمية ، بل فرضوا على الأهالي إتاوات غير رسمية ، يحصلونها مع الضرائب ، وذلك بسبب أن أكثر الولاة الذين تولوا شئون السودان كانوا لا يهتمون

(٥) منشورات المهدي - المنشور الصادر في ٢٤ شوال ١٢٩٩ هـ .

(٦) الثورة العرابية والاحلال الإنجليزي ص ٧٣

(٧) مهدي الله ص ٣٠

في الغالب إلا بالانتفاع بوظائفهم ، فيفرضون على المديرين أموالاً باسم الهدايا ، فيضطر المديرون إلى استرجاعها من مأموري المراكز الذين تحت إدارتهم ، وهؤلاء يفرضونها على الأهالي أضغافاً مضاعفة ، لأجل وفاء ما عليهم ، والاحتفاظ بالبخر لأنفسهم (٨) .

وقد ساعد أيضاً على تدهور الأحوال الاقتصادية في السودان ، احتكار الحكومة تجارة الحاج - وهو من أهم مصادر الثروة في السودان - وقد وقع هذا الاحتكار في عهد « غوردون » أيام ولايته الأولى ، فاستأثرت الحكومة بالأرباح الطائلة التي كانت تعود إلى أصحابها من أهل التجارة والحرفة ، فقموا من الحكومة هذا الاحتكار ، وسخطوا عليها ، وهؤلاء التجار كانوا سادة السودان الحقيقيين ، فكان هذا العمل المنطوي على الظلم هو النواة الأولى للثورة المهدية ، أضف إلى هذا ذلك الأسلوب العنيف الذي اتخذه « غوردون » في منع تجارة الرقيق دون مراعاة للظروف الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تتطلب منه الكياسة ، ومعالجة هذا الأمر بالأناسة والتدريج ، حتى لا ينهار النظام الاجتماعي مرة واحدة .

وقد ذكر الكولونيل لونج بك Longbye أن غوردون حين تولى حكم

(٨) جريدة وقائع السودان ص ٦٣٢

وقد ذكر العلامة القريري في كتابه «إغاثة الأمة بكشف الغمة» : أن الأصل في هذا الفساد يرجع إلى ولاية الخبط السلطانية بالرشوة ، بحيث لا يمكن الوصول إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل ، فدخل لذلك كل جاهل وضد ، وظالم وراغب إلى مالم يكن يؤمله من الأفعال الجلييلة ، والولايات العظيمة ، لتوصله بأحد حوائش السلطان ، ووعدته بمال السلطان على ما يريد من الأفعال ، فلم يكن بأسرع من تظلمه ذلك العمل ، وتسلية إياه ، وليس معه ما وعد به شيء قل أو أكثر ، فلا جرم أن يضطر حينه ، ولا يزال بما أنط من أنواع الأموال ، ولا عليه بما يتلف في مقابلة ذلك من الأفسس ، ولا بما يريقه من السماء ، ولا بما يستره من الحرار ، ويحتاج إلى أن يقرر على حوائشه وأهوائه ضرائب ويتعجل منهم أموالاً ، فيبدون نبيهم إلى أموال الرعايا بحيث لا يعضون ، ولا يكفون ..

انظر في هذا الموضوع

«إغاثة الأمة بكشف الغمة» ص ٤٣ وما بعدها لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥٧ م .

السودان . كان الأمن واليسار يسودانه ، ولما غادره كان ينوء تحت أعباء الديون ، والثورة تتمخض في أحشائه » (٩) .

• • •

وكان من أسباب الثورة العراقية التدخل الأجنبي في شئون الحكم ، وسيطرة المستشارين الأجانب على مقاليد السلطة في مصر ، وقد أصبح هؤلاء الأجانب في النهاية أصحاب الكلمة النافذة ، والسلطة الفعلية ، وأصبح الخديو والحكومة في أيديهم العونة .

وكان من أسباب الثورة المهدية تدخل الأوربيين في شئون الحكم ، وتوليهم لمناصب الهامة ، فإن هؤلاء الأجانب لم يكونوا صادق النية ، وكانوا يثيرون بأعمالهم روح الحقد والكراهية ، وكان من رأى المهدي « . . . إلقاء تبعة تلك المظالم والمصائب على عاتق الحكومة المصرية ، لأنها استخدمت أولئك الأجانب والدخلاء ، وولتهم أمور العباد ، فحكموا سيوفهم في رقابهم ، وأنوا ما أتوه من الظلم ، وقتل النفوس ، وهتك الأعراض ، وكان من الواجب أن تتجسس أعمالهم ، وتنسم أخبارهم ، حاسبة السودان عضواً من أعضائها ، يؤلمها ما يؤلمه ، ولكنها أهملت هذا الواجب ، وكان إهمالها دليلاً على تركها حبلاً على غاربها ، وترك مقادير السودان تجري في أعنتها . . . إذا ليس بدعاً انتفاض أهل السودان عليها ، بل البدع والغربة ألا يتفضوا ويثوروا لجلع النير القاسي ، وقلب تلك الهيئة الحاكمة التي أبلغت أرواحهم حناجرهم ، ولم تعمل عملاً يصلح دنياهم . ويستجلب رضاهم ، بل وكلت أمورهم إلى أناس يجثرون السود عيلاً أرقاء ، ولا يفرقون بينهم وبين العجاوات ، ومن العيب أن يرضى المرء بالهوان إذا كان قادراً على إصلاح حاله وإسماع أهله . . . » (١٠) .

(٩) مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ص ١١١

(١٠) مصر والسودان تأليف الدكتور محمد فؤاد شكرى - ص ٢٩٣ ، ط دار المعارف - القاهرة -

يقول الدكتور جلال يحيى :

« كان السودانيون مسلمين متمسكين أشد التمسك بدينهم ، وكانوا بطبيعة الحال لا يعترفون لغير المسلم بأى حق فى ولاية أمورهم ، فإذا يكون الأمر عندما يكون هذا الحاكم مسيحياً أجنبياً يستخدم القوة كوسيلة وحيدة للتفاهم وإصدار أوامر تتعارض مع الدين والتقاليد والعرف » (١١) .

لقد كان هذا التدخل الأجنبى سبباً من أسباب الثورة العرابية ، وكم كتب جبال الدين ومحمد عبده فى مجلة « العروة الوثقى » متنديين بهذا التدخل ، ألم يقل الشيخ حسن العلوى لرئيس المحكمة التى تحكمه بسبب اشتراكه فى الثورة : أعلن إليك الساعة ، أن الخديو الذى أسلم وطنه واستلم لأعدائه مستحق للغزل . ثم ألم يقت شيخ الأزهر بخروج الخديو توفيق عن الشرع . فلم يكن غريباً من المهدي أن يقف نفس الموقف ، وأن يوجه إلى الخديو إنذاراً يندد فيه بهذا التصرف :

من العبد المتعصب بالله محمد المهدي بن عبد الله إلى والى مصر .
لا يخفى على من نور الله بصيرته . وشرح صدره أن الدين الذى يكون المتمسك به ناجياً عند الله هو دين الإسلام الذى جاءنا به نبينا محمد ﷺ ونزل به القرآن من الملك السلام قال تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام) (١٢) وقال تعالى : (ومن

(١١) الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية فى السودان ص ٩ وما بعدها . وقد ذكر عرابى فى مذكراته عن حرب الحبشة - أن قائد الجيش المصرى فى هذه الحرب كان جنرالاً أمريكياً اسمه Ioring وقد هزم الجيش المصرى فى هذه الحرب بسبب خيانة هذا الجنرال وأوكان حربه الأوربيين . فقد اتفق هذا الجنرال مع ملك الحبشة عن طريق ميسر فرنسى . وعن طريق هذا الميسر عرف ملك الحبشة كل شئ من خطط الجيش المصرى وفى النهاية وقبل بدء المعركة أرسل ملك الحبشة إلى الجنرال الأمريكى يطلب منه قطع الطرود عن عند احتدام القتال . ووسط منديل أبيض حول عنقه . وأن يضع هو ورفاقه القناعات على رؤوسهم إشارة أنهم مسيحيون حتى لا تنصيب دماح الحبشة !

انظر فى هذا الموضوع . مذكرات عرابى ج ١ ص ٣٦ .

(١٢) سورة آل عمران : الآية ١٩

يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه (١٣) وما سوى ذلك من الأديان فضلال يدعو إليه الشيطان حزبه ليكونوا من أصحاب السعير .

ومن منحه الله عقلاً يوازي به بين الخبيث والطيب . لا ينبغي له أن يصرفه إلا فيما يتبع خلاصة عند الله يوم تزل الأقدام . ويشيب الطفل . ويشد الزحام . وإلا كان أسوأ حالا من اليانم حيث أضاع حكمة تركيب العقل فيه . ولا سبيل إلى السلامة عند الله إلا باتباع دينه ، وإحياء سنة نبيه وأمته . وإماتة ما حدث من البدع والفضلال ، والإتابة إليه تعالى في كل الأحوال . وقد تأكد ذلك في هذا الزمان الذي عم الفساد فيه سائر البلدان . فإن دسائس أهل الكفر التي أدخلوها على أهل الإسلام ، وضلالاتهم التي مكثوها من قلوب الأنام . قد أقضت إلى اندراس الدين ، وعطلت أحكام الكتاب والسنة يقيين . فصارت شعائر الإسلام غريبة بين الأنام ، وتراكمت الظلمات وانتشرت البدع . وأيحت محارم الإسلام . واشتد الكرب على أهل الإيمان . فصار المقابض على دينه . كالمقابض على الجمر لتراكم البغي والعدوان .

فعند ذلك أظهرني الله طبق الوعد الصادق رحمة لعباده . لأتقدمهم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، وأدلمهم إلى الله على هدى منه وتبيان . وطوقني بالخلافة الكبرى على المهديّة . وخلع عليّ حللها البية وبشرني سيد الوجود ﷺ بالنصر على كل من يعاديني ولو كان الثقلين ، وبأن من يقصصني بعداوة بخذله الله في الدارين . وقلدني سيف النصر . وأيدني بقذف الرعب في قلوب أعدائي يسى أمامي أربعين ميلاً . وأخبرني بأنّي أملك جميع الأرض وبأن من شك في مهديّ فقد كفر بالله ورسوله . ونفسه وماله غنيمة للمسلمين ، وبأن الله قد أيدني بالملائكة الكرام . وبالجن أحياء وأمواتاً . وهكذا من البشارات والمعجائب التي يطول شرحها . وكل ذلك بحضرة الملائكة المقربين ، والخلفاء الأربعة والحضر عليه السلام . وما كنت

أترقب هذا الأمر لتقضى ولا سألت الله إياه ، بل كنت أسأله أن يجعلنى معيناً لمن يقوم به ، فلما أراد الله وحتم الأمر على من سيد الأكوان ، فت بأعباء هذه الحالة (الدعوة) واعتصمت بالله ، وتوكلت عليه ، وأخبرت الحكمدارية بأنى المهدي المنتظر ، وقد كان بها محمد رموف وما تركت لأهلها في إيضاح هذا الأمر شيئاً . وأنا في انتظار الأخبار وتسليم الأمر لله الواحد القهار ، لما كان منهم إلا أن ضربوا عما أخبرتهم به صفحاً ، وظلوا عن قبوله كشحاً ، وبأدروني بالمخاربة من غير روية ولا تثبيت^(١٤) في هذا الأمر الديني الذي جنتهم به من خير البرية فأبدنى الله عليهم كما وعدنى ، وهكذا صارت جيوشك تأتيني ثلة بعد ثلة ، وأقدم لهم الإنذارات ولم تنفعهم ، والله يؤيدنى وينصرنى عليهم كما وعدنى ويقطع دابرهم ، إلى أن قلت حيلتك ، وتلاشى أمرك . فسلمت أمر أمة محمد ﷺ لأعداء الله الإنجليز وأحطت لهم دماءهم ، وأموالهم وأعراضهم ، فجاء الإنجليز بكبرهم وخيالاتهم ، واعتمادهم على غير الله ، فلما سول الشيطان لهم واستولى على^(١٥) إدراك غور دونهم ، بالخرطوم . وأبست من هداية أهله ، وعلمت أن تكرار الإنذارات لا ينفعهم ، وحقت عليهم كلمة العذاب ، وصاروا مثل من قال الله تعالى في شأنهم (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون)^(١٦) عجل الله بفتحه . وإهلاك من فيه . وأحرقت النار أجسادهم عياناً كالذين من قبلهم إظهاراً للحقيقة . ونعجيلاً للعقوبة . وصدق عليهم قوله تعالى : (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة)^(١٧) .

ثم أنذرت الإنجليز فلجوا رموسهم ، فوجهت إليهم طائفة من الأنصار فقتلوا

(١٤) يقصد من غير تثبيت

(١٥) يقصد أن الشيطان استولى عليهم . فلم يحكموا تفكيراً سليماً .

(١٦) سورة البقرة الآية ٦

(١٧) سورة الأنعام الآية ٤٨

الله في قلوبهم الرعب فولوا هاربين . بعد أن أهلك الله منهم من أهلكه . وشتت شملهم . وهذا كله غير خاف عليك ، ولا زال حزب الله مقتضياً أثر باقبيهم . وعن قريب يحل الله من الدمار ما يكون عبرة لمن اعتبر . . هذا . . وإن المؤمن المصدق بوعد الله لا يرى لجميع ما في الحياة الدنيا من القانيات قبة . ولا بأسف على ما فاتته من ملكها الذي ماله إلى الزوال ، وعظيم النكال ، وإنما يكون مطمح نظره إلى ما عند الله من النوال في دار الكرامة والإفضال ، فإن الدنيا لو بقيت للأول لم تستقل للآخر ، ومن هنا تعلم أن هذا الملك لم يصل إليك إلا بموت أو عزل من كان قبلك ! وهو خارج من يدك بمثل ما صار إليك ؟ !

وحيث كان الأمر . كذلك فلا ينبغي لك إن كنت ترجو من الله نعم دار الأبد أن تأسف على ما فاتك من الدنيا ولو كان الدنيا بخذا فبرها ، فدقق النظر ، واجمع عليك فكرك ، وتدارك نفسك واسع فيها بتحريك عند ربك إذا تمثلت بين يديه ومألك عما جرى منك وسلم الأمر إليه تسلم .

وما كان يحسن منك أن تتخذ الكافرين أولياء من دون الله . وتستعين بهم على سفك دماء أمة محمد ﷺ ! !

ألم تسمع قول الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم فإنه منهم) ^(١٨) وقوله تعالى : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم . .) ^(١٩) وقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) ^(٢٠) . . . يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) ^(٢١) .

فإذا كنت ممن ينظر بعين بصيرته ، ولا يؤثر متاع الدنيا الخسيس على نعم

(٢٠) سورة المتحة الآية الأولى

(٢١) سورة آل عمران الآية ١٠٠

(١٨) سورة المائدة الآية ٥١ .

(١٩) سورة المائدة الآية الأخيرة

آخرته ، فاعتبر بذلك ، وبادر إلى النجاة والسلامة للعتيرة وهي سلامة الإيمان ،
ونزه نفسك من أن تكون في أسر أعداء الله دائماً ، ولا تهلك من كان معك من أمة
محمد ﷺ واغسل ما جرى منك بدموع الندم ، ولا تكثر بجاه الدنيا القاني . ولا
بملكها الزائل ، فإن الله داراً خيراً منها ، وقد أعدها لعباده المتواضعين . وإياك
والركون إلى علماء السوء الذين أسكرهم حب الجاه والمال ، حتى اشتروا الحياة
الدنيا بالآخرة فيهلكوك كما أهلكوا من قبلك ، ولا تغتر بقوة حصن بلدك ، وكثرة
أسلحتك ، وعندك الظاهرية ، ومظاهرة دول أهل الكفر لك . فإنها لن تغني عنك
من الله شيئاً ، وكم أهلك قبلك من الملوك أهل الحصون المنيعه ، ومن هو أشد
منك قوة وأكثر جمعاً ، لما بغوا وعثوا في الأرض مفسدين .

وليكن في علمك . أن أمرنا هذا ديني مبنى على هدى من الله ، ونور من رسول
الله ﷺ ، ومؤيد من عند الله بجنود ظاهرة وباطنية ، وما قصدنا منه إلا إحياء
الدين ، وإظهار آثار الأنبياء والمرسلين . ولا نريد مع ذلك ملكاً ولا جاهاً ولا
مالاً ، فإن نور الله بصيرتك ، وخالفت النفس الأمارة بالسوء ، وقبيل هديتنا هذا
وأنت إلى الله بنية خالصة ، فعليك أمان الله ، وأمان رسوله وأماننا ، وما يتنا
وينك إلا المحبة الخالصة لوجهه تعالى ، ونكون جميعاً يداً واحدة على إقامة
الدين ، وإخراج أعداء الله من بلاد المسلمين وقطع دابرهم ، واستئصالهم إلى أن
ينبوا ويسلموا .

وقد حررت لك هذا الكتاب وأنا بالخرطوم شفقة عليك ، وحرصاً على
هدايتك ، فأرجو الله أن يشرح صدرك لقبوله ، ويدلك على صلاحك ورشادك في
الدارين ، وها أنا قادم إلى جهتك بجنود الله عن قريب إن شاء الله تعالى فإن أمر
السودان قد انتهى . فإن بادرتني بالتسليم لأمر المهدي ، والإجابة إلى الله رب البرية ،
فقد حزت السعادة الأبدية . وأنت على نفسك ومالك وعرضك أنت وكافة من
يجب دعوتنا معك . وإن أبيت بعد هذا إلا الإعراض عن طريق الفلاح والرشاد

فإنما عليك إنمك وإثم من معك ، ولا بد من وقوعك في قبضتنا ، ولو كنت في بروج مشيدة ، وهذا إنذار مني إليك ، وفيه الكفاية لمن أدركه العناية ، والسلام على من اتبع الهدى (١٢٢) .

• • •

وكما كانت حركة جمال الدين الأفغاني سبباً من أسباب الثورة العراقية في مصر ، فقد كانت هذه الحركة أيضاً سبباً من أسباب ، الثورة المهدية في السودان ، فقد كانت مصر والسودان في ذلك الوقت بلداً واحداً ، وكان صدى ما يجري فيها ينمكس على السودان تلقائياً ، فالتفاعل الثقافي والفكري كان قائماً بين البلدين منذ عهد سلطتي « دارفور » و « الفونج » مثلاً في إرسال الطلبة السودانيين إلى الأزهر لتلقي العلم ، ولا يزال في الجامع الأزهر رواق يحمل اسم « دارفور وسنار » إلى هذا اليوم ، وقد أجمع جميع من أرخوا سيرة المهدي ، على أنه أمضى أغلب السنوات التي سبقت مجاهرته بالدعوة في المطالعة والقراءة والتحصيل . ومن الخطأ النظر إلى الثقافة المتوفرة في ذلك العهد نظرة سطحية ، ففي الأزهر الشريف ، وقبل عصر النهضة بقرون ، كانت علوم الفلسفة والمنطق تدرس وتهذب . وقد تسربت هذه الآراء عبر بصيص الرواق السناري في الأزهر - إلى القارئ النهم محمد أحمد عبد الله ، (١٢٣) .

وقد ذكر الشيخ محمد عبده أن أربعة وثمانين طالباً من السودان كانوا يتلقون الدروس في حلقاته بالأزهر ، وكان هؤلاء الطلاب في إجازاتهم يتقلون إلى بلادهم ما يقوله السيد جمال الدين . وما يروى عنه في مجالسه الخاصة . كما كان الشيخ إسماعيل الكردفاني - مؤرخ سيرة المهدي - من علماء الأزهر ، وكانت له صلة

(١٢٢) منشورات الإمام المهدي ج ٢ ص ٢٧٧ . جزالة وتاريخ السودان ص ٩٢٢ وما بعدها

(١٢٣) كردى - تأليف الرائد عصمت حسن زقور - ص ٤٦ ط السودان ١٣٩٣ هـ .

بكبار شيوخه ^(٢٤) وقد فكر السيد جمال الدين الأفغانى فى إرسال الشيخ محمد عبده إلى السودان ليعمل مع المهدي ، وحقق مع الشيخ محمد عبده بنهضة جمع الأسلحة وإرسالها إلى السودان ^(٢٥) ، هذا بالإضافة إلى المئات من المصريين الذين نفوا إلى السودان بسبب اتجاههم الوطنى ، وتأيدهم لعرايى ، فن غير المقول أن يركن هؤلاء إلى السكوت بعد هذا النى التصقى ، وقد كان هدف الجميع واحداً فى القطرين السودانى والمصرى .

يقول المرحوم عبد الرحمن الرافى ^(٢٦) .

« لا يسعنا فى الجملة إلا القول بأن الثورة العرابية كانت من أسباب نجاح ثورة المهدي . لقد كان تأثير الثورة العرابية فى الثورة المهدية مضاعفاً . . كان تأثيرها إيجابياً وسلبياً معاً ، فقد شجع عرايى - بعد قيامه بحركته - المهدي على تقلبه كما يقول المؤرخ الرافى ^(٢٧) ولم تتمكن مصر - بسبب الثورة العرابية - من إرسال القوة الكافية لإخماد حركة المهدي .

وفى ذلك يقول الشيخ إسماعيل عبد القادر الكردفانى المؤرخ المضمد لسيرة المهدي « لعل المانع من إرسال جيش مصرى ^(٢٨) عدم تمكن الخديو بسبب مآذاه من قيام أحمد باشا عرايى عليه . وخروجه عن طاعته ، وشروعه فى محاربته . وذلك بعد أخذه فتاوى علماء مصر بمقاتلة ومحاربة والىها إذ ذاك . ووجوب الخروج عليه ومحاربته . »

كل ذلك كان صحيحاً ، ولكن الأهم من ذلك كله . أن رجال الجيش

(٢٤) انظر كتاب سعادة المهدي بسيرة الإمام المهدي - ص ١٦ ط ١٣٩٢ هـ .

(٢٥) محمد عبده - تأليف عباس العقاد - ص ٢٣٤ .

(٢٦) الثورة العرابية ص ١١٤ .

(٢٧) المصدر السابق ص ١١٤ .

(٢٨) المهدي بسيرة الإمام المهدي ص ١٥٦ وما بعدها .

المصري لم تكن لديهم رغبة في قتال خيس تفرضه حكومة ظالمة خائنة . وقد رأينا ما كتبه العروة الوثقى بخصوص هذه القضية^(٢٩) . وكيف حذرت المصريين من قتال إخوانهم في العقيدة ، أضف إلى هذا ما كان يشعر به الضابط المصري ، والجندي المصري ، من أن سفره إلى السودان كانت الغاية منه التخلص من الجنود والضباط الذين شاركوا في الثورة العراقية كما أنهم كرجال ثورة وطنية - كانوا لا يؤمنون بضرورة فرض سلطنة الخديوي على ثوار السودان فكثرت حوادث الحرب من المعسكر بشكل اضطر الحكومة إلى ربطهم بالسلاسل^(٣٠) . وكان رجال المدفعية يطلقون مدافعهم في اتجاه خاطئ وكان العساكر يقولون لقادتهم : لم يوت بنا إلى هنا إلا لإعدامنا . لأننا عرايون . ولهذا كانت الأكثرية منهم تنضم إلى صفوف المهدي^(٣١) . وقد كان المهدي على علم تام بما يدور في مصر ذاتها ، فقد كان له فيها من يوافيه بأنبيائها وأحوالها . وإن أحد هؤلاء الأعوان ليكتب إليه بأن الأحوال في مصر تتقل من سبي إلى أسوأ . وأن حكومة مصر لا تقوى على مد يد للمساعدة إلى السودان . وأنها - أي الحكومة المصرية - منقسمة إلى قسمين أحدهما وطني ، والثاني خديوي^(٣٢) .

لقد كان هناك نشابه كبير بين الحركتين العراقية والمهدية . كانت كل منهما تطالب بإصلاحات إدارية واجتماعية ، وكانت كل منهما ضد الوضع القائم والتدخل الأجنبي . وكانت كل منهما عبارة عن حركة تحرر إسلامية ولم يخف عراقي وهو في منغاه تأييده وميله للمهدي . كما كان العراقيون يفكرون في التحالف معه

(٢٩) العروة الوثقى ص ٢١٦

(٣٠) الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية ص ١٦

(٣١) انظر في هذا الموضوع

الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية في السودان ص ٥٠

حجراته وتاريخ السودان ص ١٣٦٢

(٣٢) مهدي الله ص ٥٣

لإقامة جبهة موحدة ضد التدخل العسكري البريطاني (٣٣)
ولا يسهل الباحث للمدق بعد هذه المقارنات والحقائق إلا تأكيد أهمية هذا الدور
الذي لعبته الحركة المرائية في ثورة المهدي ، وفي تمكين هذه الثورة من النجاح
الذي أحرزته ضد الإنجليز والحدود ، وفي هذا التقارب والتعاطف بين الزعيمين
السوداني والمصري .

يقول مؤلف « كبرى » وقد أمر المهدي أتباعه بعدم قتل غوردون ، وأوصاهم
قائلاً : الغوردون يا إخواننا لا تقتلوه . بل اقبضوا عليه حياً وأحضروه إلينا ، لأن
فيه فائدة عظيمة ، فإننا نريد أن نسلّمه لأهله ، ونقدي به رجلين عظيمين : هما
الزبير وعمراني (٣٤) .

• • •

« ومما يكن من شيء ، فقد صادفت دعوة المهدي ذبوعاً ونجاحاً كان - دون
ريب - لحالة البلاد السياسية والاقتصادية يد كبرى فيه ، فأقبل عليه الرغماء
وشيوخ القبائل مبايعين قائلين : نبايعك على المهديّة وإن لم تكن مهدياً . . نبايعك
على قتال الحكومة وخلع طاعتها . . . » (٣٥)

• • •

لقد بدأت الثورة ، وأرسل محمد أحمد عبد الله المهدي ، إلى محمد رموف
باشا الحاكم العام للسودان ، أو الحاكم كما كان يسمى في ذلك الوقت كتاباً ، أو
إنذاراً يحذر فيه ويقول : « من عبد ربه محمد المهدي إلى الحاكم بالخرطوم .
وبعد فالأمر المطلوب كشفه أن دعائي الخلق إلى السنة والهجرة بالدين أمر من سيد

(٣٣) الثورة المهديّة وأصول السياسة البريطانية ص ٣٩ وما بعدها .

(٣٤) كبرى . تأليف عصمت حسن زلقو - ص ٨٩ . وقد كان الزبير الذي أراد المهدي القضاء مع
عمراني من رجالات السودان الذين تفاهم الإنجليز

(٣٥) السودان بين يدي غوردون وكشر ص ٨٥

الوجود ^(٣٦) ، فن تبع صار من المقربين ، ومن خالف خذله الله في الدارين . فن لم يصدق طهره السيف ! ومن أتاننا بالعداوة يأخذ الله ، إما بالخسف ، أو بالفرق . . وفيما ذكرته كفاية يكتفى به أهل العناية ^(٣٦) . . . فجمع رعوف باشا العلماء وأطلعهم على كتاب محمد أحمد ، فالتمس بعضهم له عذراً بأنه قد حصل له جذب . ! ولكنهم أجمعوا على ضرورة القبض عليه قبل اتساع الخرق ^(٣٧) . فتدب رموف باشا لهذا الأمر أحد معاونيه ، وهو محمد بك أبو السعود ، وحين ذهب إلى المهدي وجده جالساً ، وحوله جماعة من تلامذته ، فسلم عليه وقال : إن الحكمدار بلغه أمر الدعوة التي قت بها ، وأرسلني لآتي بك إليه ، وهو ولي الأمر الذي نجب طاعته .

فأجابه محمد أحمد : أما ما طلبته من الوصول معك إلى الخرطوم فهذا بما لا سبيل إليه ، وأنا ولي الأمر الذي نجب طاعته على جميع الأمة الحمدية ! فقال له أبو السعود : أرجع عن هذه الدعوى فإنك لا تطبق حرب الحكومة ، ولا نرى معك من يقاتلها . فقال محمد أحمد وهو يتسم : أنا أقاتلكم بهؤلاء . وأشار إلى أصحابه . ثم التفت إليهم وقال : أنتم راضون بالموت في سبيل الله ، فقالوا كلهم : نعم راضون بالموت في سبيل الله ، وبأذلون أرواحنا في رضا الله ورسوله ومهديه . فالتفت المهدي إلى أبي السعود وقال له : قد سمعت ما أجابوا به ، فارجع إلى ولي أمرك في الخرطوم وأخبره بما رأيت ^(٣٨) ، ورب الكعبة لقد كلفت برسالة سأؤديها ، ولو وقفت أمامي كل عقبات الدنيا . . . ^(٣٩) .

• • •

(٣٦) سعادة المستهدى بسيرة الإمام المهدي ص ١٢٠ .

(٣٧) جغرافية وتاريخ السودان ص ٦٥٢ .

(٣٨) جغرافية وتاريخ السودان ص ٦٥٢ وما بعدها .

(٣٩) كبرى - ص ٢١ .

فلما قفل أبو السعود راجعاً إلى الخرطوم قال المهدي لأنصاره :
أيها الناس : إن الترك رجعوا لطلب المدد ، وسيعودون لحربنا ، فن كان منكم
خائفاً على أولاده وأمواله فليخرج منا ، فنحن مسامحون له ، ويعتدنا التي في
أعناقكم ليس عليكم فيها حرج ، فإن سلمنا فعودوا إلينا . فقالوا جميعاً بلسان
واحد : يا سيدنا نحن ببيعناك على الموت ورضينا بذلك ، ولا نرغب بأنفسنا عن
نفسك ، بل نحن معك حيثما توجهت ، فربما شئت فنحن لك سامعون ، ولأمرك
مطيعون يا خليفة رسول الله (١٠) .

وصلت نبوة المهدي . . فقد عاد محمد أبو السعود على رأس قوة مسلحة
للقبض عليه ، وحمله مكثراً إلى الخرطوم ، فكن لها المهدي وأنصاره فأبادوها
جميعاً إلا القليل ، ولم يكده أبو السعود يرى ما حل بجنوده حتى رجع هارباً من هذا
الجحيم !

وتعرف هذه الواقعة « بواقعة أبا » . وكانت يوم الجمعة السادس عشر من شهر
رمضان سنة ١٢٩٨ هـ ، وقد انتشر خبرها في السودان انتشار البرق ، ونسجت
حولها الكرامات والخوارق ، ودارت حولها القصص والحكايات ، وفي ذلك يقول
الشيخ الكردفاني : « إذا تأملت بعين البصيرة وطابت منك السريرة اتضح لك أن
موقعة أبا من حيث كونها حصلت يوم الجمعة السادس عشر من شهر رمضان ،
قرية الشبه من غزوة بدر في كونها حصلت يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من
رمضان ، وفي نقص هذه الواقعة عن البدرية بيوم ، أعني أن تلك يوم السابع
عشر ، وهذه يوم السادس عشر ، سر لطيف ، ومنهج من التأديبات الإلهية منيف
يدركه الحاذق اللبيب ، ويقطن لدقيق مرماه القطن الأريب » (١١) .

• • •

(١٠) جغرافية وتاريخ السودان من ٦٥٣ - وكتاب سعادة المهدي ص ١٢١ .

(١١) سعادة المهدي بسيرة الإمام المهدي ص ١٣٤ .

كانت هذه الواقعة هي الشرارة التي أشعلت النار في السودان كله ، وقد تبوأ المهدي - بعد سحقه لقوات الحكومة - قمة الزعامة الروحية والوطنية ، وقد أبقن المهدي بعد هذه المعركة ، أن الحكومة لن تتركه يهنأ بانتصاره عليها ، كما أنها - أي الحكومة - لم تزل قوية ومحتفظة ببيتها ، والواجب يفرض عليه أن يحسب حسابها ، ويستعد لملاقاتها وقتالها . . . إنه الجهاد والثورة ، والجهاد والثورة في حاجة إلى تعبئة ، وهذه التعبئة لا بد من أن تكون شاملة وعامة ، وأية تعبئة من هذا النوع لا بد أن تكون مبرراتها قوية وصيغتها مقبولة ، وهنا تلعب براعته الفكرية . وتتمتع الزعامتان الروحية والوطنية في هذا النداء الموجه إلى الأمة بدعواها فيه إلى الهجرة . . .

لم يقل لهم تعالوا نجتمع لقتال الحكومة ، بل قال لهم هيا إلى الهجرة ، وللهجرة دلالات ومعان كبيرة ، إنها تعني الخروج من النفس والأهل والمال طاعة لله ورسوله ، كما أنها - أي الهجرة - تختل في تاريخ الإسلام مكانة رفيعة ، وفي هذا يقول المهدي : . . . لا يخفى عزيز علمكم ما ورد في فضل الهجرة ، وقد أعاد الله لنا الزمن الماضي من الصحابة ، وأعطى عليه السلام بأن أصحابي كأصحابه رضوان الله عليهم ، وبشرني أن من يصحبنى قبل بلوغ أصحابي اثني عشر ألفاً فهو من أنصار الله ، وفي رضاء الله ورسوله وأن له سبعين حجة . ومعلوم أن نصر دين الله في القلة مع أسبقية الصحبة فضله عظيم ، لاسيما وقد قال الله تعالى : (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يتفنون فضلاً من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون)^(١٢) . ومفهوم أن من لم يكن كذلك فليس من أهل الصدق . وقد قال الله تعالى في فضل الهجرة : (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئتهم في الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر)^(١٣) .

(١٢) سورة الحشر الآية ٨ .

(١٣) سورة التحمل الآية ٤١ .

وقال ﷺ : « من فر بدينه من أرض إلى أرض ولو شبراً من الأرض فقد استوحب الجنة » وكان رفيق إبراهيم خليل الله . ونيه محمد ﷺ إلى غير ذلك . ومع ذلك كله فقد أمرني النبي ﷺ بأن أكتب بالهجرة جميع المسلمين إلى « جبل قدير » أمراً عاماً ، وأوعد من خالفني بوعيد شديد ، فإذا بلغكم هذا فأتوا إلى الله ورسوله بأنفسكم وأهليكم ، ولو على الأرجل ، ولو تركتم جميع الأمتعة اتكالا على الله تعالى ، وامتنالاً لأمره ، ولا تحشوا من أحد فإن الله تعالى يقول : (فلا تحشوا الباس واخشون) (١١) .

فإذا وصلكم جوابي هذا فليحضر الذي أجاب الدعوة ولا يتأخر . فإن تأخر عنها فحضوره بعد هو والعدم سواء ، ولا تخافوا في اتقاكم إيتا من أي مخلوق ، فإن خوف المخلوق من دون الله ضعف في الدين ، وأما الترك فطاعتهم بعد أمام الدين كفر وضلال ، لأنهم كفار مخالفون لحدود الله تعالى ، وساعون في إطفاء نوره ، فإن تعرضوا (لكم) (١٥) فقد أجازكم الله في قتالكم ، ووعدكم بالنصر عليهم مادامت نيتكم لله وبالله قال تعالى :

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) (١٦) . وكل من بلغته أجوبتي ومراسلاتي فلا عذر له في التخلف عن الهجرة لتقويم الدين . بل هو من العاصين لأمر الله ورسوله ، ولا عذر بالترك فإن من آمن بالله ، وصدق بقول الله لا يخاف أحداً (١٧) .

• • •

بعد هذا البيان والإنذار . من يرضى بالبقاء في أرض الكفر ، أو تحت حكم

(١١) سورة المائدة الآية ٤٤ . انظر منشورات الإمام المهدي ج ٢ ص ١٢ .

(١٥) في الأصل عليكم .

(١٦) سورة الحج الآية ٣٩ .

(١٧) انظر منشورات الإمام المهدي ج ٢ ص ١٦ .

الترك وينترك دار الإسلام ؟ لقد كان المهدي يعتبر حكام السودان كفيلة لأنهم شرعوا في محاربته ، وبما أنه مهدي الله وخليفة رسوله ، فإن محاربته محاربة لله ورسوله ، ومحاربة الله ورسوله كفر بنص الشرع !

إن المهدي يستخدم هنا أسلوب « محمد بن عبد الوهاب » في القوة والعنف وينهج نهج « السنوية » في الهجرة - إلى دار السلام - من دار الحرب .
لقد كان من أهداف السنوية دعوة المسلمين إلى الهجرة ، من دار الحرب أو دار الكفر ، إلى دار السلام أو الإسلام ، في كل من كان قبله غير مسلم ، أو يحكمه غير مسلم ، أو يحكمه حاكم مسلم خاضع للحكومة غير إسلامية ، أو دولة أجنبية ، أو خاضع للحكومة إسلامية استبدادية ، وجب عليه أن يهاجر ولا فرق في ذلك بين « القسطنطينية ، والقاهرة ، ونونس وقابس ، وقد تحدث هيزي دي كاستري H.d.kasteries عن هذه الهجرة فقال :

« وعلم السنوسي ما أحزن المسلمين ، من حكم غير المسلمين فتأدهم أن أخرجوا من دياركم إلى أرض الله الواسعة الفضاء ، فلحق به كل مسلم لا يرى له بقاء مع المسيحيين ، أو يود معايشة الكافرين ، وأقبل الناس يعيشون معه في هذه الصحراء من غير سخط ولا ضجر » (١٨) .

كما وجد السنوسي أن من الحكمة أمام ازدياد عداوة السلطات الحكومية والعلماء المتمسكين بالقديم ، أن يتخذ موقفاً جديداً لدعوته غير الزاوية البيضاء فإن إنشاء هذه الزاوية في محل قريب من الساحل ، جعلها قرية من سلطان الحكومة التي لم تلبث أن زادت مخاوفها من هذه الحركة ، فاختار لهذا الغرض واحة الجغبوب ، وكان اختياراً موفقاً يدل على شدة تفكير ، وبعد غور في السياسة (١٩) .

وهذه صورة منشور من منشورات « السنوية » التي تدعو المؤمنين إلى الهجرة

(١٨) السنوية دين ودولة ص ٥٥

(١٩) المصدر السابق ص ٣٦ .

لإقامة الدين والملة ، وبقرائتنا لهذا المنشور لانكاد نلمس فرقا جوهريا بين منشورات المهدي .

يقول منشور السنوية^(٥٠) : اخشوا الله دائما ، ولا تفعلوا إلا ما أمر به ، وابتعدوا عما نهى عنه ، وعظموا كلمة الحق سبحانه وتعالى ، ونجنيوا أولئك الذين شغلوا بمتاع الدنيا الزائل . لا تهملوا ما نوصيكم به ، وما يوصيكم به شيوخنا أيضا إذا استطعتم ذلك . أو ليست أرض الله واسعة الفضاء . فلماذا لا تضربوا في جوانبها إذن ؟

إن الذين يمتنعون عن الهجرة في سبيل الله ورسوله ، فسوف يكون مقرهم جهنم وبئس المصير ، وإنما الذين ينالون عفو الله وغفرانه هم الضعفاء من الرجال والنساء الذين لا يقدرّون على الهجرة ، ولا يحذون من يرشدّهم إلى الطريق ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم . (ومن يهاجر في سبيل الله ، يجد في الأرض مُراعماً كثيراً وسعة)^(٥١) الآية (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار)^(٥٢) الآية . وقال تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . . .)^(٥٣) .

• • •

لقد كانت الهجرة من وسائل الحركة السنوية ، وأسلوبها في التكوين والتربية ، وكانت تهدف من وراء ذلك إلى البعد عن مراكز السلطة حتى لا تدخل معها في صراع ، قبل أن تستكمل العدة لخوض الصراع الذي نملّبه عليها الظروف كحركة إسلامية ، وكان المهدي يعرف الكثير عن هذه الحركة بحكم انتشارها في السودان

(٥٠) السنوية دين ودولة ص ٤٦ وما بعدها .

(٥١) سورة النساء الآية ١٠٠ .

(٥٢) سورة التوبة الآية ١٠٠ .

(٥٣) سورة التوبة الآية ١١١ .

والأقطار الأفريقية الأخرى . كما كان أثر هذه الحركة واضحاً في تكوينه الثقافي والفكري . وبالرغم من إلغاء المهدي للطرق الصوفية - كما سيجي ، في الفصل التالي - فقد بقي شعوره بالاحترام تجاه السنوسية قائماً ، وعندما عين خلفاءه الذين يمثلون في دعوته مقام خلفاء النبي الأربعة^(٥٤) ، احتفظ بمقام الخليفة عثمان السنوسي . ولن نجد دليلاً أوضح على هذا الشعور بالاحترام والثقة من تلك الرسالة التي كتبها المهدي إلى السنوسي .

يقول المهدي :

« من عبد ربه الفقير إليه محمد المهدي بن السيد عبد الله إلى حبيه في الله الخليفة محمد المهدي بن الولي السنوسي كان الله في عونك آمين . فيا أيها الحبيب القريب ، الواقف على سنة النبي^(٥٥) . الأديب العرفي . العباد إلى مقام التقريب . لا يخفاكم تغير الزمن . وترك السن . ولا يرضى بذلك ذور الإيمان واليقين . بل يترك لذلك الأهل والوطن ، لإقامة الدين والسن ، ولا يتوانى عن ذلك لكون غيره المؤمن على الإسلام نجبره .

واعلم يا حبيبي : قد كنا نتظرك ومن معنا من الأعوان . نتظرك لإقامة الدين قبل حصول المهديّة للعبد الذليل^(٥٦) ، وقد كاتبناك لما سمعنا باستقامتك ودعابتك

(٥٤) كان المهدي يعتبر نفسه خليفة رسول الله ، ووارث مقامه ، وقد عين لنفسه أربعة خلفاء ، يمثل كل واحد منهم خليفة من خلفاء الرسول الأربعة . عين عبد الله التعايشي خليفة عن أبي بكر . وعين علي ودخلوه خليفة عن عمر . وعين محمد شريف ابن عمه خليفة عن علي . أما مقام أو مكان الخليفة عثمان فقد احتفظ به للسنوسي كما سيجي . في الرسالة .

انظر جغرافية وتاريخ السودان ص ٦٦٨

(٥٥) يعترف المهدي في هذا الخطاب أن السنوسي يسير على هدى السنة النبوية وذلك بخلاف رأيه في أكثر علماء الدين والحكام الذين كان يعتبرهم مارقين عن الدين .

(٥٦) ويعترف المهدي هنا أيضاً بأن السنوسي كان مرجعاً للعمل معه على إقامة الدين . وهذا دليل على أن السنوسية كانت معروفة وشائعة في السودان . وأنها تحظى باحترام كبير هناك .

إلى الله على السنة النبوية ، وتأهيك لإحياء الدين بأن نصير إليك ونجتمع معك (٥٧) ولم ترد لنا المكاتبه ، وأظن ذلك من عدم وصولها إليكم ، حتى إنى ذا كرت جميع من اجتمعت معه من أهل الدين والشيوخ والأمراء ، فأبوا ذلك ! لهوان الدين عندهم ، وتمكن حب الوطن والحياة من قلوبهم ، وقلة توحيدهم ، حتى بابعض الضعفاء على القرار بالدين وإقامته على ما يطلب رب العالمين ، وقتعت نفوس من بايعناه من الحياة الدنيا لما يرون للدين من الممات ، ولا زال الساكنين الذين لم ييالوا في الله بما فاتهم من المحبوب للمشتهى يزدادون ، وفيها عند الله يرغبون ، حتى هجعت المهديّة الكبرى من الله ورسوله على العبد الحقير - والله هو الفاعل المختار الذي هو على كل شيء قدير - فأخبرني سيد الوجود ﷺ بأن المهدي المنتظر ، وخطفي عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسى مراراً بحضرة الخلفاء الأربعة ، والأقطاب ، والحضر عليه السلام . وقلدني سيفه ﷺ بحضرة الخلفاء ، والأولياء ، والأقطاب والملائكة المقربين والحضر عليه السلام ، وأعلنت أنه لا ينصر على أحد بعد اتيان سيف النصر من حضرته ﷺ .

ثم أخبرني ﷺ : أن الله جعل لك على المهديّة علامة وهي الحال على خدك الأيمن ، وجعل لي علامة أخرى : تخرج راية من نور تكون معي ساعة الحرب يحملها عزرائيل عليه السلام فيثبت الله بها قلوب أصحابي ، ويترل الرعب في قلوب أعدائي ، فلا يلقاني أحد بعداوة إلا خذله الله تعالى ، ثم قال ﷺ : إنك مخلوق من نور عنان قلبي ، فمن له السعادة صدق بأن المهدي المنتظر ، ولكن الله جعل في قلوب الذين يحبون الجاه ، والمال النفاق - فلا يصدقون ولا ينقادون للحق حرصاً على جاههم ، قال ﷺ : الجاه والمال يبتنان النفاق في القلب ، كما يبت الماء البقل .

ولما حصل لي يا حبيبي من الله ورسوله أمر الخلافة الكبرى أمرني سيد الوجود

(٥٧) وهذا دليل آخر بأن المهدي كان يكره في الانضمام إلى الحركة السنوسية ليصير واحداً من جنودها .

ﷺ بالهجرة إلى جبل بالغرب يقال له « قدير » ، وأمرني أن أكتب بها جميع المكلفين أمراً عاماً ، فكتبت الأمراء والمشايع فأنكر الأشقياء ، وصدق الصديقون الذين لم يبالوا بما لقوه من المكروه وما قاتهم من المحبوب المشهى ، بل ناظرون إلى وعده سبحانه وتعالى بقوله : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) (٥٨) مع أن أولئك المنكرين يزعمون أنهم يعلمون أن الأمر لله .

وقد أراد الله للمهدية المتظرة ، واختارها لعبده الحقير الذليل محمد المهدي بن عبد الله . ولا يزال التأييد يزداد من الله ورسوله ، وأنت منا على بال حتى جاءتنا الأخبار فيك من النبي ﷺ أنك من الوزراء لي ! ثم لازلتا ننتظرك حتى أعلمنا الخضر عليه السلام بأحوالكم وما أنتم عليه . . . ! ثم حصلت حضرة عظيمة عين النبي ﷺ فيها خلفاء أصحابه من أصحابي . فأجلس أحد أصحابي على كرسي أبي بكر الصديق ، وأحدهم على كرسي عمر ، وأوقف كرسي عثمان فقال : هذا الكرسي لابن السوسى . . . ! وأجلس أحد أصحابي على كرسي علي ، رضوان الله عليهم أجمعين . . .

« . . . » وأخبرني سيد الوجود ﷺ ، بأن من شك في مهديي فقد كفر بالله ورسوله ، كررها ﷺ ثلاث مرات ، وحرضني ﷺ على قتال الترك المخالفين ، المنكرين مهديي ، ومن أتبعهم على مخالفتي وجهادهم ، وسماهم كفاراً ، بل هم أشد كفراً لأنهم ساعدون في إطفاء نور الله ، وأخبرني ﷺ مبشراً بأن أصحابي كأصحابه ، وأن عوامهم لهم رتبة كرتبة الشيخ عبد القادر الجيلاني وهذا الفضل بشرط الاتباع ظاهراً وباطناً ، والله ذو الفضل العظيم . هذا وإن جمع ما أخبرتك به من خلائقي بالمهدية وخلافه ، فقد أخبرني به سيد الوجود ﷺ بقظة في حال الصحة ، لا بنوم ، ولا ينجذب ، ولا سكر ، ولا جنون ، بل متصف بصفات

(٥٨) سورة القصص الآية ٨٣ .

العقل ، أقفوا أثر رسول الله ﷺ بالأمر به ، والنهي فيما نهي عنه ، وليكن معلومك أني من نسل رسول الله ﷺ ، فأني حسي من جهة أبيه ، وأمه كذلك من جهة أمها ، وأبوها عباسي ، والعلم لله . إن لي نية إلى الحسين رضي الله عنه . وأخبرك أن الله فتح على يدنا كثيراً من البلاد ، وانقاد لنا كثير من العباد ممن كانوا تحت حكومة الترك ، فإذا بلغك جوابي هذا . . . إما أن تجاهد في جهاتك إلى مصر ونواحيها إن لم يسلموا ، وإما أن تهاجر إلينا ، ولكن الهجرة أحب إلينا كما علمت فضل الهجرة من زيادة الثواب والمقابلة إن تيسرت ، وعلى كل حال نرد إلينا منك الإبادة بما يصير إليه عزمك من جهاد أو هجرة ، ومثلك تكفيه الإشارة والسلام .^(٥٩)

• • •

لقد بدأت الهجرة ، وكانت استجابة الناس لها سريعة وواسعة . فقد شرع الناس في تعدية النساء والأطفال إلى جهة الغرب ، وتركوا غالب مامعهم من الأمتعة والأموال ، وكانت نفوسهم راضية رغبة فيما أعده الله .^(٦٠) لقد صار للهدى في مآمن من الحكومة ، وأصبح له جيش يتلطف شوقاً إلى الجنة ، وأصبح للموت في الجهاد أملاً وأغنية حلوة ، وقد جر رجل صديقه إلى المحكة ، لأنه تمنى له الحياة طويلة . . . ١ . . . فترك الجهاد بعد ذلك ، إما جهل بقدرة الله ، أو كفر بآيات الله ، أو جهل بعظيم ما عند الله ، أو معرفة بخسة الدنيا ، مع أن الأجل مؤقت معلوم ، وإذا تم الأجل المعلوم ، ومات الإنسان عند انقضاء أجله في الجهاد ، فله من الخير مالا يحصى كما هو معلوم ، وإذا فر وترك

(٥٩) منشورات الإمام المهدي ج ٢ ص ٧٠ وما بعدها .

- منشورات الهدية ص ٧٠ وما بعدها .

- جغرافية وتاريخ السودان ص ٧٠٧ وما بعدها .

(٦٠) سعادة المستهدى سيرة الإمام المهدي ص ١٤٠ .

الجهاد لا يزيد عمره ، ولا يزول عنه المكتوب . بل من فر وترك الجهاد ، وتخلّف عن أمر الله بالجهاد يميتّه الله أشنع ميتة حسرتها تدوم ، ولو كانت هذه الميتة بإقبال في الجهاد لنال مآثال مع عدم الإحساس بألم الموت (٦١) . . .

ويا أحبائي ويا أصحابي : إن الله غي عن عباده ولو شاء أمراً أبمره وقضاه من غير واسطة أحد . وقد أهلك القرون السالفة ، وأهل الأعصار الماضية الذين عصوا أنبياءهم بغير جهاد أحد . ولكن لعنايته سبحانه بهذه الأمة وليكسبوا المزايا الدائمة ، اختار أن يقهر أعداءه سبحانه على أيديهم . ويصي قلوبهم بذلك ، ويختبر إيمانهم وعلمه هنالك فقال :

(أم حسبم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) (٦٢) .

واعلموا أن الله لا يخلف وعده ، فمن كان مؤمناً مصلحاً بقوله تعالى : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) (٦٣) . وقوله تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) (٦٤) وذلك أن من استشهد من المؤمنين أراه الله خزي أعدائه في الآخرة . بعد أن أكرمه الله بما ناله في سبيل الله . وأراه أن المؤمنين إخوانه في الدنيا بعد منصورون . وإن حصلت للكفار دولة في بعض الأحيان فهي لا استدراجهم ولكمال الخزي بهم ، فإن الله عالم بهم . ويده تقلاباتهم وتصرفاتهم وهو خادهم كما أوعدهم بذلك في أكثر من آية . ووعد المؤمنين بالنصر في أكثر من آية منها قوله تعالى : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم

(٦١) من المشور الصادق في ٢٩ من ذي الحجة ١٣٠٠ هـ

(٦٢) سورة آل عمران الآية ١٤٢

(٦٣) سورة الروم الآية ٤٧

(٦٤) سورة طه الآية ٥١

المنصرون وإن جُندنا لهم الغالبون) (٦٥) . فمن ذلك يعلم المؤمن بقيناً أنه إذا حصلت للكافرين دولة في بعض الأحيان فإنما هي استدراج . وذلك لا يدوم ، وإنما العاقبة للمتقين (٦٦) .

« واعلموا أيها الأحباب : أن في الجهاد تصفية الإيمان ، والفوز بحسن رضا الرحمن ، واعلموا أنه لا بد من اختيار التوحيد والإيمان ، وتجرد الصافين والصادقين بالامتحان ، فيظهر عند ذلك ما كان منظوياً في سريرة العبد من الخلوص لله والخسران عند المصائب تنضح الأحوال .

وقد حكى لي بعض الإخوان أنه كان في خلاء يذكر الرحمن فأتى إليه ذيب فحضر في باله أنه لا يخلص إلا بطلوع الفجر ، أو إدراك أحد من الإخوان . فتداركه عند ذلك نور الإيمان . فصرف عنه طائف الشيطان فقال في نفسه : إنه لا ينجي إلا الله الواحد الديان ، فرسى على حقيقة ما في قلبه من التوحيد والإيمان ، فخلصه الله تعالى مما يخاف بتوحيد الرحمن قال تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) (٦٧) .

فاللهو يا أهل الإيمان واعلموا أن المدافع والرصاص اختبار لأهل الإخلاص . وكذلك قعقة السيوف والسنان ، وجميع ما يقع في الحروب وغيرها من المصاعب والشأن . فمن تحقق بالتوحيد علم أن بواطنها ونحركانها بيد الرحمن ، ومن أبعد الله أضله الشيطان فراغ عن توحيد الله ، وخاف من تصرفات العدو في الميدان ، وغاب قلبه عن التحقق ، بأن ملكوت كل شيء بيد الله من جميع الأكوان . وقد حكى بعض الإخوان أنه زاغ من رصاصة ، وتذكر توحيد الله ، وقيامه بكل شيء ، فاعتدل وهجم على الأعداء بقوة صدق الإيمان حتى فرغت

(٦٥) سورة الصافات الآيات ١٧١ - ١٧٣ .

(٦٦) المشور الصادر في ٨ من ذي الحجة ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٤ م .

(٦٧) سورة الأنعام الآية ٨٢

الحراية فرأى عجباً من إكرام الله للقائمين بنصرة دين الرحمن ، فانظروا هذا مع قوله تعالى : (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله) (٦٨) .
 « وإذا كان الأمر كذلك » (٦٩) . فيتعين على كل عاقل أن يتوجه لجهاد أعداء الله حتى يخرجوا إلى الإسلام من أديانهم ، أو تسلب نفوسهم من أبدانهم . فجيوش ذوى العناد مدبرة مدمرة ، وإن كانت يعقوهم مقدمة ومدبرة . وعزيمات رجال الضلال مؤنثة مصفرة ، وإن كانت ذواتهم مذكرة مكبرة ! ألا ترى أن الله تعالى جعل كل مسلم يقلب منهم اثنين ؟ كما قرر سبحانه أن للذكر مثل حظ الانثيين . . . ١ »

• • •

هذه الكلمات البسيطة في تعبيرها ، كانت تشق طريقها إلى قلوب السودانيين ، فيندفعون سراعاً إلى الموت ، طلباً للشهادة ، وأملًا في الجنة وحتى إن أحدهم كان يتزل عن فرسه ، ويقاقل راجلاً ، ويتضاربون بالسكاكين للزحمة والالتحام الحاصل بين الفريقين حتى يسقط المسلم والكافر على الأرض جميعاً ، فتجد رجل المسلم على رأس الكافر ! والعامة حول البرنيطة ! والبرنيطة حول العمة ! (٧٠) ، وكان بعضهم يوصي بعضاً فيقول : إن أصبت قبل أن أتتمكن من الوصول والدخول في وسط العدو ، فاجروا برجلي حتى تلقوني وسط العدو ، لعل أتشقى في أعداء الله ولو بضربة في آخر رمق مني ، فأستريح من شؤم الدنيا (٧١) ، ولم تتخلف المرأة السودانية عن القيام بدور في هذا الجهاد الذي شاركت فيه الرجل ، وكثيراً ما قامت النساء بدور مع الرجال في حملات المهدي ،

(٦٨) سورة آل عمران الآية ١١٥ .

(٦٩) الجزء الرابع من منشورات المهدي - الخطبة السادسة ص ٢٤ .

(٧٠) صلاة المهدي - ص ٣٥٤ .

(٧١) المصدر السابق ص ٢٦٦ .

فقد كانت النساء السودانيات الجالسات ينسولن في شوارع الخرطوم جاسوسات لحساب المهدي ، وهن اللواتي كشفن ضعف دفاع غوردون حول المدينة ، وتسللن ليخبرن المهدي بذلك ، وساعدته على احتلالها . ويقول محمد أحمد محبوب - الرئيس الأسبق لوزراء السودان - : لقد حضرت جدتي لأمي إحدى المعارك مع جدي - وكان قائداً في جيش المهدي - وهي تحمل على ذراعيها طفلة في الثانية من عمرها . نعت الطفلة التي قدر لها أن تكون أُمي ، وإذا برصاصة تكشط كفف الأم ، وتقطع نصف أذن الطفلة ، ولو أن الرصاصة كانت أعلى نصف بوصة لما كنتم تقرأون هذا الكتاب اليوم^(٧٢) .

• • •

إن المهدي لم يكن - فقط - صوفياً وفقهياً ، كان فوق ذلك كله قائداً حريزاً قديراً ، وقد عرف كيف يمزج بين هذه المواهب جميعاً - في ساحة الحرب - ويستخلص منها المثل الذي يجعل الليل ضياءً ونوراً ، ويملأ قلوب أنصاره ثقة وأملًا . فقد ذهب إليه جماعة وقالوا له : يا سيدي . يقول الناس إن الترك قصدوا مدينة الأبيض لبتأصلوا من فيها ، ويمحزوا النساء والذرية ، حتى شاع الخبر في الناس وأرجحوا بسبب ذلك . فالتفت المهدي وقال : أيها الناس أنصتوا ، ثم بصق في كفه اليسرى وقال : أي شيء هذا ؟ قالوا بصاق يا سيدي . ثم طرحه على الأرض فشربه في الحال . ثم قال للناس : هل ترون لهذا البصاق أثراً ؟ فقالوا له : لا . فقال : نحن كالأرض والترك كالبصاق ! ثم قال : إذا طار طائر فأين يتزل ؟ فقالوا له على الأرض . فقال لهم : إن الترك كالطائر ونحن كالأرض ! أيها الناس اثبتوا

(٧٢) الديمقراطية في النيل - تأليف محمد أحمد محبوب - ص ٢٠ - ط دار النهار - بيروت -

واطمئنتوا . وأنزلوا رواحلكم واستريحوا . فإن الزك لا قدرة لهم مع قدرة الله (٧٣) .

وإذا كان ولا بد - في القيادة الصحيحة الناجحة - من توفر عنصرى الإيمان والقدوة ، فقد كان المهدي غنياً عن التعريف بهذين العنصرين الأساسيين في القيادة ، لم يكن يحامل أحداً على حساب هذه الحقيقة ، وقد أدان - وهو على فراش الموت - أقاربه بسبب تصرفاتهم السيئة ، وقد حدث بعد وصول الإنجليز إلى دتقلا ، أن قبضوا على جماعة من أقارب المهدي وقالوا لهم : . . . اكتبوا من عندكم كتاباً إلى المهدي ليرسل لنا أهالينا المأسورين عنده ، ونحن نطلقكم بعد حضور أهالينا . وقد كتب أقارب المهدي كتاباً أجبروه فيه بما حصل لهم ، وبما رغبه الإنجليز منهم . فأرسل المهدي إلى أقاربه يقول لهم :

ليس لنا بكم حاجة . لأنكم ظلمتم أنفسكم ، فلا فرق بينكم وبين الإنجليز عندنا ! ومعاذ الله أن ترتكب ما لا ينبغي لنا بعد قوله تعالى :

(لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) (٧٤) .

وإن كان نظركم إلى القرابة ، فهذه الآية تكفيكم فاصلاً عنا . وفيما حكاها الله عن نوح وابنه ، وإبراهيم وأبيه ، مقنع لأولى الألباب ، وحاصل الأمر أننا لا نجيبكم لما طلبتم ، ولا نشفق عليكم فيما يجرى عليكم من الكفار (٧٥) . . . وقد كنا سابقاً كاتباًكم بالهجرة إلينا لما هاجرتم . . . ورغبتم في مناولة الجيف ومن أراد أن

(٧٣) انظر في هذا الموضوع :

- جغرافية وتاريخ السودان ص ٧٢٢ .

سعادة المهدي سيرة الإمام المهدي ص ٢٣٠

(٧٤) سورة المجادلة الآية الأخيرة .

(٧٥) مشورات الإمام المهدي ج ٢ ص ٣٠٥

يأخذ من الجيف فليصبر على عض الكلاب . . . ! (٧٦) .

• • •

إن المهدي هنا قائد ينظر بعين المصلحة العامة ، لا القرابة الخاصة فلو أنه ومن أمام أقاربه الذين آثروا العافية على الجهاد معه ، لسقطت كل حججه التي يدين بها المتخلفين عنه ، وانفض من حوله أولئك الذين يعانقون الموت بإشارة بسيطة منه ، الدعوة هنا فوق كل شيء ، والعلاقة الوحيدة بينه وبين الناس هي علاقة الإيمان بهذه الدعوة ، وإثارها على كل صلة ، وفي خبره المثل لأقاربه بقصة نوح وابنه ، أبلغ درس وعظة .

• • •

والمهدي لم يكن درويشاً ، لقد أمر بإلغاء هذا اللقب ، وهدد كل من يستعمله بمائة جلده ! «لأن من نفذ قلبه إلى ما عند الله من الخير ، وترك ما في الدنيا من الضر ، لا يسمى درويشاً ، وإنما يسمى عاقلاً ومدركاً وبصيراً» (٧٧) . وبهذا الإدراك والعقل والبصيرة ، كان المهدي يتخذ قراراته ، ويقول كلمته . كان دائماً حاضراً بالبدية متقد الذهن والفكرة ، قوى الشاهد والحجة . كما كان واسع الثقافة كثير الخبرة ، وقد ظهر كل ذلك واضحاً في كتبه ومنشوراته ، وفي تلك الردود الحاسمة التي كان يدافع بها عن مواقفه وتصرفاته ، وفي هذه الرسالة التي بعث بها إلى يوسف حسن الشلالى (٧٨) نموذجاً على تنوع ثقافته وخبراته .

(٧٦) منشورات المهديّة - المنشور الصادر في ٢٠ من جادى الآخرة سنة ١٣٠١ هـ .

(٧٧) منشورات المهديّة - المنشور الصادر في ٢٠ من جادى الآخرة سنة ١٣٠١ هـ .

(٧٨) يوسف حسن الشلالى ناشأ كان قائداً من فواد الجيش الذين كلفهم الحكومة بإخماد حركة المهدي . وقد سار على رأس حملة كبيرة لمهاجمة المهدي في مكان نزوله به «جبل قدير» . وقد علم المهدي بخبر قومه عن طريق الطلائع التي كانت تتجسس لحسابه ، وقد قهر على بعض هؤلاء الجواسيس ، وكتب الشلالى إلى المهدي ينكر عليه هذا العمل ، ويطلب عليه سفك الدماء ، ويطلب منه إرسال ملك من السماء -

الحمد لله المتقم الجبار . والصلاة على سيدنا محمد وآله الأخيار (٧٩)
من الفقير المعصم بمولاه محمد المهدي بن السيد عبد الله . إلى يوسف حسن
الشلالي ومن معه من الجموع .

أما بعد : فإنه قد وصل إلينا جوابكم ، وما ذكرتم فيه من وقوفكم على
مكاتبنا ، وإنكاركم صار معلوماً لدينا (٨٠) ، وكان قصدنا أن نعرض عن إفادتكم
صفحاً ، أو نطوى إجاباتكم كشحاً ، لوقوفكم على الإنذار ومجاهرتكم بالإنكار ،
ولكن أردنا أن نبين لكم غلطكم فيما ذكرتموه في جميع المواضع ، ونوضح لكم
خطاكم فيما ادعينموه بالبراهين الساطع . فنقول : أما قولكم : إنا قتلنا المبكر
غدرًا في « الوقتين » (٨١) قبل أن يحاربونا فهذا كذب صريح ، لأنهم في الوقتين
ابتدرونا بالمহারية والضرب بالسلاح حتى حاربناهم وقتلناهم .

وقولكم : إن الحكومة أرسلتهم ليقفوا على ما عندنا من الأدلة باطل أيضاً
ضرورة ، لأن الحكومة لو أرادت المراجعة والاطلاع على ما عندنا من البراهين
لأرسلت الصلحاء والعلماء أهل المذاكرة والدراية بهذا الشأن ، ولم ترسل العساكر
الأغبياء وتعطيهم الأسلحة !

وقولكم : إنا قتلنا جملة من المسلمين المتوطنين بهذا المكان ظلماً وعدواناً
باطل . لأننا ما قتلنا إلا أهل « الجردة » (٨٢) بعد أن كذبونا وحاربونا ، وقد أخبرنا

- يشهد بأنه مهدي وأمر أخرى كثيرة تكشف عنها هذه الرسالة أو هذا الإنذار . . . وقد هزم الشلال في هذه
الوقعة هزيمة ساحقة ، وكان ذلك في ١٢ من رجب ١٢٩٩ هـ وكان هذا الانتصار أحد المعالم الكبيرة في تاريخ
المهدي .

(٧٩) لم يبدأ المهدي هذه الرسالة بالديباجة التقليدية التي يفتح بها رسائله عادة وهي : الحمد لله
المكرم . والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وإنما افتتحها بهذه الديباجة التي توحى بالتهديد والانتقام .
(٨٠) يتضح من هذا أن المهدي كان قد أرسل للشلال خطاباً ثم رد عليه الشلال بالخطاب الذي يشير
إليه المهدي ويرد عليه .

(٨١) يقصد واقعة « آباء » وواقعة « رشيد » .

(٨٢) اسم جبل .

النبي ﷺ ، وأخبر جميع أهل الكشف بأن من شك في مهديتنا فقد كفر ودمه هدر ، وماله غنيمة ، فحاربناهم لأجل ذلك وقتلناهم .

وقولكم : إن الذين قتلناهم من العسكر مسلمون ومتبعون ما جاء به النبي ﷺ ونسأل عن دمائهم بين يدي الله تعالى باطل لأن القطب الدرديري^(٨٣) قد نص في باب المحاربة على أن أمراء مصر وعساكرهم وجميع أتباعهم محاربون لأخذ أموال المسلمين منهم كرهاً فيجوز قتلهم ، على أن النبي ﷺ أمرنا صريحاً بقتال الترك ، وأخبرنا بأنهم كفار لمخالفتهم لأمر الرسول (باتباعنا ، وإرادتهم لإطفاء)^(٨٤) نور الله تعالى فكيف نسأل عنهم بعد هذا ؟ ١٩ وقولكم : إنكم ضبطتم^(٨٥) أربعة أنفار الطليعة وأذيتموهم ، فاعلموا أنه قد أودى قبلهم أصحاب الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام بالسجن والضرب ، والقتل وجميع أنواع الأذى كبلال وخيب . فليس لهم إلا الثواب ، ولا بد أن يجازيكم الله على ما صنعتم بهم .

وقولكم : إن الطليعة تنافى المهديّة ، لأن المهدي ضرورة يعلم الغيب . جهلا منكم بسيرة الرسول ، فإن النبي ﷺ كان يرسل الطلائع ، وقد قال تعالى لبيّه : (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي)^(٨٦) وقال تعالى : (إنا الغيب لله) هو يعلمه لا غير . وقولكم : ما اتبعنا إلا البقارة ، والجهلاء ، والأعراب ، والجهوس^(٨٧) .

(٨٣) الشيخ الدرديري كان شيخاً من كبار علماء الأزهر الصالحين ، وكان شجاعاً في الحق . وقد دفن في مجده القريب من الحامع الأزهر . في شارع الكحكيين ، وهو شارع قديم مخرج من شارع المزمّلين لله الفاطمي أو مابسي بشارع القروية في القاهرة .

(٨٤) في الأصل : لمخالفتهم لأمر الرسول لاتباعنا وإرادتهم لإطفاء .

(٨٥) أي قبضتم على أربعة أنفار ، وكان المهدي قد أرسل هؤلاء للتجسس على أخبار جيوش الحكومة .

(٨٦) سورة الأنعام الآية ٥٠

(٨٧) المراد بالجهوس هنا من اتبع للمهدي وآمن به من الوثنيين .

فاعلموا أن أتباع الرسل من قبلنا ، وأتباع نبينا محمد ﷺ (هم) الضعفاء ، والجهلاء ، والجهوس الذين كانوا يعبدون الحجر والشجر . وأما الملوك والأغنياء وأهل الترفه فلم يتبعوهم إلا بعد أن يخربوا ديارهم ، ويقتلون أشراهم . وبملكوهم بالقهر . . ونرجو الله أن تكونوا أنتم ومن وراءكم غنيمة للبقارة ، والجهلاء ، والأعراب ، والجهوس وقولكم : قم واحضر عندنا وتوجه بنا إلى محل الهدى مكة المشرقة ، فاعلموا أن توجهنا إنما يكون بأمر رسول الله ﷺ في الوقت الذي يريده الله ، ولنا نحت أمركم ، بل أنتم ومن فوقكم تحت أمرنا . وأنا ولي الأمر الآن على سائر الإنس والجان .

وقولكم : أرسل لنا ملكاً من الملائكة جهل منكم كما قال الله تعالى موحياً كفار قريش : (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا يُنظرون) (٨٨) وقد أخبر تعالى بأنهم لا تفهم الآيات ولا يدلم على الإيمان ظهور المعجزات قال جل وعلا : (ولو أنزلنا عليك كتاباً في قرطاسٍ فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) (٨٩) فالآيات لا تنفع المنكر الجاحد ، وإظهارها إنما يكون بإرادة الله تعالى .

وقد ذكرتم أنكم (كانتمونا) (٩٠) لأن الخديو قال لكم : لا نحاربوه حتى يتعدى الحدود . فاعلموا أنه ما أحرکم عنا إلا الخوف الشديد والجزع الذي ليس عليه من مزيد . لأننا من حين كنا بجزيرة أباء تعدينا حدودكم ، ونخالفنا مقصودكم . فكيف نخاطبوتنا الآن بمثل هذا القول الذي لا ينشأ إلا من ضعفاء العقول . فسارعوا إلى محاربتنا لتأخذوا مناصبكم التي غرکم بها الشيطان ، ولا تتجنبوا وتحرصوا إن كنتم كما زعمتم رجالاً أبطالا أهل دراية بالحرب ، فإنه ليس بيننا

(٨٨) سورة الأنعام الآية ٨ .

(٨٩) سورة الأنعام الآية ٧ .

(٩٠) في الأصل كانتمونا

وينكم إلا السيف^(٩١) !

• • •

إنه مهدي الله وخليفة رسوله ، فمن ذا الذي يقف بعد ذلك في طريقه ، لقد انهار كل شيء وسقط ، وأصبح الاستيلاء على السودان كله مسألة وقت . ولكن الإنجليز لا يريدون للمهدي أن يتصر . إن ذلك يعنى انهار إمبراطوريتهم في الشرق . سيثور المسلمون عليهم في أفريقيا والهند ، وسيحاول الكثيرون تقليده في الثورة على الغرب ، إن أمر السودان لا يهم ، ولكن العبرة من أحداثه تثير في القلوب الفزع والرعب ، وقد تساءلت جريدة « البال مال جازيت » عن السبب في عدم إرسال ضابط كفء ليتولى إجهاض هذه الثورة في المهدي ، ورشحت لهذا الغرض غوردون الجنرال الذائع الصيت .

كان لغوردون شهرة كبيرة ، وكان ملوك العالم يتنافسون لكسب وده ليخدم معهم . كانت شهرة القائد الذي لا يقهر **Leader of the ever victories army** قد سارت بها الركبان ، فقد خدم في الصين ، وكان بطل حصار سياستبول في روسيا ، والكيب تاؤن في أفريقيا ، وقاهر جزيرة « موريشيس » في المحيط الهندي^(٩٢) ، وكانوا يعتبرونه فوق ذلك كله من أبطال المسيحية |^(٩٣)

وصدرت القرارات في القاهرة بتعيينه حاكماً عاماً على السودان . لم يكن

(٩١) منشورات المهدي - ج ٢ - المنشور الصادر في ٤ من رجب ١٢٩٩ هـ وانظر في هذا الموضوع أيضاً :

- للسني بسيرة الإمام المهدي ص ١٦٠ وما بعدها .

- جغرافية وتاريخ السودان ص ٢٦١ وما بعدها .

- منشورات المهدي ص ٣١٠ وما بعدها .

(٩٢) كروي - ص ٣٨ .

(٩٣) المصدر السابق ص ٦٨ .

للقاهرة في هذا الترشيع أمر أو نهى ، كان على الخديو فقط أن يسمع ويطيع ، لقد سقط في شرك الخيانة ، وتأمر مع الإنجليز على الثورة العرابية ، وأصبح - منذ ذلك الوقت في يد الإنجليز العروة . . . ١

• • •

لقد بدأت المرحلة الحاسمة في هذه الحرب بين الثورة المهدية ، وخصومها في لندن والقاهرة ، والتقى الصوفيان^(٩٤) وجهاً لوجه على أرض السودان الساخنة . فهل يسهل عليه - كما تقول مجلة العروة الوثقى - رقية محمد أحمد المهدي بعدما قام بدعوة عظيمة كهذه؟^(٩٥)

إن القضية لم تكن قضية أرض ، يربح فيها المهدي أو يخسر ، ولم تكن المشكلة مشكلة حرب ، يتصرف فيها أو ينهزم ، القضية أبعد بكثير من هذه الظواهر التي ينير لها طلاب الجهد ، لقد عرض عليه أن يكون سلطاناً على « كردفان » فرفض ، وحاول غوردون إغراءه بكل الوسائل ففشل . إنه المهدي المنتظر ، وقد تجددت فيه آمال المسلمين في القرن الثالث عشر^(٩٦) .

لقد صرح اللورد جرانفيل في مجلس اللوردات ، بأن المقاومة التي لاقاها الإنجليز في السودان ، لم يكن القصد منها إلا تمكين سلطة محمد أحمد على البلاد السودانية ، وهذا القول - كما تقول مجلة العروة الوثقى -^(٩٧) « إما غفلة وإما وهم ، فإن القائم بهذه الدعوة لا يقف في سيرة عتد غاية ، ولا يقنع بملك وإنما يريد بسط دعوته في أقطار العالم ، وإحياء الأوامر الإلهية التي جاء بها صاحب شريعته التي يدعى النيابة عنه في تبليغها إلى الناس كافة ، وسواء أكان صادقاً في

(٩٤) كان غوردون متصوفاً ، وكان يرجع إلى الإنجيل ويقرأ فيه دائماً .

(٩٥) العروة الوثقى ص ١٥٥ .

(٩٦) القرن الثالث عشر الهجري - التاسع عشر الميلادي .

(٩٧) العروة الوثقى ص ٢١٩ .

دعواه أم كاذباً ، فلن يتم له أمر ، ولن تتمكن له سلطة في بقعة من بقاع الأرض ، إلا بتقديمه إلى ما وراءها حتى يعلى كلمة دينه ، ويرد إلى الحق من انحراف عنه ، ويكون له التصرف في قلوب المسلمين ، ويأخذ منها مكاناً علياً يشرف منه على مطامع دعواه في غيرهم من الأمم . . .

• • •

ترى هل أصاب جرائيل في تصوره أو خطأ ؟ إن الحكم في هذه القضية يحتاج إلى بينة ووثائق ، وخير ما يمكن عمله أن نترك هذه الوثائق وحدها تتكلم ، أو نشاهد من فوق منصة التاريخ هذا اللقاء بين المهدي وغوردون ، وسرى - من خلال الحوار بين الرجلين - كيف كان جرائيل يهذى وهو يتكلم .

ماذا يفعل غوردون لمواجهة هذا الإعصار ، وإخماد هذه النار ؟ ! الحرب ؟ وهل تجدى الحرب مع رجال غابتهم الموت ؟ لقد كان أنصار المهدي سيكون حيناً إلى الشهادة ، ويستقبلون المدافع بوجوه باسمة ، ويلقى الواحد منهم نفسه وسط الألوف من جنود العدو المدججة بال سلاح والذخيرة .

ولكن غوردون لا تعجزه الحيلة ، لقد تعامل من قبل مع كثيرين عرف كيف يتغلب عليهم ، ولن يكون المهدي - كما حدثه نفسه - أخطر منهم ، وبدأ يفتح ملفاته ، ويخرج أسلحته ، وهنا نترك المجال قسباً أمام الرجلين لنرى كيف يديران المعركة ! وكيف كان الحوار بينهما في هذه المرحلة ! وقد بدأ غوردون فكتب إلى المهدي هذه الرسالة :

فخر الأمراء المكرمين ، وقدوة الأولياء الصالحين . حضرة سيدنا ومولانا السيد محمد أحمد بن عبد الله حفظه الله آمين .

بعد إهداء السلام ، وزيادة التوقير والاحترام لسموكم نخبر حضرتهم أني قد تعبت والياً على السودان باتفاق كل من الحكومة الحديوية ، ودولة بريطانيا لتسوية حال السودان بناء على ما طرأ عليها في مدة السنين الأخيرة من انتشاب الحروب .

وسفك دماء المسلمين ، وقطع الطريق على أبناء السبيل ، الذين يقصدون التوجه لزيارة قبر النبي عليه السلام . والذين يريدون السعى على معاشهم من التجار ، والمتسعين^(٩٨) ، وقد شق علينا ذلك كثيراً كما ونعلم أن حضرتكم لا يخلصكم هذا الأمر فغاية ما نريده الآن جنابكم يا حضرة السيد أنه باتفاقنا سوياً ننظر ما فيه حقن دماء المسلمين ، وسلوك الطرق ، ومداولة المواصلات يتنا وينكم بقاية المحبة والمودة بحسب ما يرضى الله ورسوله ، وأن تأذنوا وتكرموا بإطلاق الناس المأسورين . عندكم من إسلام ومسيحين لمناظرة عيالهم والتوصية بهم ، كما أننا شكرنا لفضلكم كثيراً على صنع معروفكم معهم . وإن كان حضرتكم تريد أن تكون سلطاناً على كردقان ، فقد أعطيناها لكم لتكون سلطاناً وأميراً عليها ، وأريد أن ترسلوا واحداً صغيراً معتمداً من طرفكم لأجل مقابلتنا في الخرطوم ، والتروى فيما هو لازم يتنا بخلوص النية ، وحسن الطوية ، ولأجل إعطائه ما هو لازم من عواميد - أعمدة - وسلوك التفراف لتجديد ما سبق إتلافه بواسطة العربان ، ومداومة المواصلات يتنا ، ويرسل لطرف حضرتكم فرمان من لدن السلطان المعظم بتأييد حضرتكم على حكومة كردقان . واعلم يا حضرة السيد أني أريد أن أكون معكم بقاية المحبة والمودة ، ولا أقصد إلا كل خير ، ورجائي أن تكرموا علينا برد الخطاب . . . والله الموفق للصواب^(٩٩) . . . ١٦ ربيع الآخر ١٣٠١ هـ .

هوردون

• • •

(٩٨) المتسعين هم صغار الحرفيين والتجار . وقد سماهم بهذا الاسم لانخفاضهم بعض الأهمال سبباً للحصول على الرزق ، وهم في الغالب من الفقراء الذين يجتهدون في عمل للمعيشة . وهذا الصبر شائع إلى اليوم في مصر والسودان .

(٩٩) منشورات المهديّة - دكتور محمد إبراهيم أبو سليم . ص ٣١٩ وما بعدها .

الحمد لله الوالى الكريم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله والتسليم
وبعد : فمن عبد ربه محمد المهدي بن السيد عبد الله إلى عزيز بريطانيا والهندوية
غوردون باشا وصل جوابك إلينا ، وفهمنا ما فيه ، والحال أنك ترعم إرادة إصلاح
المسلمين ، وفتح الطريق لزيارة قبر النبي ﷺ ، واتصال المودة فيما بيننا وبينكم ،
وحل المأسورين من النصارى والمسلمين ، وأن تجعلنا سلطاناً على كردفان .
فأقول - والأمر لله - إني قد دعوت العباد إلى صلاحهم ، وما يقربهم من
ربهم ، وأن يفرغوا من الدنيا الفانية إلى دار البقاء ، وليعلموا بما يصلحهم في
آخرتهم ، وقد كتبت إلى الحكمدارية في الخرطوم وأنا بـ « أبا » بدعائني إلى الحق ،
وبأن مهديتي من الله ورسوله وليست في ذلك بـ (محتمل) (١٠٠) ولا أريد ملكاً ولا
مالاً ولا جاهاً ، وإنما أنا عبد أحب المسكنة والمساكين ، وأكره الفخر وتغفر
السلطين لما جبلوا عليه من حب الجاه والمال والبنين ، وهذا هو الذي صدهم عن
صلاحهم ، وأخذ نصيبهم من ربهم ، فأخذوا الفاني ، وتركوا الباقي واشتغلوا بما لا
يكون (إلا) (١٠١) من الفانيات ، ولم يسموا قول الله ورسوله ، ولم يذكروا خير
القرون الذين لم يقن عنهم ذلك شيئاً ، وندموا على قدر الذي تنعموا به ، فأبدى
الله تعالى بالمهدية الكبرى لدلائهم إلى الله تعالى ، وليتركوا العز الفاني ، والنعم
الفاني إلى العز الدائم ، والنعم الأبدي في دار النعم المقيم ، وقد قال المسيح عليه
السلام : ابنوا على موج البحر داراً لكم . فلا تتخذوها قراراً . ومن ظن أنه يخوض
البحر من غير بلل فهو مغرور وكذلك من ظن أنه يجمع الدنيا ويريد بها ويكون له في
الآخرة شأن . . .

فأنب إلى الله الباقي ، واخضع لجلاله واطلب عز الآخرة ، ولا تظن أن هذه
الدنيا دار حتى تسعى للملكها وعزها ، وكيف من يكون على خلاف سكة رسول الله

(١٠٠) في الأصل . محيل .

(١٠١) ساقطة في الأصل .

بفتح باب زيارة قبره ؟ ولم يكن النبي ﷺ ممن يرغب في زيارة الكلاب كما ورد :
« إن الدنيا جيفة وطلابها كلاب » ، ولم يرغب في من عبد غير الله ، ونسى الله ،
وأعرض عن كلامه ، وطلب متاع الحياة الفانية . !

فإن كنت شقيقاً على المسلمين فبالأولى أشفق على نفسك وخلصها من سخط
خالقها وقومها على اتباع دين الحق ، واتباع سيدنا محمد ﷺ الذي أحيا ما
اتدرس من ملل الأنبياء والمرسلين ، وأتى مصداقاً لما بين يديه من الكتب ، فجميع
الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لو حضروا لما سلكوا غير ملة ، وكلهم يتمنون أن
يكونوا من أمة ومن حضر بعثه !

فظهر نفسك أولاً بالدخول في ملة ، ثم أشفق على أمة بسلوك مسته ! فعند
هذا . فأنت الشقيق ، ومن غير هذا فأنتك من المحققين رفيق ! كيف وقد قال الله
تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِلُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ
بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) . . . إلى أن
قال : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ
الْغَالِبُونَ) (١٠٢) . وإنا قد امتثلنا أمر الله ، وما نتخذ ولياً إلا الله ورسوله والمؤمنين !
وعلى ذلك فقد وعدنا بالغلبة كما سمعت من قول الله هذا . . . ومادام الله يقول :
(هُمُ الْغَالِبُونَ) فلا غلبة لغيرهم . . . !

فإن رجعت عما أنت عليه - من ملة غير الإسلام - وأنبئت إلى الله ورسوله
واخترت الآخرة تتخذك ولياً ، وتكون من إخواننا ، وتكون المودة المطلوبة عند الله
ورسوله ، وتكون ممن امتثل أمر الله ورسوله بعد هذه الآيات فاستحق الوعد
والبشارة في قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكُنَّا عَنْهُمْ سِتًّا)

(١٠٢) سورة المائدة من الآية ٥١ إلى ٥٦ .

ولأدخلناهم جنات النعيم) (١٠٣) فبعد هذا تتصل المودة والمحبة فيما يتنا وينك ، وتكون ممن عمل بالقرآن والتوراة والإنجيل ، وتكون قد اتبعت - باتباع سيدنا محمد ﷺ - عيسى وجميع الرسل والنبيين وحزت الخير الأبدى . وإلا حيث علمت . إن حزب الله الذين وليهم الله ورسوله والذين آمنوا : هم الغالبون . فاعلم أن حزب الله واصل إليك ، ومزبل لك عما شاركت به الله خالفك (فادعيت) (١٠٤) ملك عباده وأرضه . مع أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين . وأما المسلمون والمسيحيون الذين دعوت (إلى إطلاق سراحهم) (١٠٥) فأنا أريد لهم الصلاح والنفع عند الله ، وفي دار الأبد ، كما أريده لك ولكافة عبادة الله ، فلا أبطلهم من جنتهم إلى محنتهم ! فإن الله قد أبدى رحمة للعباد لأنقذهم من الهلاك الذي وقعوا فيه .

وقد أبدى الله تعالى بالأنبياء والمرسلين ، والملائكة المقربين ، وجميع الأولياء والصالحين لإحياء دينه ، وقد بشرني النبي ﷺ بأن جميع من يلاقيني بعبادة يجذله الله ويهزمه . . . فلا تغتر فتهلك كما هلك إخوانك . فافهم وسلم . تسلم . . ! وأما الهدية التي أرسلتها لنا فعلى حسب نية الخير ، فجزاك الله خيراً وهداك إلى الصواب . . . واعلم أنه كما كتبنا لك أنا لا نرغب متاع الحياة الدنيا وزينتها ، وإنما هي قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب ، وها هي عائدة إليك مع ما نرغبه من اللباس لأنفسنا وأصحابنا الذين يريدون الآخرة ويرغبون فيما عند الله من الخير الباقي الأبدى

ثم إن مثل هديتك هذه عندنا كثير ، ولكن أعرضنا عنها طلباً لما عند الله وأقول لك في ذلك كما قال سليمان عليه السلام بلقيس : (أتسلطوني بما لي لما آتاني الله خير

(١٠٣) سورة النمل الآية ٦٥ .

(١٠٤) في الأصل : فادعيت .

(١٠٥) في الأصل : دعوت بطلقهم .

بما آتاكم . بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع إليهم فلنأتينهم بخير لا قبل لهم بها .
ولنخرجتهم منها أذلة وهم صاغرون (١٠٦) .

... واعلم أنك إذا أتيتنا مسلماً نريك قريك من النور ما يطمئن به قلبك ،
ويزول به طمعك في الدنيا وما فيها . وبعد هذا البيان : فإن اهتديت وسلمت لي ،
وانبعتى حزت شرفي الدنيا والآخرة ، وفزت بأجرك وبأجر جميع من اتبعك . وإلا
هلكت ، وكان عليك إثمك ، ومثل آثام جميع من اتبعك (١٠٧) ...

• حاشية •

باطلاحك على ما تدون بالجواب إليك تعلم باطنه ، وبه كنسوة الزهاد أهل
السعادة الكبرى ، الذين لا يبالون بما فات من المشتيات ، طلباً لعالى الدرجات .
وهى جبة ورداء ، وسراويل وعامة ، وطاقية وحزام وسبحة !
فإن أتيت إلى الله ، وطلبت ما عنده ، لا يصعب عليك أن تلبس ذلك وتوجه
لدائم حظك . وما هو الرسول الذى أتى منك واصل إليك مع رسل من
عندنا (١٠٨) ...

• • •

من غوردون باشا والى السودان إلى محمد أحمد المتهدى !
وصلنى كتابك الركيك العبارة ، العارى عن المعنى الدال على سوء نيتك وخيـ
طويتك ، وعن قريب ستبلى بجيوش لا طاقة لك بها ، وتكون أنت المسئول أمام الله
عما يسفك من الدماء ، كما أنك أنت المسئول الآن عمن أعميت قلوبهم ، وغشيت

(١٠٦) سورة النمل : الآيتان ٣٦ . ٣٧ .

(١٠٧) مشروحات الإمام المهدي ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها . حفرلية وتاريخ السودان ص ٧٧٨
وما بعدها .

(١٠٨) مشروحات الإمام المهدي ج ٢ ص ١١٧ .

بصائرهم ، وبنمت أطفالهم . وخربت ديارهم وكنت لا أرى حاجة إلى مخاطبة رجل مثلك جاحد النعمة ، عادم اللذة لكنى تعلقت بأذيال الأمل ، راجياً من الله عز وجل أن يتجلى على فكرتك الخامدة . فطلق النسيحة بيد القبول ، وتعلو متن سلطنة مكتك منها وكان دون نيلها خرط القتاد . وها أنا مستعد لقدمك ، ومعى رجال أقطع بهم أنفاسك . والعاقل من تدبر والسلام (١٠٩) .

غوردون

• • •

من العبد المعنص بمولاه محمد المهدي بن عبد الله إلى غوردون باشا . . هداه الله قبل أن يتلاشى ! آمين .

نعلمك أن جوابك رد المحرر منا وصل إلينا ، وفهمنا مضمونه وقد عذرناك في عدم إذعانك وإجابتك لنا ، بالطاعة كما طلبنا منك وذلك لأنك لم تدرك الحقيقة التي نحن عليها ، وبحسب مقامنا ودلاتنا إلى الله ، وشفتنا على جميع خلق الله . حتى من هو مثلك لم يطب قلبنا بصرف النظر عنك ، ولا زلنا ندارجك عسى الله أن يديك إلى سواء السبيل . فأجب داعي الله ، واغنم سلامتك من الشر الويل ، فقد رأيت ما حل ونزل ولازلت ترى ، ولا طاقة لك ، ولا لأعوانك بحرب جند الله عز وجل ، وقد ذكرت أن عبد القادر ولد أم مريم ، حييك ، وتقبل قوله ونصيحته . وطلبت إرساله إليك فعل ماذا ؟ هل أنت منيب إلى الله ؟ وتصدق التسليم لنا على يد المذكور ؟ أم أنت على تصميحك في إعراضك ومعاداتك لربك ؟ فأفدنا لنعلم طلبك له هو على أي الوجهين ، ونرسله لك أن رأينا في ذلك صلاحاً للدين .

وأقول لك : إن عزة الإسلام خير لك وأبقى لدوام احترامك في الدارين فاحل

(١٠٩) جغرافية وتاريخ السودان - نعيم شفيق - ص ٧٨٣ .

بها إن عقلت (١١٠) .

« فإن أراد الله بمعادتك ، وقبلت نصحي ، ودخلت في أمانتنا وضماننا فهو المطلوب ، وإن أردت أن تجتمع على الإنجليز الذين أخبرنا رسول الله بهلاكهم فوصلك إليهم . قالى منى تكذينا وقد رأيت ما رأيت ؟ وقد أخبرنا رسول الله بهلاك من في الخرطوم قريباً إلا من آمن وسلم ينجيه الله ، ولذلك أحيت لك ألا تهلك مع المالكين ، لانا قد سمعنا مراراً فيك الخير ، ولكن على قدر ما كاتبناك للهداية والسعادة ما أجبنا بكلام يؤدي إلى خيرك كما نسمة من الواردين والمتريدين والآن ما ينسنا من خيرك وسعادتك . وسنكب لك آية واحدة من كتاب الله عسى الله أن يسر هدايتك ، وطالما كاتبناك لترجع إلى وطنك . (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً) (١١١) .

• • •

هذا هو المهدي في تفكيره ودعوته ، وذلك هو غوردون في عناده وتصلبه أن القائد الذي لا يقهر لا يريد أن يعترف بقائد آخر لا يهزم ولا يقهر . . . فلا يزال غوردون أسير أنجاده السابقة وأحلامه . ماذا عليه لو حقن الدماء وأوقف الحرب ؟ إنه غرور العظمة ، وميراث الصليبية ، وكبرياء رجل يرى الأفارقة والمسلمين عبيداً ووحوشاً مفترسة .

والحروب لا تدار بمثل هذه العقلية . والحرب كروفر ، وعقل وفن ، وإعداد وتخطيط ، والقائد الحكيم هو الذي يزن الأمور بتجرد كامل عن هوى النفس . وغوردون لم يكن حكيماً . « كان - كما يصفه اللورد كرومر - مندفعاً منهوياً ، ونادراً ما كان بصير على رأى . ويبدو أنه كان خلواً من أية موهبة عظيمة

(١١٠) مشورت الإمام المهدي ج ٢ ص ٢٥١

(١١١) مشورت الإمام المهدي ج ٢ ص ٢٥٢

القيصة ، (١١٢) .

وقد دفع في النهاية غمز طيشه ونهوره . وانتهت حياته بمأساة لم تكن في نظره . المهدي يزحف إلى العاصمة وجيوشه المظفرة تهتف مهلة ولكنه - أي المهدي - لا يريد حرباً ، إنه يريد أن يدخل المدينة صلحاً ، فكتب إلى غوردون في اللحظات الأخيرة قائلاً : « لولا مراعاة جسم دماء المسلمين لضربت صفحاً عن مخاطبتك ، فلم تعلم أنت ومن معك ، وقد نصحتك وأنصحتك وإلا فالحرب بعد ذلك ، (١١٣) .

فكتب إليه غوردون قائلاً : « لست أبالي بك ولا بجيوشك . . سترى ما يحل بك . . فني الكفلاء لأن أعرفك قدوك ، ولا تغرنك كثرة أنصارك ! » (١١٤)

• • •

وأقبل التاسع من ربيع الآخر سنة ١٣٠٢ هـ - الموافق ٢٦ من يناير ١٨٨٥ م فأمر غوردون أن تعزف موسيقى الجيش . وكأنما أحس الرجل بدنو أجله فأراد أن يسمع أغنية الوداع ! ولكن الجيش الذي يريد أن تعزف موسيقاه لا يقدر أفراداه على التنفس ، لقد أجهدهم الحصار والجوع واليأس . وأصبح الموت أمنية يتمناها الكثيرون من أفراد هذا الجيش . . . !

ما هي نهاية كل هذا ؟ لقد وجه غوردون هذا السؤال إلى نفسه إنها ولا محالة قدر مكتوب في سجل الأزل أن الخرطوم ستؤخذ عنوة . ولكن إني لن أنال حياً (١١٥) ثم أمر بوضع الدبناميت في أقبية القصر . كي ينسف بمن فيه إذا لزم الأمر . ولكن الانتحار جريمة ، إنها أكبر هزيمة يتعرض لها بطل . وقد كان غوردون

(١١٢) النيل الأبيض ابن مرعبد ص ٢٧٨ .

(١١٣) جغرافية وتاريخ السودان ص ٨٤٧ .

(١١٤) المصدر السابق ص ٨٤٧ .

(١١٥) مهدي نخه ص ١٠٢ .

في نظر نفسه بطل الأبطال فكيف ينهزم ؟ !

الله أكبر . . .

لقد انهارت قلاع الظلم ، وسقطت الحصون في يد الأنصار حصناً بعد حصن .
وتلاشى كل أثر للمقاومة في صفوف العدو ، وحانت اللحظة الرهيبة بين غوردون
وضحايه في ساحة القصر .

كان غوردون واقفاً عند رأس السلم بثيابه العسكرية ، وما كاد يرى جموع
الأنصار متجهة نحوه حتى صاح فيهم قائلاً : (١١٧)
- أين محمد أحمد ؟

إن غوردون لم تفارقه كبرياؤه حتى هذه اللحظة ، وهو موقف شجاع لا يلام
عليه في الحقيقة .

يا ملعون . . هذا يومك . . . ! (١١٨)

وقذف أحد المهاجمين بحربة لتستقر في الصدر ، وسقط القائد الذي لا يقهر
مضرجاً بدمائه على سلم القصر . . . !

... .

وكانت نهاية فصل من فصول المأساة التي تعرض لها الإسلام في القرن التاسع
عشر ، وبداية فصل جديد من فصول تلك الغارة التي شنت - على الإسلام
والمسلمين - في كل أرض وقطر ، فقد تناولت الصحف - في إنجلترا وأوروبا مأساة
الخرطوم بالتطيق والوصف واتسمت لمجتها بالغضب والتهديد والعنف ، وحرضت
حكوماتها على العمل والأخذ بالتأثر .

وكان يوماً حزيناً في لندن . فقد مات شهيد المسيحية البطل ، وتوقفت ساعات

(١١٦) جغرافية وتاريخ السودان ص ٨٦٧

(١١٧) مهدي الله ص ١٠٣

(بيج بن) عن العمل . وكانت الملكة فكتوريا كما يصف سكرتيرها - في حالة
فضيلة .

كانت تهم بالخروج حين تلقت بركة « وفاة غوردون » فخرجت إلى مكفى على
مسافة ربع ميل ، وسارت إلى حجري شاحبة ترنجمف وقالت لزوجتى - التى جزعت
لمرآها - قات الأوان (١١٨) .

أجل . قات الأوان ، وتحمر السودان ، ورفرت أعلام المهديّة فوق ربوعه في
كل مكان ! ! !

(١١٨) القيل الأبيض - فن مرهيد - ص ٢٧٥

الفصل السادس

المهدي السلفي

السلفية . . والسلفيون . .

يقصد بهذه التسمية أولئك القوم الذين ظهوروا في القرن الرابع الهجري ، وكانوا من المخالفة للذين تقوم آراؤهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الذي أحيا عقيدة السلف ، وكان متشدداً في الالتزام بالنص الذي جاء به القرآن ، وبما ورد صحيحاً عن رسول الله ﷺ من الأحاديث ، وقد تجدد ظهورهم في القرن السابع الهجري بقيادة شيخ الإسلام ابن تيمية ، ثم بعثت هذه الحركة من جديد في القرن الثاني عشر الهجري على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية . وكان جوهر هذه الدعوة هو العودة إلى القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية . فالقرآن وصحيح السنة هما الحكم الوحيد في تقرير الحكم الشرعي فلا حلال إلا ما حلاله ، ولا حرام إلا ما حرماه . والحق كل الحق فيما قرراه وأثبتاه .

وحين كان القرآن والسنة هما المصدر الوحيد للسلف الصالح من هذه الأمة والمرجع الوحيد في شئون الدين والعقيدة حين كان الأمر كذلك . بقيت عقيدة الأمة تقية وقوية ، وبقيت صفوفها متحدة مترابطة ، وعز شأنها ديناً ودنيا .

على هذا المنهج كان الصحابة ، وحذا حذوهم السلف الصالح من الأمة ثم خلف من بعدهم خلف بدلوهم وغيروا ، وأضافوا وابتدعوا . وصاحب هذا التبديل والتغيير تعصب وتمزق . وشتات وتفرق . وانقسمت الأمة الواحدة الموحدة ، إلى

فرق وطوائف . ومذاهب ومدارس ، وكل فريق يزعم أنه الناجي ، وكل حزب بما لديهم فرحون .

ولم يكد يبدأ القرن السابع الهجري حتى . . . كان المسلمون قد انحطوا إلى أسفل درك ، واجتاحت بلادهم جحافل التتر . وشاع التقليد الجامد إلى حد أن أصبحت المذاهب الفقهية والكلامية كأنها ديانات مستقلة وأصبح الاجتهاد معصية ، والرجوع إلى الكتاب والسنة جريمة . وتكون من العوام الجهلة ، والعلماء الجامدين أولى النظر الضيق ، والحكام الفاشمين الظلمة . . . تكون من كل هؤلاء اتحاد ثلاثي عجيب ، لم يكن القيام في وجهه لإصلاح الأمر بأهون من مصافحة الموت^(١) .

كان ليلا شديد السواد كثيف الظلمة ، وكما ينشق الماء من الصخر ، ويخرج اللبن من بين قرث ودم ، خرج إلى الوجود في عام ستائة وواحد وستين هجرية إمام جليل عظيم الشأن ، وكان ابن تيمية هو ذلك الإمام الجليل القدر . كان ابن تيمية إماماً في الحديث . حتى قيل : إن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث . وكان من علو كعبه في الفقه أن نبأ بحق مقام الإمام المجتهد المطلق ، وكان المقدمون في علوم الفلسفة والكلام والمنطق يحلون أمامه كما يحل التلميذ ، زد على ذلك جرأة وشجاعة لا يخاف معها قوة مها بلغت في الجهر بالحق . وقد دخل بسبب ذلك السجن مراراً . وفيه قضى نحيبه في نهاية الأمر^(٢) .

ماذا فعل ابن تيمية ؟ وماذا كان موقفه من التيارات والمذاهب الفكرية المعاصرة ؟

لقد نظر فوجد أن طرائق العلماء في فهم العقائد الإسلامية تنقسم إلى أربعة أقسام :

(١) موجز تجديد الدين وإحياله ص ٨٦ وما بعدها

(٢) موجز تخطيط الدين وإحياله ص ٨٧

القسم الأول : الفلاسفة . وهؤلاء يقولون : إن القرآن جاء بالطريقة الخطائية والمقدمات الإقناعية التي تقنع الجمهور . ويدّعون أنهم أهل البرهان واليقين ، والعقائد طريقها البرهان واليقين .

والقسم الثاني : المتكلمون ، أي المعتزلة ، وهؤلاء يقدمون قضايا عقلية قبل النظر في الآيات القرآنية . فهؤلاء يأخذون بالتوعين من الاستدلال . ولكن يقدمون النظر العقلي على الدليل القرآني .

والقسم الثالث : طائفة من العلماء تنظر إلى ما في القرآن من عقائد فتؤمن به ، وبما فيه من أدلة ، فتأخذ به لا على أنه أدلة هادية مرشدة موجهة . بل على أنها آيات إخبارية يجب الإيمان بما اشتملت عليه من غير أن يتخذ مضمونها مقدمة للاستنباط العقلي .

والقسم الرابع : قسم يؤمن بالقرآن - عقائده وأدله - ولكنه يستعين بالأدلة العقلية بجوار الأدلة القرآنية^(٣) .

وقد رفض ابن تيمية هذه المواهب كلها ، لأن منهاج السلف ليس واحداً منها ، بل هو غيرها . لأن العقائد لا تؤخذ إلا من النصوص . ولا تؤخذ أدلتها إلا من النصوص . وينتهي ابن تيمية من هذا كله إلى أنه لا سبيل لمعرفة العقيدة عند السلف . وكل ما ينصل بها إجمالاً وتفصيلاً واعتقاداً واستدلالاً إلا من القرآن والسنة^(٤) .

وكانت أهم مسألة شغلت ذهنه هي مسألة التوحيد ، والوحدانية في العبادة معناها ألا يتجه العبد في العبادة إلى ما سوى الله . وذلك يقتضي أمرين : ألا يعبد إلا الله وحده ، فمن أشرك مع الله تعالى شخصاً أو شيئاً فقد أشرك من سوى بين

(٣) انظر هذا الموضوع : تاريخ المذاهب الإسلامية للفتية المصري الشيخ : محمد أبو دهر ج ١ ص

المنطوق والمخالف في شيء من العبادة فقد جعل مع الله تعالى شريكاً (٥) ، فليس الإسلام مبنى على أصليين : أن يعبد الله وحده ولا يشرك به ، وأن يعبد بما شرعه على لسان نبيه ، وحدان ما خلقه مولداً : فشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله (٦) . وقد بين الله هذا التوحيد في كتابه ، وحسم مراد الإشراف به حتى لا يخاف أحد خيرا الله ، ولا يرجو سواه ، ولا يتوكل إلا عليه ، وقد كان النبي ﷺ يخلق هذا التوحيد لأمته حين قال لهم : لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ما شاء الله ثم ما شاء محمد ، وقال لرجل قال له : ما شاء الله وشئت : أجمعتني لله نداً ؟ وقال : من حلف بغير الله فقد أشرك (٧) .

ومادام الله سبحانه هو المستحق للعبادة ، وهو وحده المتفرد بالربوبية وهو وحده مالك الأمر في الدنيا والآخرة ، فإنه لا ينبغي لأحد أن يتوسل إليه بغيره ، أو يوسطه بينه وبينه أحداً من خلقه ، أو يستغيث بأحد من أنبيائه وأوليائه بعد موته ، فن أثبت وسائط بين الله وخلقته كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية فهو شرك (٨) ، والله لم يجعل لأحد من المخلوقين - سواء أكان نبياً أم ملكاً - أن يقسم به ويتوكل عليه ، وقد تهدد الله من دعا شيئاً من دون الله ، وبين أنهم لا ملك لهم مع الله ، ولا شركاء في ملكه ، وأنه ليس له عون ولا ظهر من المخلوقين فقطع تعلق القلوب بالمخلوقات رغبة ورهبة وعبادة واستغاثة (٩) ، كما أنه لا يجوز لأحد أن يستغيث بأحد من المشايخ الغائبين والميتين لأن ذلك كله شرك (١٠) .

(٥) قاعدة جلية التوسل والوسيلة - تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية - ص ١٥٨ ط المكتب الإسلامي - ١٣٩٠ هـ .

(٦) المصدر السابق - ص ١٥٨ .

(٧) الوسيلة بين الخلق والحق - تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية - ص ١٩ ، ط المكتبة الطحلبية - لاهور .

(٨) الوسيلة بين الخلق والحق ص ٢١ .

(٩) قاعدة جلية في التوسل والوسيلة ص ١١١ .

(١٠) المصدر السابق ص ١٥٤ .

المخلوق والمخلوق في شيء من العبادة فقد جعل مع الله آلهة أخرى^(٥) ، فدين الإسلام مبنى على أصليين : أن يعبد الله وحده ولا يشرك به ، وأن يعبد بما شرعه على لسان نبيه ، وهذان هما حقيقة قولنا : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله^(٦) ، وقد بين الله هذا التوحيد في كتابه ، وحسم مراد الإشراك به حتى لا يخاف أحد غير الله ، ولا يرجو سواه ، ولا يتوكل إلا عليه ، وقد كان النبي ﷺ يحقق هذا التوحيد لأمنته حين قال لهم : لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ما شاء الله ثم ما شاء محمد ، وقال لرجل قال له : ما شاء الله وشئت : أجمعتني لله نداً ؟ وقال : من حلف بغير الله فقد أشرك^(٧) .

ومادام الله سبحانه هو المستحق للعبادة . وهو وحده المتفرد بالربوبية وهو وحده مالك الأمر في الدنيا والآخرة ، فإنه لا ينبغي لأحد أن يتوسل إليه بغيره ، أو يوسطه بينه وبينه أحدًا من خلقه ، أو يستغيث بأحد من أنبيائه وأوليائه بعد موته ، فن أثبت وسائط بين الله وخلقته كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك^(٨) ، والله لم يجعل لأحد من المخلوقين - سواء أكان نبياً أم ملكاً - أن يقسم به ويتوكل عليه ، وقد تهدد الله من دعا شيئاً من دون الله ، وبين أنهم لا ملك لهم مع الله ، ولا شركاء في ملكه ، وأنه ليس له عون ولا ظهر من المخلوقين فقطع تعلق القلوب بالمخلوقات رغبة ورهبة وعبادة واستغاثة^(٩) ، كما أنه لا يجوز لأحد أن يستغيث بأحد من المشايخ الغائبين والميتين لأن ذلك كله شرك^(١٠) .

(٥) قاعدة جلية التوسل والوسيلة - تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية - ص ١٥٨ ط للكتب الإسلامية - ١٣٩٠ هـ .

(٦) المصدر السابق - ص ١٥٨ .

(٧) الوسطة بين المخلوق والمحق - تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية - ص ١٩ ، ط للكتبة العلمية - لاهور .

(٨) الوسطة بين المخلوق والمحق ص ٢١ .

(٩) قاعدة جلية في التوسل والوسيلة ص ١١١ .

(١٠) المصدر السابق ص ١٥٤ .

فشهادتنا « أن لا إله إلا الله » تقتضي ألا نعبد غيره وشهادتنا « أن محمداً رسول الله » تقتضي أن مهمة الرسالة نبيان الطريقة المرضية لله في عبادته ، وأن الخروج عن هذه الطريقة يتنافى مع هذه الشهادة بل يقتضها^(١١) .

ولم يقف ابن تيمية عند هذا الحد ، فقد دعا إلى فتح باب الاجتهاد ، وشدد النكير على القائلين بإغلاقه ، كما حارب الجمود والتقليد والتعصب ، وكان يقول ما قاله الإمام أحمد : لا تقلدني ، ولا تقلد مالكا ولا الشافعي وتعلم كما تعلمنا ، وحرام على الرجل أن يقلد في دينه الرجال ، فإنهم لم يسلوا أن يغفلوا والتفقه في الدين لمرض ، فمن لم يعرف ذلك لم يكن متفهماً في الدين^(١٢) .

وكان ابن تيمية جريئاً شجاعاً ، فلم يحامل في النقد فريقاً على فريق ، ولم يترك طائفة دون أخرى . فكان بحق الناقد « الراديكالي » إذا جاز أن يطلق عليه هذا الوصف . وقد نادى بأن يرجع المسلمون إلى الكتاب والسنة قبل أن يرجعوا إلى القياس والرأي . كان يريد إسلاماً ووجهة إسلامية أساسها الكتاب والسنة .

هذا - باختصار شديد - هو ما دعا إليه ابن تيمية ، وكان خلاصة لمعظم آرائه وتعاليمه ، لكن هذه الآراء والتعاليم .. لقيت خير تعبیر عنها في حركة مفعمة قامت خلال القرن الثاني عشر الهجري - الثامن عشر الميلادي - على رمال نجد التي وصفها ماكديونالد Macdonald بأنها أظھر بقعة في عالم الإسلام الذي دب فيه الانحلال ، وكانت هذه الحركة حركة محمد بن عبد الوهاب^(١٣) . ولم تكن هذه الحركة في جوهرها إلا إحياء لتعاليم ابن تيمية ، وصورة جديدة لأفكاره وفكره ، فهذه الحركة لم ترد بالنسبة للعقائد شيئاً عما جاء به ابن تيمية ، إلا أنها

(١١) المبردة - تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية . ص ١٧٠ ط المكتب الإسلامي - ١٣٩٢ هـ .

(١٢) محاضرات في الفكر الإسلامي - الدكتور محمد الهبي - ص ٥١ .

(١٣) تجديد الفكر الديني - للعلامة إقبال - ص ١٧٥ .

تشددت في أمور لم تكن شائعة في عصره ولم تشتهر في عهده^(١٤) فقد حرموا التدخين والتصوير الفوتوغرافي . وكانوا يجاربون القهوة في أول الأمر . وتوسعوا في معنى البدعة توسعاً يكاد يخرج صاحبها من العقيدة^(١٥) ولم تقتصر هذه الحركة على الدعوة المجردة ، بل حملت السيف لهابية المخالفين من أهل البدع . لأن البدع منكر ، وكل منكر يجب إزالته

وكان موسم الحج ميداناً صالحاً لعرض الدعوة على أكابر الحجاج واستئثارهم إليها ، فإذا عادوا إلى بلادهم كانوا من الداعين إليها ، والمتحسين لها ومن هذا الطريق ، طريق الحج ، بدأت الدعوة في الذبوع والانتشار في ربوع العالم الإسلامي من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ولم تكن حركة جبال الدين ومحمد عبده في مصر ، وحركة السنوسي في الشمال الإفريقي من جهة الغرب ، لم تكن هاتان الحركتان في تصورهما السلفي إلا صدى قوياً للدعوة السلفية التي قام بها محمد بن عبد الوهاب في الحجاز ونجد . . .

ولقد تساءلنا في نهاية الفصل الخامس : بارات الإسلامية التي كانت سائدة في عصر المهدي : ماذا أخذ المهدي من هذه الحركات الثلاث وماذا ترك منها ؟ ماذا أخذ من محمد بن عبد الوهاب وحركته الإصلاحية الكبرى ؟ هذه الحركة التي تجاوزت حدود السودان غرباً حتى وصلت إلى نيجيريا على يد عثمان دنفديو ، واندفعت شمالاً حتى وصلت إلى ليبيا ، وطارت شرقاً ليحمل لواءها مصلحون في الهند وسومطرا . .

ثم ماذا أخذ من السنوية وافكارها وتنظيماتها ؟ لقد توغلت السنوية في السودان نفسه . وأقامت زواياها بأيدي السودانيين أنفسهم . ثم ماذا كان من حركة الألفاني التي هزت العالم الإسلامي من حوله هزاً .

(١٤) تاريخ القامع الإسلامية ج ١ ص ٢٥٣ .

(١٥) المصدر السابق ص ٢٥٣ .

وارنجت أركان الاستعمار بسببها خوفاً ، وكانت صلتها بالسودان أكثر عمقاً ، فلم تكن مصر والسودان في ذلك الوقت إلا بلداً واحداً . . .
لقد تأثر المهدي بهذه الحركات جميعاً كما قلنا ، وكان تأثير هذه الحركات في فكره واضحاً جلياً ، وكان أثر محمد بن عبد الوهاب ودعوته السلفية في فكره ظاهراً قوياً .

وهنا يخطر سؤال لا بد من دروده قبل الخوض في تفاصيل تلك الآراء والأهوال التي اقتبسها المهدي من حركة محمد بن عبد الوهاب ودعوته . هذا السؤال هو : هل كان تلقى المهدي لتلك الآراء والأهوال مباشرة ؟

وبعبارة أوضح : هل حمل الحجاج السودانيون أفكار الحركة السلفية إلى السودان بعد عودتهم من مكة ، وعملوا على نشرها بين السودانيين في كل طبقة ؟ أو تم ذلك بواسطة الحركة السنوسية التي انتشرت زواياها وفروعها في أنحاء السودان بكثرة ، وكان لها - أي للحركة السنوسية - تأثير ظاهر في مجريات الأحداث بالسودان كما سبق وأوضحنا ؟

الاحتمالان جائزان ومقبولان ، وإذا كانت الدعوة السلفية لم تظهر في السودان بصورة علنية ، فلأن الجيش الذي وجه للقضاء على هذه الحركة - وهو الجيش المصري - والقواد الذين كانوا على رأسه . كانوا هم الحكام في السودان وفي مصر ، فلم يكن من السهل أن تظهر هذه الدعوة في السودان بصورة علنية ، وبخاصة أن السنوسي الكبير - مؤسس الحركة السنوسية - قد هدد بالقتل حين أعلن هذه الآراء في القاهرة^(١٦) . واتهم الشيخ محمد عبده بالإلحاد والزندقة حين دافع عن هذه الحركة ، وطالب مثلها بالعودة إلى الكتاب والسنة^(١٧) ، وكان من مصلحة الحكام

(١٦) الإسلام في القرن العشرين - عباس العقاد - ص ١١١ .

- محمد عبده - تأليف عباس العقاد ص ١٠٢ .

(١٧) محمد عبده - تأليف عباس العقاد ص ٢١٩ .

والحكم إبعاد هذه الحركة التي تنادى بالجهاد والقوة .

• • •

بعد هذا كله . . نعود إلى البيانات والمنشورات التي أصدرها المهدي لنرى إلى أي مدى كانت أقواله وأحكامه مطابقة لهذا الفكر السلبي ومتابعه .
يقول المهدي :

« من العبد المفتقر إلى الله محمد المهدي بن عبد الله إلى كافة أحبابه وأتباعه على سكة رسول الله ﷺ .

يا أحبابي : قد بايعتموني على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ولا تزنوا ، ولا تأتوا بهتان ، ولا تعصوني في معروف ، وأن تزهدوا في الدنيا وتبذلوا أنفسكم وأموالكم في سبيل الله .

فإذا كنتم (مؤمنين)^(١٨) ليعتكم وعهدكم ، فإن يعتكم هذه هي بيعة الله ورسوله ، إذ أن من بايعني فقد بايع الله ورسوله ، فوجدوا الله في كل شيء ، كما بايعتم على ألا تشركوا بالله شيئاً . فلا تزوا العيش واللاقيات والعز والنفع وضدهم عند أحد ، ولا في الأموال والوظائف . بل إن الوظائف والأموال إذا حصلت لأحد فربما أسقطته عن الله . إذا كان ضعيفاً في نور الإيمان لما أن رؤيتها وزوالها يقذفان في قلبه أن بها العظمة والعيش فيشرك بالله كما (رأى)^(١٩) بنو إسرائيل خوار العجل وجراكه فظنوا أنه إله وقذف في قلوبهم حبه .

وكل من نظر إلى شيء دون الله ، وأثر في قلبه أنه يتفع أو يضر فقد أشرك في الحقيقة . إذ أن كل ما سوى الله باطل .

ومن كان يوحد الله . ويرجو لقاء الله ، لا يميل إلى شيء دون الله فيطمئن به ، فيصرفه عن الله ، ويكون ممن خسر دنياه وآخرته ، لأن منفعة الغير التي يراها من

(١٨) في الأصل مؤمنون .

(١٩) في الأصل كما رأوا .

غير حقيقة تصد قلبه عن التمسك بالله ، فيتمسك بذلك الغير ، فيكون مقطوعاً عن الله . وعن منبع القوى والقدر ، ويكون كالشجرة المقطوع عروقها . فخيال بخضرتها عن قريب يذهب وتفسحل ، وتتعلم . فمن اعتمد على شيء دون الله ، وفرح به ، فقد جهل ، وكذلك من رجا شيئاً من دون الله ، ويعلم من ذلك أن من تفخر بشيء دون الله ، فقد تفخر بالعدم ، وتمسكه بالغير يكون حجاباً له عن الله ، وكفراً بنعمه تعالى ، لأن الله هو المحيى والرزاق والمقيث والمعز لا غيره . فمن نسب إلى غيره عطاء أو منعاً أو نفعاً أو ضرراً ، فقد ظلم بوضع الشيء في غير موضعه ، ونسب نعمة لغير من أنعم بها .

فإن كنتم مصلقين بوحدانية الله في الاقنيات والحياة ، وكل شيء إلى اللات ، فاخرجوا عما - عن الله - يهلككم ، وعن طلب الآخرة بصرفكم ، فإنه لا رب إلا الله . ولا حياة إلا في الآخرة .

وقد ابتلى الله عباده ، واختبر توحيدهم ، فثبتوا ، ولم يتزلزلوا . فانظروا إلى ابتلاء إبراهيم عليه السلام في توحيد الله تعالى . . قُذِفَ في النار فعارضه جبريل في الهواء فقال له : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فلي . فلما وقع في النار صارت عليه برداً وسلاماً . فكذلك من يتليه الله فيصبر على توحيد الله مكشياً عن الاستعانة بغيره يسلم كما سلم إبراهيم عليه السلام .

وقد أمرنا الله أن نتبع سكة إبراهيم . فقال : (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل)^(٢٠) يعني اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم ، وحق على من كان إبراهيمياً ، أن يكون من تدبير نفسه بريئاً ، ومن منازعة الله خطياً . .^(٢١)

• • •

هل قال ابن تيمية ، وابن عبد الوهاب غير هذا ؟ إن هذا المنشور تجسّد حي

(٢٠) سورة الحج الآية الأربعة .

(٢١) المنشور الصادر في ٦ من صفر ١٣٠١ هـ .

لأنهم في التوحيد وإفراد الله بالعبودية .

وفي منشور آخر يقول المهدي (٢٢) :

لا تستغيثوا بأحد دون الله ، ولا تطلبوا أحداً دون الله ولونياً رسولاً ، أو ملكاً .
فجميع الأنبياء والمرسلين دعوا إلى وحدانية الله . فلا تتوهموا وتنسبوا إلى رجل صالح شيئاً ، أو تطلبوا منه شيئاً ، فإن ما سوى الله يقطع النظر عن الله تعالى . قال الله تعالى : (وإن يمسك الله بضرب فلان كاشف له إلا هو) (٢٣) .

وقال : (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا يُرسل له من بعده) (٢٤) . فلا تشركوا بالله شيئاً ، وراعوا حق الله في حرمة .

وفي هذا المنشور تجميد آخر للعالم ابن تيمية ، وابن عبد الوهاب فيما يأتي :
أولاً : منع الاستغاثة بغير الله ولو كان نبياً رسولاً أو ملكاً .

ثانياً : ألا ينسبوا أو يتوهموا أو يطلبوا من رجل صالح شيئاً .

ثالثاً : اعتبار أي عمل من هذه الأعمال شركاً .

نفس الآراء والأحكام التي أصدرها ابن عبد الوهاب ، وابن تيمية ، وتكاد الألفاظ والعبارات أن تكون واحدة على نحو ما بينا في المقدمة عند الكلام عن ابن تيمية (٢٥) .

لقد نشأ المهدي صوفياً كما نعرف ، وكان في صوفيته مثال المريد الذليل الخاضع لشيخه ، حتى إنه كان يذهب إليه ، وقد وضع « الشجرة » (٢٦) في عنقه علامة

(٢٢) الجزء الأول من المنشورات ص ٥٦ .

(٢٣) الآية ١٠٧ من سورة بولس .

(٢٤) الآية ٢ من سورة طاطر .

(٢٥) انظر في هذا الموضوع أيضاً :

- كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد ص ٣٨ وما بعدها .

- كتاب « ثلاث رسائل في العقيدة الإسلامية » ص ٤٠ - والكتابان من تأليف محمد بن عبد الوهاب .

(٢٦) قضيب من الخشب ينهى عند طرده بحرف حل شكل رقم (٣) .

الخضوع والامتثال لأمره . وفي هذا الجو . . جو الصوفية يرتفع بعض الشيوخ إلى درجة من القداسة . ويقسم بأسمائهم ويحلف كما يقسم ويحلف باسم الله سبحانه . بل نجد كثيراً من هؤلاء أو أكثرهم كما يقول الإمام الشوكاني :

« . . . إذا توجهت عليه يمين من قبل خصمه حلف بالله فاجراً : فإذا قيل له :

احلف بشيخك أو المولى القلاني تلعم وتلكاً ، وأنى واعترف بالحق » (٢٧)

ولكن المهدي يحذر أنصاره من الحلف بغير الله ، لأن كل مؤمن يصدق

بوحداية الله لا يحلف بغيره » (٢٨) .

ويقول المهدي في بيانه : « اعلّموا أن العظمة لله . فلا تحلفوا بشيء دون الله

فيجربى الحلف في غير موضعه ، وفي الحديث : « من كان حالفاً فليحلف بالله

أو ليصمت » ، وإذا عظمت منة الله عليكم في شيء ، فاحلفوا بربه وخالفه وتقليل

الحلف بالله خير ، لأن من اعتاد ذلك يقع في حلف بكذب ، فيقع في اليمين

الفسوس ، التي تقذف صاحبها في النار . . . »

وقد أجاب « المهدي » عن سؤال وجه إليه بشأن الحلف بالحرام والطلاق . أي

عن حكم الشرع في الرجل الذي يقول مؤكداً كلامه على عادة ساقطة المروءة من

الناس . . . على الطلاق والحرام أنني فعلت كذا ، أو ما فعلت كذا . . قال المهدي

رداً على هذا السؤال وهذه الفتوى : الحلف بالحرام والطلاق لغو لا يلزم فيه شيء ،

لقوله ﷺ : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » بعد قوله : « لا تحلفوا

بطلاق ولا عتاق . . . وإذا وقع الخنث فيها من الخالف فلا يلزمه فيه سوى

الأدب . . ولا يجرمان الزوجة كما يزعم بعض الإخوان . . » (٢٩) . هذه النظرة

الواسعة في استنباط الأحكام والفتاوى خاصة بالإمام ابن تيمية ومدرسته

(٢٧) : معناه الإصلاح ص ٢٢

(٢٨) : مشورات الإمام المهدي ج ١ ص ٤٦ . ١٧

(٢٩) : المشور الصادر في ٣ من رجب ١٣٠٢ هـ

وتلاميذه ، فالطلاق إنما شرع أصلاً لوضع خاص يستحيل فيه الوفاق بين الزوجين ، واستعمال ألفاظ الطلاق في غير ما شرعت له ، وفي أمور بعيدة عن القصد منه لا تجعل لهذا الكلام أثراً في العلاقة الزوجية إيجاباً أو سلباً ، وإنما يعزر صاحبه بالقدر الذي يزجره عن التلاعب بهذه الكلمات ، واتخاذها هزواً ولعباً^(٣٠) ، وإذا كان القصد منها - اليمين والحلف - فإن ذلك غير جائر شرعاً ، وقد اتفق المسلمون - كما يقول ابن تيمية - على أن من حلف بالمخلوقات أو ما يعتقد هو حرمة ، لا يعتقد له يمين ولا كفارة في الحلف بذلك^(٣١) .

وفي إحدى الترويات - كما يقول صاحب كتاب «سعادة المستهدى» بسيرة الإمام المهدي - «التقى المهدي بشخص يسمى «عبد النبي» فغير اسمه إلى «عبد الباري» وهي فكرة سلفية أخذ بها اللوهاييون»^(٣٢)

وقد نص محمد بن عبد الوهاب في «كتاب التوحيد» الذي هو حق الله على العبد «على تحريم التسمية بالعبودية لغير الله ، وتحريم كل اسم معبد لغير الله ، لأن هذا من الشرك وإن جاء في تسمية لم تقصد حقيقتها»^(٣٣)

وقد سئل المهدي عن حكم الدين في التثائم التي تستعمل للاستعاذة من السقم ، والعين ونحوه فقال :

هذا ليس مذهبنا ، وإنما مذهبنا التوكل على الله ، حيث إنه النافع والضار ، وناصية كل شيء يده ، بل لا يخرج عن قدرته فلة خاطر ولا لفة ناظر ، لينبئ لمن كان تابعاً لنا أن يسلك طريقنا ، ويتوكل على الله وحده ، ولا يلتفت إلى غير

(٣٠) انظر في هذا الموضوع .

- كتاب الفتاوى للمرحوم الشيخ محمد شلتوت ص ٢٧٧ ط إدارة الثقافة بالأزهر ١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩ .

(٣١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة - تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية ص ٥٠ .

(٣٢) سعاد المستهدى - إسماعيل الكردقاني - ص ١٩١ .

(٣٣) كتاب التوحيد - تأليف الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٩٩ وما بعدها .

لا وجود له (٣٦).

وفي ذلك يقول محمد بن عبد الوهاب (٣٥) :

في الصحيح عن أبي بشر الأنصاري - رضي الله عنه - أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره : فأرسل رسولاً أياً يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر ، أو قلادة إلا قطعت ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرق ، والقمائم والنولة شرك » وعن عبد الله بن حكيم مرفوعاً . . . من نعلق بشيء وكل إليه . . .

والقمائم : شيء يعلق على الأولاد من العين ، والرق : وهي التي تسمى العزائم ، والنولة شيء يصنعونه يزعمون أنه يجلب المرأة إلى زوجها .
كان المهدي إذا سلق العقيدة كما تدل هذه النصوص التي اخترناها من وثائقه ومشوراته ، والعقيدة هي الجانب النظري - في الإسلام - الذي يؤمن به إيماناً لا يرق إليه شك ولا شبهة ، وقد سلك المهدي في تقرير هذه العقيدة مسلك السلفين ، وزعيمهم ابن تيمية . . . لكن - ماذا كان عن الجانب العملي - في الإسلام - وهو الشريعة ؟ ماذا كان موقف المهدي من المذاهب والمدارس الفقهية المختلفة ؟

نفس الشيء يقال في هذه القضية ، فإذا كانت العقيدة ينبغي أن تؤخذ من الكتاب والسنة . فكذلك ينبغي أن تؤخذ الأحكام وتورد إلى أصولها في الكتاب والسنة ، وإغلاق باب الاجتهاد كان نكبة على الدين والأمة . . . لقد كان ابن تيمية حنبلياً لكن ذلك لم يمنعه من الاجتهاد ولو خالف الحنابلة ولم يعبأ إلا بما ورد في الكتاب والسنة (٣٦) . وكان السنوسي مالكيّاً لكن خالف المذهب باجتهادات

(٣٦) النشر الصادر في رجب ١٣٠١ هـ

(٣٥) كتاب التوحيد ص ٢٧ وما بعدها

(٣٦) رعاء الإصلاح ص ١٣

خاصة (٣٧) ، وكانت له آراؤه وأفكاره الخاصة .

هـ ثم إن التعصب للمذاهب ، والقول بانسداد باب الاجتهاد ، أدبا في النهاية إلى تفرق الكلمة ، ووقوع مآمن وانشقاقات لا تزال آثارها الخطيرة ماثلة وباقية ، وصارت الشريعة هي أقوال الفقهاء . وأقوال الفقهاء هي الشريعة ، واعتبر كل من يخرج عن أقوال الفقهاء مبتدعاً (٣٨) بل أقام الناس الأئمة مقام الأنبياء ، بل إن من أتباعهم من قدمهم عليهم عند تعارض أقوالهم مع الحديث الصحيح ، وذهب بعضهم إلى القول : بأن كل حديث أو آية يخالف قول أصحاب المذهب فهو مؤول أو منسوخ (٣٩) . وقد وقع من الفتن بسبب المذاهب ما يسود به وجه التاريخ ، فقد سمع بعض الحنفية من الأفغانيين رجلاً يقرأ الفاتحة وهو يجانبه في الصف وراء الإمام فضربه يده ضربة وقع بها على ظهره فكاد يموت ! وكسر بعضهم سبابة مصلح لرفضه إياها في الشهد (٤٠) !

صور بغيضة من هذا التعصب :

وقد مثل بعض المتعصبين من الشافعية عن حكم الطعام الذي وقعت عليه قطرة من النبيذ فقال : يرمى لكلب أو لحنى . . ! وسئل حنفي : هل يجوز للحنى

(٣٧) المستوية دين ودولة ص ٤٤ .

- الإسلام في القرن العشرين ص ١١١ .

(٣٨) فقه السنة - الشيخ السيد سابق - ج ١ ص ٢١ ط ١٣٨٨ هـ .

(٣٩) المصدر السابق ص ٢١ .

(٤٠) انظر في هذا الموضوع :

الوحدة الإسلامية والأخوة الدينية - تأليف السيد رشيد رضا - ص ٤١ الطبعة الثالثة - ١٣٦٧ هـ .

مالا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين - تأليف الشيخ عبد الجليل عيسى - ص ٩٢ ط دار البيان -

١٣٨٩ هـ .

هذه الصور المظلمة الجاهلة لأبسط مبادئ الإسلام في السامع والأخوة على منها المسلمون فترة من الزمن ولا تزال آثارها باقية في بعض المجتمعات التي لاتترك حقيقة الإسلام .

أن يتزوج شافعية ؟ فقال : يجوز للحنى أن يتزوج الشافعية - لا على أنها مؤمنة - بل بقياسها على الكناية اليهودية أو النصرانية^(١١).

وقد كتب في حك وقف إحدى المدارس في دمشق : إن هذه المدرسة لا يجوز أن يدخلها : يهودى أو نصرانى أو حنبلى^(١٢) !

وقد أفاض العلماء في بيان فساد هذه الطريقة ومخالفاتها للصواب ونأيا عن الحق فالرسول الكريم ﷺ يقول : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل عصبية » ، وليس منا من مات على عصبية ، وفي ذلك يقول الإمام الشيخ العزبن عبد السلام : ومن العجب العجائب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه ، بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً ويترك من شهد له الكتاب والسنة^(١٣).

لقد كان الأئمة الأولون يقولون : هذا مذهبي وما وصل إليه جهدى وعلمى ، ولست أبيع لأحد تقليدى واتباعى دون أن يعلم ما قلت ، ومن أين قلت ما قلت . فإن الدليل إذا صح واستقام فهو عدى ، والحديث إذا صح فهو مذهبي^(١٤) . ومن كلام الشيخ محمد عبده في أسباب هذا الخلاف أن ذلك يرجع إلى تعصب أهل الجاه من العلماء لمذاهبهم التى يتسبون إليها ومجاهها يعيشون ويكرمون ، وإلى تأييد الأمراء والسلاطين لهم استعانة بهم على إخضاع العامة ، لأن هذا الموضوع عون لهم على الاستبداد ، وأشد تمكيناً لهم لما يجنون من الفساد ، ولأن اجتماع كلمة الأمة على الحق ملزم للحاكم باتباعه^(١٥).

(١١) مالا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين ص ٩٩ .

(١٢) موجز تجديد الدين وإحيائه للعلامة اللودوى - ص ٨٦ .

(١٣) دعوة الضرب - الأستاذ الأكبر الشيخ عبد الحميد سليم - ص ٣١٠ ط القاهرة ١٣٨٦ هـ .

(١٤) المصدر السابق - الشيخ محمود شلتوت ص ٩ .

(١٥) نظم التاريخ ج ٢ ص ٢٥١ .

وإن فتنه التار التي كانت من أخطر ما رزى به الإسلام ، إنما كانت بسبب التعصب بين الشيعة والسنة ، وبين الشافعية والحنفية . . ثم إن ما ترتب على التفرق والتعصب من الضرر والفساد المدون في التاريخ ، والذي أفضى في هذه الأزمنة إلى ضعف المسلمين ، وذهاب ملكهم ، وتمكين الأجانب من غزوهم والاستيلاء على بلادهم ، كل ذلك مما يؤكد وجوب تلافى شرور هذا التفرق وجمع الكلمة ، والسعى لوحدة الأمة ^(١٦) وإن العصية الجامعة - سواء عصية العروق أو عصية المذاهب - فوق أنها هاضت أمة القرآن ، فإنها هي التي أغرت بالخلافة أعداء الإسلام وأمكنتهم منها ، فأنقلوا عليها بالسائس وبالفتن والحروب ، حتى سقطت صريخة في سنة ١٩٢٤ م ، ولفظت آخر أنفاسها بين يدي عدو متربص ، وولى مستغل ، وإذا كان العدو المتربص ، وولى مستغل ، وإذا كان العدو المتربص قد ظفر من سقوط الخلافة بجلاوة الشماتة ، فإن الولي قد استعقب من ذلك مرارة الندامة ^(١٧) ، ولا منجاة من كل هذه المآسي إلا بالعودة إلى القرآن وصحيح السنة ، وقد انتهى السؤمي إلى أن « . . . الحواجز والعقبات التي منعت تقدم الإسلام ، وعطلت اتحاده ، إنما كانت بسبب اختلاف المذاهب وكثرة الطرق الصوفية » ، والنظام الفردي كالنظام الذي كان قائماً في مصر على عهده ^(١٨) . . . والحق أن السيد (أي السؤمي) أقام بمكة مدة يشتغل بنشر العلوم ونحصيلها . واجتهد في دراسة المذاهب الإسلامية حتى يتسنى له إقناع العالم الإسلامي باتخاذ مذهب واحد يعينه على الانجاء نحو هدف واحد هو الاتحاد الإسلامي ، على أن يكون أساس هذا المذهب الاعتماد على الكتاب والسنة ^(١٩) .

(١٦) الرحلة الإسلامية والأنحوة الدينية ص ٩٣٧ .

(١٧) مع القرآن - تأليف الشيخ أحمد حسن الباقوري ص ٤٥ - ط مكتبة الآداب القاهرة ١٩٧٠ .

(١٨) السؤمية دين ودولة - دكتور محمد قزاد شكري - ص ١٩ .

(١٩) المصدر السابق ص ٤٣ .

وكان من رأى جمال الدين الأفغانى ، أن الشجرة (يقصد الإسلام) إذا كثرت أوراقها ونشبت فروعها قل ثمرها ، وتضاءلت غلتها غالبتافى الحاذق يعمد إليها فيتر وشذب ، ويقلم ويهذب ويبقى على بعض أصولها فيسرب الغذاء إلى هذه الأصول وحدها ، وبذلك يعود إلى الشجرة طاقة إثمارها ، وإيتاء أكلها وهكذا القرآن يجب أن تنصرف هم المصلحين إلى فهمه وحده ، وفهم حياة النبى التى تفسره (٥٠) .

لهذا كله لم يكن بدعاً ولا عجباً أن يعلن الخليفة عبد الله التعايشى - باسم المهدي - إلغاء للمذاهب ، والطرق الصوفية حتى لا يبقى إلا الدين الخالص . يقول للتعايشى : . . . ومعلوم أنه (أى المهدي) على نور من ربه وتأييد من رسول الله - ﷺ - وموعود أن يرفع المذاهب ، ويطهر الأرض من الخلاف ، ويعمل بالسنن حتى لا يبقى إلا الدين الخالص ، بحيث لو كان رسول الله ﷺ موجوداً لأقره على جميع أفعاله ، وقد علمنا من جوابكم إلى حضرة الإمام بأن الإخوان أمروكم بترك الطريقة التيجانية ، وأخبروكم بأن الإمام نفسه أمركم بذلك لما أصغينم لقلوبهم ، وتوقفتم عند تركها . فاتركوا التوقف وما أنتم عليه من التحك بتلك الطريقة واعملوا بالسنن النبوية ، وعضوا عليها بالنواجذ (٥١) .

وفى منشور « حياة الدين الكبرى » الصادر فى ذى الحجة سنة ١٣٠١ هـ يقول المهدي لأنصاره :

والذى ينقذكم من الهلاك ، ويورثكم عظيم المكانة عند الله ، هو أن تتركوا معارفكم السابقة ، وتصغروا لدالاتى بأذن واعية حيث وجب عليكم ذلك ولزمكم الاتقياد لى والخروج عما عندهم (٥٢) ، كما أنه لا سعادة للعبد إلا فى الدين الخالص

(٥٠) جمال الدين الأفغانى - تأليف الشيخ عبد القادر المرنى - ص ٦٢ .

(٥١) المنشور الصادر فى أوسط ١٣٠١ هـ .

(٥٢) المنشور الصادر فى ٢٠ من جمادى الآخرة ١٣٠١ هـ .

الموافق للكتاب والسنة ، وإذا لم يكن العمل على ذلك فهو مردود لأنه لا أمان إلا في الكتاب والسنة^(٥٣) .

لقد كانت صيحة المصلحين في القرن الثالث عشر الهجري ، والقرن التاسع عشر الميلادي هي السلفية ، أي العودة إلى الكتاب والسنة ، فل ذلك محمد بن عبد الوهاب ، وتبعه في ذلك قلميئه السنوسي ، واتفق أثرهما في ذلك محمد عبده ، والسيد جمال الدين الأفغاني ، ونهج المنهج نفسه عثمان دقديو والإمام الشهيد السيد أحمد البريلوي ، وكثيرون غيرهم في أقطار العالم الإسلامي .

كانت السلفية والعودة إلى الكتاب والسنة هي صيحة العصر ، ولم يكن للمهدي بعيداً عن هذه الدعوات التي رفعت أعلامها في الحجاز وليبيا ومصر ، فاتفق أثر هؤلاء المصلحين بطريقة توافق مزاجه وتفكيره ، وقد كان مزاجه ثورياً ، وتفكيره حرياً ، كان أشبه مزاجاً بمحمد بن عبد الوهاب والأفغاني ، فالحق أحق أن ينجح ، ومهادنة الباطل جريمة في حق الدين والمجتمع .

وفي منشور « الحدود » الذي أصدره قبل شهر رجب سنة ١٣٠١ هـ تنضح أبعاد هذه الروح الثورية . بإصدار أحكام شديدة القوة وهي أحكام يرجع بعضها إلى أصول « وهابية » و « سنوسية » وانفرد المهدي في بعضها باجتهادات خاصة . يقول المهدي :

جاهدوا في سبيل الله ، واعلموا أن سيقاً سل في سبيل الله أفضل من عبادة سبعين سنة ، وعلى النساء الجهاد في سبيل الله ، فمن صارت قاعدة ، وانقطع عنها إرب الرجال تجاهد يلبها ورجليها ، وأما الشابات فيجاهدن نفوسهن ويسكن في بيوتهن ، ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، ولا يخرجن لغير حاجة شرعية ، ولا يتكلمن بكلام جهراً ، ولا يُسمعن الرجال أصواتهن إلا من وراء حجاب ، ويقفن الصلاة ويُطعن أزواجهن ، ويسترن بثيابهن ، فمن وقفت كاشفة رأسها ولو لحظة

(٥٣) منشورات الإمام المهدي ١٠ ص ٧ وما بعدها .

عين ، فتؤدب بالضرب سبعة وعشرين سوطاً ، ومن تكلمت بصوت عال فتضرب سبعة وعشرين سوطاً .

ومن تكلم بفاحشة فعليه ثمانون سوطاً ، ومن قال لأخيه المؤمن يا كلب أو يا خنزير أو يا يهودي أو يا صيوت أو يا قاجر أو يا سارق أو يا زاني أو يا خائن أو يا ملعون أو يا كافر أو يا نصراني أو يا لوطي ، فيضرب ثمانين سوطاً ومحبس سبعة أيام .

ومن تكلم مع أجنبية وليس بعاقده عليها ولا لأمر شرعي ، يضرب سبعة وعشرين سوطاً .

ومن شرب الدخان يؤدب بثمانين سوطاً ، ويحرق التباك إن كان عنده وكذلك من خزنه بقمه ، ومن عمله بأتفه ، ومن باعه أو اشتراه وإن لم يستعمله يضرب سبعة وعشرين سوطاً . . .

ومن شرب الخمر ولو مصة إبرة ، يضرب ثمانين سوطاً ، ومحبس سبعة أيام وجاره إن لم يقدر عليه يكلم أمير البلد ، وإن لم يكلمه يضرب ثمانين سوطاً . . . ! ومن ساعد شارب الخمر ، ولو بجرعة ماء ، أو إناه فيؤدب كذلك ومحبس سبعة أيام !

ومن ترك الصلاة عمداً فهو عاص لله ورسوله ، وقيل كافر ، وقيل يقتل ، وجاره إن لم يقدر عليه يكلم أمير البلد ، فإن لم يكلمه يضرب ثمانين سوطاً ، ومحبس سبعة أيام . وقيل أمواله غنيمة .

وبنت الخمس سنوات إن لم يسترها أهلها بضربون من غير حبس ، ومن علم بأن أمته معها رجل بغير عقد وصبر على ذلك يوماً ولم يتكلم . . . قيل يقتل وقيل يحبس ، وقيل أمواله غنيمة .

إن المهدي في اجتهاده هنا أشبه بالهاريب الذي لبس لأمة القتال وآلة الحرب وهو أقرب ما يكون في أسلوبه هذا بـ « محمد بن عبد الوهاب » وطريقته في القضاء

على البدع والخرافات ومظاهر الشرك . . .

• • •

في يوم ٩ من جمادى الآخرة سنة ١٣٠٢ هـ أصدر المهدي أمره بالاستيلاء على الطواحين والدكاكين القائمة على النيل في مدينة الخرطوم وضمها إلى بيت المال ، وفي ٢٢ من شعبان من السنة نفسها أمر بالاستيلاء على المزارع - وهي مرافق السفن النيلية - وكانت هذه المزارع تؤجر للناس مقابل مبلغ سنوي يدفع إلى بيت المال ، هذا الاستيلاء - أو التأميم بلغة العصر الحديث - ظاهرة جديدة تستحق النظر والالتفات ، فمن أين جاء المهدي بهذه الأفكار التي سبق بها ماركس وإنجلز وغيرهما من أصحاب البدع والصرخات . . . ؟ ليس في الأمر غرابة كما نعتقد ، ولن نحاول تحليل هذا التصرف بغير الحقيقة والواقع ، أو تفلس عمله هذا كما يفعل الكثيرون في عالم الإسلام الضائع .

فقد كانت الحركة السنوسية مصدر إلهام في هذه القضية ، وإن كان المهدي قد طبقها بطريقة ثورية . . . فالزوايا السنوسية لم تكن صوامع أو أديرة للنساك ، بل كانت مركز نشاط اجتماعي وديني كبير ، فالطريقة السنوسية ، كانت تحرم على أتباعها التسول . وتأمروهم بالكد والسعي من أجل لقمة عيشهم على أساس الأخوة والتعاون فتطلب من الإخوان العمل في الزرع والتعمير والإنشاء . ومن العادات المعروفة أن يتبرع كل فرد من أفراد القبيلة بجراثة يوم وحصاد يوم . ودراسة^(٥١) يوم من أرض الزاوية ، فأينا حل السنوسية عمروا ، وزرعوا ، ثم بلغ عناية (الحركة السنوسية) بالعمران أنها حثت على شيوخ الزوايا أن يعرفوا معرفة طيبة أماكن الأسواق التجارية في جهاتهم ثم حالة هذه الأسواق ، وأمرتهم بالتجارة على أن يخصص قسم من الأرباح للزوايا . . . زد على هذا أن السنوسيين المقيمين بجوار الزوايا

(٥١) الدراسة هنا ليس منها ما نحصل الطرم والمطوف ، ولكنها تعني فصل حيوب القمح عن السائل وتنظيفها من القش .

كانوا يحضرون طعامهم إلى الزاوية يطعمون منه الإخوان الموجودين ثم عابري السيل
المتجدين إلى الزوايا . . . (٥٥)

• • •

هذا المجتمع الإسلامي الرائع ، كان مصدر إلهام المهدي فيما اتخذ من إجراءات
المصادرة لبعض المنافع ، ولكنه بدلا من تطبيقها بطريقة السنوية المأذنة طبقه
بطريقته^(٥٦) ودية الجماعة .

يقول المهدي في تعليل ذلك :

« ولكون هذا الزمن ليس فيه أحد يذل ماله لتجهيز (الغزوات) »^(٥٦)
والسرايا . وكذلك كل من وجد ماله واستأثر به واستغله وسعى في زيادته ، وبعض
الناس مع كثرة الملح يدخر ماله ويعد نفسه مسكناً ، وذلك من شدة الشره ،
وانسداد نور الإيمان ، ولما كان الصحابة ، رضوان الله عليهم يتفقون أموالهم في
سبيل الله ، ويجهزون بها الغزوات والسرايا ، وما رأينا في زماننا مثل هذا ، فكل من
كان له مال استبد به نفسه ، ولا يجهز به غزوة ولا سرية فلذلك استعصوب عندنا
مع المشورة أن تكذب إلى كافة المحيين أن يرفضوا أيديهم عن المزارع ، ولا يستخدموا
الدنيا كما كانوا يستخدمونها سابقاً ، وأن يكون همهم العمل ، لما عند الله . وإغاثة
المجاهدين ، وإقامة الدين^(٥٧) .

• • •

ومن المعروف عن الصوفية أنهم يسمحون السماع ، ولا يرون فيه غشاضة على
الإطلاق ، وقد أقاض الإمام الغزالي ، في شرح هذه القضية في كتابه الإحياء^(٥٨)

(٥٥) السنوية دين ودولة ص ٨٨ وما بعدها

(٥٦) في الأصل الغزوى .

(٥٧) انظر في هذا : للنشر الصادر في ٢٢ من شعبان ١٣٠٢ هـ .

والنشر الصادر في ٩ من جمادى الآخرة ١٣٠٢ هـ من كتاب منشورات المهدي

(٥٨) إحياء علوم الدين - ج ٦ ص ١١٢٤ وما بعدها ط الشعب - القاهرة

حيث قال : اعلم أن قول القائل السماع حرام معناه : أن الله تعالى يعاقب عليه ، وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقل ، بل بالسمع ومعرفة الشرعيات محصورة في النص أو القياس ، وأعني بالنص ما أظهره عليه السلام بقوله أو فعله ، وبالقياس المعنى المقهوم من ألفاظه وأفعاله . فإن لم يكن فيه نص ، ولم يستقم فيه قياس على منصوص بطل القول بتحريمه ، وبقي فلا لا حرج فيه كسائر المباحات .

ويقول ابن عرى في الفتوحات (٥٩) :

وأما مذهبنا فيه . . فإن الرجل يتمكن من نفسه لا يستدعيه ، وإذا حضر لا يخرج بسبه ، وهو عندنا مباح على الإطلاق ، لأنه لم يثبت في تحريمه شيء عن رسول الله - عليه السلام - .

ولكن المهدي « السلق » يرفض هذه الأقوال ، وقد كان خلافه مع شيخه محمد شريف بسبب ما رأى عنده من الرقص والغناء ، ثم قال لأصحابه وهو بهم بالانصراف : « إنه لا ينبغي لأحد وإن كان شيخ طريقة أن يبيع الرقص والغناء » ، . . لأن هذا - كما يقرر ابن تيمية - اتباع للهوى الذي نهى عنه الله ، (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) (٦٠) . ولهذا يميل هؤلاء ويغرمون بسماع الشعر والأصوات التي تبيح المحبة المطلقة من غير اعتبار لذلك بالكتاب والسنة ، وما كان عليه سلف الأمة ، والمخالف لما بعث الله به رسوله لا يكون متبعاً لدين شرعه الله أبداً (٦١) .

وقد جاء في كتاب « مسائل الجاهلية » الذي وضع أصوله محمد بن عبد الوهاب وتوسع في شرحه السيد محمود شكرى الألوسى علامة العراق : وقد جمل الشارع صوت الملامى صوت الشيطان ، فما يفعله اليوم بعض

(٥٩) الفتوحات المكية ج ٢ ص ٣٦٨ .

(٦٠) سورة القصص الآية ٥٠ .

(٦١) العبودية - تأليف شيخ الإسلام - ابن تيمية - ص ٧١ .

جهلة المسلمين في المساجد من البكاء والتصدية فهو من قبيح فعل الجاهلية ، وما أحسن ما يقول القائل فيهم :

أقال الله صفقاً لي وغنّ .

وقل كفراً وسمّ الكفر ذكراً^(٦٢) .

فاللهدي - بالرغم من نشأته الصوفية - كان يحمل في عقله بذور السلفية التي كانت تدق أبواب السودان من الشمال والشرق والغرب ، وهل يعقل أن يتحرد المريد على شيخه إن لم تكن هذه المنابع قد شقت لنفسها طريقاً صخرياً في الشعور والعقل والقلب ، فلم يكن غريباً إذاً أن يوجه الملهدي إلى أنصاره وأحبابه منشوراً يحرم فيه استعمال المعازيف والدلائك ، وكل أدوات الطرب .
يقول الملهدي :

« امتنعوا عن الملامى ، فإن يذكر الله تطيب الدنيا لا باللامى والمعازيف والدلائك »^(٦٣) . . . والنحاس لا يضرب إلا في وقت الحاجة إليه في استدعاء الجيش إلى الجهاد ولإسماع البعيد ليحضر ، وكل ما يؤدي إلى التشبه بالترك الكفرة اتركوه ، وكل الذي يكون من علاماتهم فاتركوه ، فإن هذه الأيام أيام التزود إلى لقاء الله . فلا تضيعوا ذلك في لهو ، ولا في سماع لهو^(٦٤) .

• • •

(٦٢) مسائل الجاهلية - تأليف الشيخ محمد بن عبد الوهاب من ١١٥ الطبعة الثانية ط الطبعة السابعة - ١٣٧٦ هـ القاهرة

وانظر في هذا الموضوع أيضاً : العقيدة الصحيحة بموافقة الشريعة - تأليف الشيخ أبو بكر عبد الجوى - رئيس المحكمة الشرعية العليا - كادونا - نيجيريا من ٤١ وقد نقل في كتابه هذا آراء الشيخ عثمان دقديو - تلميذ محمد بن عبد الوهاب في السماع

(٦٣) المعازيف يقصد بها آلات العزف الموسيقية ، والدلائك جميع دلوكة وهي الطبلة بلفظ السودان .

(٦٤) المنشور الصادر في ١٧ من ذي الحجة ١٣٠٠ هـ من ٩٤١ وما بعدها .

يقول نعم شفير في تاريخه :

كان أساس تعاليمه - أي المهدي - أن يعيد الدين إلى ما كان عليه في أول الإسلام ، وقد رفع المذاهب الأربعة ، وتفرّد بمذهب اجتهدى خاص به ، ومنع الناس من زيارة قب (أضرحة) الأولياء التي كانوا يزورونها قبل المهديّة ، وأبطل الرتب والألقاب الرسميّة فن أراد الآخرة صدقاً لا يتميز على الأقران في الدنيا ، لأن الله يكره العبد التميز عن أخيه المؤمن (٦٥) وحرم الاحتفال بالأعراس احتفالاً يدعو إلى النفقة ، وخفض مهر الزواج ، وأبطل الرقص والغناء ، وأبطل السحر وكتابة الأحجية ، وحرم شرب اللخنان ومضغه وشرب الخشيش والخمر ، وأعاد الرجم للزاني والزانية ، وقطع يد السارق .

• • •

لقد نشأ المهدي صوفيّاً كما قلنا ، والتصوف عالم مستقل بمفاهيمه التي تعتمد على المواجهيد والأحلام والرؤى ، والتصوف هو الذي جعل منه إماماً ومهدياً متظراً ، لكنه كان - بالرغم من صوفيته - ثائراً منمرداً وقارئاً حرّاً ، فاستطاع بذلكائه وحيويته رصد ما يدور من حوله في أفق الإسلام شرقاً وغرباً ، وكان أفق الإسلام على عهده غائماً معتماً ، ومن حين إلى آخر يلمع بصيص من نور الإصلاح والأمل فينعكس على مشاعره وأحاسيسه ثورة وتألّقاً . كان أشبه بالترادار الذي يرصد كل ما يحوم في الأفق ولم يكن يفرق في رصده . . . وتسجيله بين طيور الشمال المبشرة بقدوم السعد . وبين جوارح الطير الحاملة في مخالبها الموت ! كان كالكمبيوتر ، يخترق كل ما يصل إليه من علم ، وحين أذن مؤذن الجهاد فتتح القائد الإمام خزائنه فأخرج منها الجواهر والحلى . والتمين ، والردى . . . !

• • •

(٦٥) المنشور الصادر في جمادى الأولى ١٣٠١ هـ .

الفضل السابج

المهدى السودانى فى ميزان الإسلام

هل كان محمد أحمد مهدباً ؟

وبعبارة أكثر وضوحاً .. هل كان محمد أحمد هو المهدى المتظر الذى بعم عدله

ورخاؤه بجمع البشر ؟

ما أقسى الإجابة عن هذا السؤال . إن الحقيقة دائماً مرة ، وهى أكثر مرارة حين تتعلق بشخص نحب ، وأشهد أننى أحببت محمد أحمد ، وكان حبى له نتيجة إحساس عميق بالكراهية للطغیان والظلم .. ! كنت طالباً ناشئاً فى الأزهر الشريف ، وكان تاريخ مصر الحديثة بدرس لنا بطريقة توافق هوى الجالس على العرش ، وكان الجالس على عرش مصر آنئذ واحداً من سلاله أولئك الذين أذاقوا شعبنا الهوان والذل ، ونتيجة للكراهية المتبادلة بين الحكام والشعب ، كان كل ما يكتب عن هذا الحكم ، أو يمجّد فى رجال هذا الحكم يفهم دائماً على التقيض والفضد !

لقد صوروا لنا محمد أحمد عاصياً ، واعتبره البعض خائناً ، لكن هذا الكلام المزور فى دواوين الحكم ، المنق بأساليب الخداع والزيف . كان يفهم دائماً على العكس ، ويحمل من العاصى المتمرد بطلا فى أعين الشعب ! ونعود مرة ثانية إلى السؤال .

هل كان محمد أحمد هو المهدى المتظر حقاً ؟

إن المهدي المنتظر كما تصفه الأحاديث بملأ الأرض عدلاً . بعد أن ملكت جوراً وظلماً .

ويولد من نسل فاطمة ، من ولد الحسن أو الحسين .
ويخرج وعلى رأسه ملك يتأدى : إن هذا هو المهدي فاتبعوه ..
ويكون لمهديته آيات لم يكونا منذ خلق الله السموات والأرض . . يخسف القمر في أول ليلة من رمضان ، وتكسف الشمس في النصف منه .
مولده في المدينة ، ومهاجرته بيت المقدس ، ويظهر في مكة عند صلاة العشاء ، ومعه راية رسول الله وقبضه وسيفه ، ويباع بين الركن والمقام .
وتفتح على يديه مدينة القسطنطينية ؟ وغيرها من المدن الكبرى .
كان وجهه كوكب دري ، ويشبه في خلقه ، واسمه رسول الله .
وتنعم به الأمة نعمة لم تنم مثلها ويحظى المال بيديه حياً .
ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يظهر ولي^(١) .
هل تحقق شيء من ذلك ؟ لنستمع أولاً إلى ما يقوله محمد أحمد :
« لقد ذكر في حضرة من حضراته : أن الرسول ﷺ طلب من عزرائيل قائلاً : من هذه الليلة اصحب المهدي لا تقارقه ، وهذه الليلة المذكورة - التي حصلت فيها هذه الحضرة - غرة شعبان ١٢٩٨ هـ ليلة الأربعاء - ثم تلى لنا - أي النبي - ﷺ - جميع الأحوال إلى دخول مكة ومنازعة أهلها ومبايعة الخطاء

(١) انظر في هذا الموضوع :

سنن ابن ماجه الحديث رقم ١٠٨٢ ، ١٠٨٣ ج ٢

سنن الترمذي الحديث رقم ٢٢٣٢ ج ١

سنن أبي داود الحديث رقم ٢٢٨٤ ، ٢٢٨٤ ج ٤

سنن الإمام أحمد الحديث رقم ٧٧٣ - ٦٤٥ ج ٢

الحاوي للفتاوى (رسالة العرف الوردى في أخبار المهدي) ص ١٢٣ وما بعدها ج ٢

والغرياء أولاً ، ثم مبايعة الشريف ملك مكة وجميع أشرفها معه^(١) .
ويقول في رسالته إلى الخديو : « وبشرني سيد الوجود ﷺ بالنصر على من
يعاديني ، وبأن من يقصدني بعداوة يجذله الله في الدارين وقلدي سيف النصر ،
وأخبرني بأنني أملك جميع الأرض^(٢) .. وها أنا قادم إليك بجنود الله عن قريب ،
ولا بد من وقوعك في قبضتنا ولو كنت في بروج مثيلة^(٣) » .

وقد ذكر في رسالته إلى السنوسي : « ولا يزال التأيد يزداد من الله ورسوله ،
وأنت منا على بال . حتى جاءت الأخبار فيك من النبي ﷺ أنك من
الوزراء لي ، ثم لازلنا نتظرك حتى أعلمنا الخضر عليه السلام بأحوالكم ، وبما أنتم
عليه ثم حصلت حضرة عظيمة عين فيها النبي ﷺ خلفاء أصحابه من أصحابي ،
فأجلس أحد أصحابي على كرسى أبي بكر وأحدهم على كرسى عمر ، وأوقف كرسى
عثمان فقال : هذا الكرسي لابن السنوسي إلى أن يأتيكم بقرب أو طول ، وأجلس
أحد أصحابي على كرسى علي رضوان الله عليهم أجمعين^(٤) .

حبنا هذا القدر من النصوص والاعتباس ، فبدا الأدلة - كما يقال - هو
الإقرار والاعتراف .

وقد اعترف محمد أحمد بأنه سيملك العالم ، وأن ملك مكة وأشرفها
سيبايعونه ، وأنه سيزحف إلى مصر لإزالة الخديو من عرشه ، وأن النبي أخبره بأن
السنوسي سيكون من وزرائه وخلفائه ، وخطورة الأمر في هذه القضية أن محمد
أحمد ينسب أعماله وأقواله إلى النبي . فهو لا يفعل شيئاً إلا بأمره ، ولا يصدر حكماً
إلا بإذنه ، وقد كان أساس مهادته قائماً على هذه الصلة ، ولم تكن تنبؤاته إلا

(٢) منشورات للهيئة ص ١٨ .

(٣) منشورات الإمام المهدي ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٨٤ .

(٥) منشورات الإمام المهدي ج ٢ ص ٧١ .

إخباراً بما يقول إنه سمعه من الرسول أو بلغه ، فإذا ثبت بالدليل والواقع أن هذه النبؤات لم تصدق ، وأن هذه التوقعات لم تتحقق ، أصبح الشك في أساس «مهديته» قائماً . والأساس الذي قامت عليه هذه «المهدية» منهاراً .
إن للمهدي كما تقول الأحاديث والروايات مولده في المدينة ، وقد ولد محمد أحمد في إقليم دنقلا !

والمهدي - وجهه كأنه كوكب دري .. وليس كذلك محمد أحمد والمهدي يظهر بعد خسوف القمر في أول ليلة من رمضان ، وبعد كسوف الشمس في منتصفه ، وقد أعلن محمد أحمد دعوته في شعبان^(٦) ، وجاء رمضان بعد ذلك من غير كسوف شمس ولا خسوف قمر .
والمهدي مهاجرة بيت المقدس ، ويظهر في مكة عند صلاة العشاء ومعه راية رسول الله وقيصه وسيفه ، ويباع بين الركن والمقام ، يبايعه الغرياء ، ثم ملك مكة وأشرفها - كما يقول محمد أحمد نفسه - وقد مات رحمه الله قبل أن يرى مكة .
والمهدي يحنى المال يديه حشياً ، وتتم الأمة به نعمة لم تر مثلها أبداً . ولم يكن الأمر كذلك مع محمد أحمد .

والمهدي يصلحه الله في ليلة - بعد أن لم يكن كذلك - ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول ذلك اليوم حتى يلى . وقد عرف عن محمد أحمد أنه نشأ صالحاً ، وعاش ورعاً ، وكان في تقواه وزهده متشدداً .

والمهدي موعود بملك العالم ، وقد أكد ذلك - محمد أحمد - نقلاً عن النبي . وقد مات وعاش داخل حدود وطنه .

والمهدي يفتح القسطنطينية وغيرها من المدن ، وقد توقى محمد أحمد قبل أن يحقق نبوءته بالرحف إلى القاهرة لخلق الخديو توفيق ، وإراحة مصر والمصريين من ظلمه .

(٦) لقد أعلن محمد أحمد دعوته في غرة شعبان سنة ١٢٩٨ هـ .

ومحمد أحمد يقول : إن النبي أخبره بأن السنوسي من وزرائه وخطيئة عثمان بن عفان في مملكته . وقد مات محمد أحمد دون أن يتحقق شيء من هذا كله ، ورفض السنوسي حتى الرد على رسائله^(٧) .

• • •

وقد كان موت محمد أحمد الملاجي ، وقبل تحقيق ما وعد به من فروح ومعارك باعثاً على الشك والريبة في أمره ، وفي صحة دعوته ومهديته ، وقد شعر بذلك أقرب أنصاره ، وأخلص حواريه وتلاميذته ، وكان أول صدى لهذه المخاطر الدفينة ، والشكوك الكامنة ، ذلك المنشور الذي صدر بتوقيع الخلفاء يعلنون فيه مبايعة عبد الله التعايشي خليفة عن مهدي الله ورسوله . « وكما أن النبي ﷺ ، لما انتقل ، قام بالأمر من بعده خلفاؤه الكرام وأصحابه فكذلك خليفة المهدي عليه السلام . فإن له به أسوة ، فلذا يقوم بأمر الدين بعده خلفاؤه وأصحابه ، حتى ينصر الله دينه ويفتح على أيديهم من المدائن ما لم يفتح الله في زمن المهدي عليه السلام »^(٨) .

أما الشيخ إسماعيل الكردفاني^(٩) فقد كان أكثر وضوحاً في تعبيره حيث قال : ولا يضيئ بك المعطن ، ويكب بك جواد الفطن ، فتكون في حيرة من فهم المراد من بشرى سيد الوجود للمهدي عليه السلام بأن الله يفتح له جميع البلاد . فتقول : قد مات المهدي عليه السلام وانتقل إلى دار الكرامة قبل فتح جميع البلاد :

(٧) انظر في هذا :

جغرافية وتاريخ السودان ص ٧٠٧ وما بعدها .

النسبة دين ودولة ص ٧٩ وما بعدها .

(٨) منشورات المهديّة ص ٨٨ من المنشور الصادر في رمضان سنة ١٣٠٢ هـ .

(٩) سعادة للسيد بسيرة الإمام للمهدي ص ١٨٥ وما بعدها .

فاعلم أنار الله بصيرتنا وبصيرتك ، وظهر من داء الأوهام والشكوك سريرتنا وسريرتك ، أن المهدي عليه السلام هو خليفة الله في أرضه على خلقه ، وأمينه على رعاية حقّه ، وقد علم أبناء البدو والحضر ، والفاطنون بالوبر والمدر . أن ألوية الإسلام لم تشر على يد أحد - بعد النبيين - أولر ديناً وأصدق يقيناً من سيدنا محمد المهدي ، وأن جميع ما يصدر عنه قولاً وفعلًا مؤيد بالكتاب والسنة ، فليس قول من أقواله ، ولا فعل من أفعاله ، إلا وله شاهد من حديث النبوة والرسالة ، وإشراق من مشكاة الأنوار المصطفوية التي أخرجت الغزاة .. !

هذا وقد نقل بعض الثقة في هذا الشأن كلام الخليفة الأكبر - خليفة المهدي - سيدنا عبد الله التعايشي .. !

فأحييت أن أذكره بلفظه وهو : من زعم أنه ليس بالمهدي المنتظر حيث لم يستكمل الفتوحات فقد أخطأ طريق الحق ، لأن خليفة الأكبر منج العرفان والتحقيق ، ذكر في بعض منشوراته ما يرد ذلك حيث قال : وانتقال المهدي عليه السلام إلى الدار الآخرة قبل فتح مكة والقسطنطينية وغيرها من الأمصار ، لا يقدح في كونه مهدي آخر الزمان . لأن النبي ﷺ أخبره الله في حياته بفتح بعض البلاد كاليمن والشام وأضاف ذلك إلى نفسه الشريفة ، ثم لم يكن فتح ذلك على يده الشريفة . بل كان على يد خلفائه الكرام بعد انتقاله ﷺ ولم يقدح ذلك في نبوته عليه الصلاة والسلام ، إذ لا غرو في نسبة فعل خلفائه إليه ، وقد أخبر أنبياء الأمم السابقة أنهم بيعتة نبينا محمد ﷺ وذكروا لهم أنه يفتح الأمصار ، ومعلوم أنه لم يفتح في زمنه إلا مكة وخيبر ، وكان بقية الفتح على يد خلفائه من بعده وعلى طريقته المثل أني خليفة المهدي . فجميع ما أخيف إليه من فتح البلاد ولم يحصل في حياته ، فلا بد من حصوله على يد خلفائه وأصحابه^(١٠)

...

(١٠) المصدر السابق ص ١٨٧ .

غير أن هذه الأحلام والتنبأت لم تتحقق ، وأدى الخلاف على ميراث الزعيم إلى
الفرقة والتفرق ، وانفرد التعايشى بالسلطة ليصبح الحاكم المطلق .
ولكن الإنجليز لم يتركوه يهناً طويلاً بهذا المجد ، فقد عادوا على رأس قوة مشتركة
(إنجليزية ومصرية) لاحتلال السودان ، وانتهى الأمر بمقتل التعايشى بعد تخريب
بيته في أم درمان .. !!

لقد ضاع السودان نفسه ، وكانت جريمة بريطانيا بنش قبر محمد أحمد وسرقة
رأسه (١١) !

ثم إنه ليس ضرورياً أن يعلن الرجل المختار لهذه المهمة عن نفسه .. الأنبياء
والرسل هم الذين يعلنون عن دعوتهم ، لأن من طبيعة النبوة والإعلان
والإنذار ، حتى لا تكون للناس على الله حجة ، وطبيعة المهديّة ، تختلف عن طبيعة
النبوة ، فالمهديّة تجديد وإحياء وحركة ، وقد لا يعرف المرشح لهذه المهديّة أنه
المهدي نفسه .

إن العالم سيُشاهد رجلاً تمثلت فيه صفات الكمال الخلقى ، وزعيماً تجسدت فيه
آمال البعث والإصلاح الدينى ، وقائداً تميز بصفات نادرة قلما تجتمع في شخص
عادى ، وعلى ضوء مايقوم به هذا الإمام الجليل من عمل ويقدر مايقفقه للإسلام
من عزة ، وبالمقارنة بين عصره وبين ماكان قبله من فساد وطغيان وظلم ، وما تحقق
على يديه وفي عصره من إصلاح وصلاح وعدل ، يعرف الناس أنه الرجل المنتظر ،
والمهدي الذى يعم عدله جميع البشر (١٢) .

ومن الواضح أن هذا الرأى لايتعارض مع المفهوم «السنى» لشخصية
«المهدي» فالمهدي عند أهل السنة ليس شخصاً معيناً ولا معروفاً وقد كان محمد
أحمد أو المهدي السودانى ، سنياً مالكياً ، وحتى لو تجاوزنا حدود هذه الدائرة

(١١) جغرافية وتاريخ السودان ص ١٢٨٩ .

(١٢) انظر في هذا المعنى كتاب «موجر تجديد الدين وإحياله» للعلامة للمودى ص ٦١ و ٦٢ .

المقيدة بالتصور السني لشخصية المهدي ، إلى الدائرة الأخرى المقيدة بالتصور « الشيعي » فلن يفيد ذلك شيئاً بالنسبة لمهديّة محمد أحمد ، لأن المهدي المتظر عند الشيعة معروف اسماً ، ومعروف شخصاً ويتظرون فرجه قريباً وهو بالتأكيد شخص آخر غير محمد أحمد (١٣) .

• • •

محمد أحمد إذا لم يكن هو « المهدي المتظر » الذي تحدث عنه الكتب والروايات والأساطير ، وإذا لم يكن هو المهدي المتظر لما الذي جعله مصراً على موقفه هذا . حتى الرمن الأخير ؟
في نظرنا أن هذا الموقف يرجع إلى ثلاثة عوامل رئيسية لعبت دورها في مهديّة محمد أحمد :

هذه العوامل منها ما هو شخصي خاص ، ومنها ما هو فكري عام ، أما الجانب الفكري العام ، فيمثل في فساد الأوضاع الداخلية التي كان يعاني منها السودان على النحو الذي ذكرناه في الفصل الخاص بالثورة والجهاد .

وقد شاهد محمد أحمد فيها شاهد أرواحاً مهددة ، وحرّيات مقتصبة وأملأ كآ منوبة ، وبلاداً مغربة ، والناس بين أثرياء ساقطهم تيارات النعم إلى الشهوات والغواية ، وبين فقراء طحتهم الفاقة ففقدوا زمام التّجمل بالصبر والمجرفوا - على قلة ذات اليد - إلى الفساد والمهاوية ، ثم إن حكومة القاهرة أرسلت إليهم أمثال بيكر ، وغوردون ، وهؤلاء نصارى لا يدينون بدينهم ، وكان أسلوبهم في الحكم موسوماً بالتحدى لشعائر الإسلام وفرائضه ، حتى تصور الناس أن الحكومة تريد بهم شراً ودينهم ، وكان من عادة محمد أحمد أن يخرج سائحاً مع بعض أصحابه لإبذار الناس ودعوتهم وقد جال في جميع البلاد ورأى بعينه وجد الناس -

(١٣) المهدي المتظر عند الشيعة الإمامية الاثنا عشرية هو محمد بن الحسن العسكري الحق في سرداب إلى أن يجئ وقت ظهوره .

خاصتهم وعامتهم - على الحكومة ، وشدة رغبتهم في التخلص منها حتى كان الكثيرون يتمنون ظهور المهدي الموعود لإيقاظهم من الحال التي كانوا عليها ، وكلموا رؤوا رجلا يفضلهم دراية وعقلا متصفاً بالغيرة على الدين ظنوه المهدي المنتظر^(١٤) .

لقد ترك هذا كله أثراً في نفس محمد أحمد ، فانصرف إلى التأمل والدراسة ، واتجه إلى الاعتكاف والخلوة . ولقد تأقت نفسه أن يكون هو هذا الرجل الذي يتظره الناس ، وبات يحلم بهذا المنصب الذي يحكم بين البشر بالعدل والقسطاس ، لقد لعبت العوامل النفسية والشخصية دورها في نفس محمد أحمد واضطربت في قلبه جذوة الشوق والوجد ، إنه صوفي عريق في التصوف والصوفية يعتمدون على اللوق والإلهام والكشف ، وفي عالم الصوفية مجال فيصح للترقى والسر ، ولشيخه محيي الدين بن عربي ، في ذلك كلام جميل وحلو^(١٥) !

« فإذا خلا العبد إلى نفسه ، وعطل طريق الحواس ، وفتح عين باطنه وسمعه ، ودأب على ذكر الله بقلبه لا بلسانه فهناك تتفتح عين القلب ، ويصبح الإنسان قادراً على أن يصر في اليقظة ما يصره في النوم ، وهناك يشاهد الحقائق العليا ، والمناظر الجميلة الجليلة ، التي لا يمكن شرحها ولا وصفها وينكشف له ملكوت السموات والأرض إذ أن حجاب القلب عن مطالعة ذلك العالم . راجع إلى أنه لم يكن قد فرغ بعد من شغل الحواس والاشتغال بالعلم المادى والإقبال على ما فيه من لذات حسية ، لا تلبث أن تعرض له حتى ترول^(١٦) .

(١٤) جغرافية وتاريخ السودان ص ٦٤٣ .

(١٥) يقول ابن عربي : والول يشترك مع النبي في إدراك ما تشركه العامة - في حالة النوم - في حالة اليقظة . وقد أثبت هذا المقام للأولياء من أهل طريقتنا وهو الفعل بالهمة والعلم من غير علم من المخلوقين غير الله وهو علم الخضر . المقترحات الملكية ، ج ١ ص ١٥١ .

(١٦) كليات السطة - الإمام القرظي - ط القاهرة ١٣٤٣ هـ ط ١٨ وما بعدها .

لقد أصبح محمد أحمد ، نجماً في الفلك الصوفي ، ومن خلال تحليقه ودوراته في هذا الفلك بدأ يشاهد من أنواره ما يشاهد .. إته يرى الرسول ويكلمه ويلتقي به ويحدثه ، واجتماعه بالأقطاب والأولياء صار شيئاً عادياً ، والتقاؤه بالخطير عليه السلام يكاد يكون يومياً ..

إنها أنوار باهرة من غير شك ، ومن شدة هذه الأنوار يخفق الإنسان توازنه في غمرة هذا الفيض ، وينتهي للرء إلى حال من الهيام والسكر والجذب ..
ألم يقل أبو يزيد البسطامي : سبحانه ما أعظم شأنى .. لا إله إلا أنا فاعبدونى ^(١٧) ؟ ١١ .. والحلاج .. ؟ ألم يقل هو الآخر : أنا الحق ^(١٨) .
ذلك من شأن الصوفية الذى لا يخضع لمنطق العقل ، ولا يلتزم بظاهر النص ، ومادام الأمر لا يخضع لمنطق العقل ، ولا يلتزم بمظاهر النص ، فناقشته حينئذ مضبوطة للجهد والوقت .

ولكن الذى لانسلم به لأصحاب المكاشفة ، والوجد ، أن ينسحب ما يرونه ويشاهدونه على الناس في كل عصر ، وأن يصبح ذلك تشريعاً يفرض بالقوة والفعل أو يخرج مكاشف ليقول : أنا المهدي أو الإمام المتظر لتخلص الناس . في هذا العصر .. وقد ذكر الشيخ محمد عبده ^(١٩) : أن إلهام المتصوف « ذوق » وجداني ، لا يجوز له أن يدين به غيره ، وأن للصوفية أذواقاً خاصة وعلماً وجدانياً . ولكنه خاص بمن يحصل له ، ولا يصح أن ينقله لغيره بالعبارة فإن هذا الذوق يحصل للإنسان في حالة غير طبيعية ، وكونه خروجاً عن الحالة الطبيعية فلا يجوز أن يخاطب به المقيد بالنواميس الطبيعية .

• • •

(١٧) الحياة الروحية في الإسلام - دكتور محمد مصطفى طيس - ص ١٠٢

(١٨) المصدر السابق ص ١١٢ .

(١٩) محمد عبده - تأليف عباس العقاد ص ٢٣٩ .

وقد ذكر العلامة الشيخ محمد حبيب الله بعد ذكره لأقوال العلماء في جواز رؤية النبي ﷺ مناماً وبقظة فقال (٢٠) :

إذا علمت ماقررناه من إمكان رؤيته ﷺ في البقظة كرامة لبعض خواص أكابر الأولياء ، فاعلم أن قاعدة ذلك إنما تعود غالباً على الراي فقط ، ولا يجوز أن يثبت بها حكم شرعي كائناً ما كان ندباً أو غيره من سائر الأحكام الشرعية ، كما تعطيه قواعد الشرع المعلومة ، وكما صرح به الأئمة كالحافظ بن حجر وغيره . فقد قال في «فتح الباري» (٢١) بعد بحث طويل عند قوله عليه الصلاة والسلام : «ولا يمتثل الشيطان لي» مانع المراد منه ، ومع ذلك فقد صرح الأئمة بأن الأحكام الشرعية لا تثبت بذلك .

وقال ابن السمعاني : وإنكار الإلهام مردود ، ولكن التمييز بين الحق والباطل في ذلك أن كل ما استقام على الشريعة المحمدية ، ولم يكن في الكتاب والسنة ما يردده فهو مقبول ، وإلا فهو مردود ، إذا قد يقع من حديث النفس ووسوسة الشيطان ، ثم قال : ونحن لا ننكر أن الله يكرم عبده بزيادة نور منه يزداد به نظره ، ويقوى به رأيه ، وإنما ننكر أن يرجع إلى قلبه بقول لا يعرف أصله ، ولا ترعم أنه حجة شرعية ، وإنما هو نور يختص الله به من يشاء ، فإن وافق الشرع كان الشرع هو الحجة .

وقد قال الألبى (٢٢) في شرح - صحيح مسلم - عند حديث : «من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يمتثل لي» - قال مانعه : واختلف قول الفقهاء لو قال (أى النبي) لرائيه : امرأتك طالق ثلاثاً هل يلزمه الطلاق ثلاثاً ، أو لا يلزمه شىء .

(٢٠) زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى وسلم - ص ١٨٧ وما بعدها .

(٢١) الجزء الثالث ط الحلبي القاهرة

(٢٢) المصدر السابق ص ١٨٨

قال القرافي - وهو أى عدم الطلاق - هو الأظهر ، لأن إخباره فى البقعة مقدم على إخباره فى النوم ، لأن احتمال الغلط فى ضبط المثال فى النوم أرجح من الغلط فى ضبط عدم الطلاق ، كما ينطبق ذلك أيضاً على رآيه فى البقعة بطريق خرق العادة ، لما أخبر به الرسول فى حياته النبوية مقدم على أى إخبار آخر إذ لا تشريع بعد ذلك (٣٣) ..

• • •

فليتصور الصوفى ما شاء له التصور ، ولير من الكرامات والخوارق ما شاء الله أن يرى ويفعل... إنها مسائل خاصة لا تتجاوز شخصه ، ولا يجوز بحال أن تصبح قاعدة ملزمة لغيره .

والا .. لو سلمنا بكل ما يقوله الصوفى فى أحواله الخاصة واعتبرنا ما يقوله ويشاهده قاعدة عامة ، لاخل ميزان الثقة فى كثير من الأمور الشرعية ، واضطرب حل الدين فى كثير من القضايا المسلمة ، وأصبح لكل « واصل » و « عارف » مذهب وطريقة خاصة ، وانتهى الأمر بالإسلام والمسلمين إلى كارثة !

• • •

لقد كان « محمد أحمد » رجلاً من هذا النوع الشديد الحماسية ، كانت فيه شفافية وراحة ، وكان أكثر إحساساً بالآلام ووطنه وشعبه ، وهذا النوع من الناس يمكن التأثير عليه بسهولة ، واستغلال جوانب الخير والصلاح فى نفسه ، وإقناعه بأى عمل يعتقد فيه الصلاح والخير لأمته ، وقد استغل فيه هذه الناحية رجل كان على التقبض منه فى ذلك كله ، كان هذا الرجل هو « عبد الله التعايشى » ، وكان التعايشى هذا معروفاً بالأبجاد والبطولة ، تواقفاً إلى النفوذ والسلطة . وقد بذل والده عناية خاصة فى تعليم أبنائه ، ولكنه وجد عناء أكبر مع عبد الله ، فعبد الله اشتهر بانصرافه عن علوم الدين وحفظ القرآن ، ولكنه كان يتشوق دائماً إلى أخبار

(٣٣) المصدر السابق ص ١٨٩

القروات والبطولات ، واشتهر منذ أيامه الأولى بالشجاعة والبأس ، وانضم
والزريقات^(٢٤) في حرمهم مع الزبير رحمة باشا^(٢٥) ووقع أسيراً في يد الزبير الذي
أمر بقطعه ، لولا أن تشفع له الفقهاء ورجال الدين ، ولكن روحه المتعطشة للمسجد
رأت في - الزبير رحمة باشا - وقت أن كان في أوج قوته وشهرته ، أنه المهدي
المتنظر .

فأرسل إليه مبشراً أنه حلم حلماً رأى فيه : أن الزبير هو المهدي المتنظر ، وأنه
(أى عبد الله) سيكون وزيره .. !

فرد عليه الزبير زاجراً ، وأمره بعدم تكرار هذا الحديث معه^(٢٦) .
وقد كان والد عبد الله العياشي ممن يشتغلون بالتنجيم والسحر وكان العياشة ،
إذا أرادوا غزو جماعة أخرى استشاروه قبل القيام بهذا الغزو ، فلم تقلعت به
النس ، عهد بحرفه تلك إلى والده عبد الله ، فاشتغل بهذه الحرفة فترة من الزمن ،
ولكن طموحه لم يكن ليتوقف عند «ضرب الرمل» و«قراءة الطالع» و«كتابة
العاويذ والتأائم» .. !

إن في الرجل ذكاء وقوة شخصية ، لقد سمع هذه الحرفة وهاجر بحثاً عن المجد
كانت أحاديث للمهدية عملاً الجور ، وكان توقع ظهور المهدي حديثاً على كل
لسان^(٢٧) ، فذهب إلى الشيخ محمد شريف نور الدائم شيخ الطريقة السمانية .
وقال له : أنت المهدي المتنظر ، لقد كرر ما قطعه مع الزبير ، أن الرجل يبحث عن
أى مهدي أنه يستعمل ظهوره ليصبح هو مشاره ووزيره .. !

(٢٤) إحدى قبائل السودان .

(٢٥) كان الزبير باشا من حكام الأقاليم في السودان ، وقد اشتهر بالشجاعة والبطولة ، وانتصر في عدة
معارك . كما كان ذا عقل وكيلة ومروءة .

(٢٦) كبرى - ٩١ .

(٢٧) الحركة الفكرية في المهديّة ص ٦ وص ٧ .

وقد رفض الشيخ محمد شريف هذه اللعبة ، ثم قال له قبل أن يغادر بيته : إذا كنت تبحث عن يقول بذلك : فضلك بتلميذى السابق محمد أحمد .

كان محمد أحمد في ذلك الوقت يقيم قبة على قبر شيخه القرشى ، وكان الشيخ القرشى - كما ذكرنا سابقاً - قد أعلن بأن من يختن أولاده ويبنى قبة على ضريحه سيكون هو المهدي ١١ وبينما هو على هذه الحال إذ وفد عليه التعايشي ، وخر ساجداً بين قدميه يتسرع ويسكى ١١ وحين سأله محمد أحمد : عن سبب ذلك قال : كان لي أب صالح من أهل الكشف وقد أخبرني قبل وفاته أنني سأقابل المهدي ، وأكون وزيره ، فلما حضرت إليك رأيت فيك العلامات التي أخبرني والدي بها ، فابتهج قلبي لرؤية مهدي الله وخليفة رسوله (٢٨) .

لقد أكد التعايشي - بهذا الكلام - وصية الشيخ القرشى ، وزكى في نفس - محمد أحمد - الشعور بأنه المهدي ، واستطاع - بقوة شخصيته ودهائه ، دفع - محمد أحمد - إلى المسارعة بإعلان أنه للمهدي .

وقد ذكر - على المهدي - أن مجيء الخليفة عبد الله ، قدم إعلان الدعوة مستين ، ولو تأخر عشر سنوات لتأخرت عشر سنوات (٢٩) . !
وهو قول يجعل من التعايشي رأس هذه الفكرة والعقل المخطط لهذه الدعوة (٣٠) .

وقد حفظ محمد أحمد للتعايشي هذه اليد ، وجعله الوارث لدعوته وخلافته من بعده ، وهدد كل من يتناول أعماله وتصرفاته بالنقد لأن جميع أعماله وأحكامه محمولة على الصواب ، لأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب ، ولو كان حكمة على قتل نفس منكم أو سلب أموالكم .. ومن تكلم في حقه ولو بالكلام النفسى

(٢٨) جغرافية وتاريخ السودان ص ٦٤٤ .

(٢٩) سادة المهدي - هامش صفحة ٩٤ .

(٣٠) انظر في هذا أيضاً : الإسلام في القرن العشرين - عباس العقاد ص ١٤٠ .

فقد خسر الدنيا والآخرة ، ويغشى عليه من الموت على سوء الخاتمة ،^(٣١) .
وقد أتانا خبر من الخضر عليه السلام أن الأولياء اجتمعوا في بيت المقدس
يقولون : الحمد لله الذي أظهر المهدي وجعل عبد الله وزيره ثم وجد (أى الخضر)
اجتماع الشياطين ، وهم يقولون : كان عشنا بالغش والخداع ، فأنى المهدي وقطع
علينا عشنا ، ولولا أن عبد الله وزيره لكنا نجد في المهدي دخولا^(٣٢) .
« حيث علمت ذلك يا أجباني أن الخليفة عبد الله منى ، وأنا منه فتأديوا معه
كأدبكم معي ، فجميع ما يفعله بأمر النبي ﷺ ، أو يأذن منا لا بمجرد اجتهاد
منه ، ولا هو عن هوى ، بل هو نائب عنه ﷺ في تنفيذ أمره »^(٣٣) .
وسواء أكان « محمد أحمد » هو « المهدي » أم لم يكن فلن يفض ذلك من قيمة
الرجل الذي فجر في السودان أكبر ثورة إسلامية في القرن الثالث عشر الهجري -
التاسع عشر الميلادي - .

لقد بدأ ثورته ببضعة رجال مسلحين بالحرا ب والعصى ، ولكن مقدرته الفائقة
في إلهاب الجماهير ، وإشعال نيران الجهاد والحماس ، مكته من هزيمة الحكومة في
كل معركة خاضتها ضده ، واستطاع وهو الصوفى البسيط .. أن يقهر خمسة
جزالات من أقوى دولة أوربية ، كان من بينهم أشهر القادة البريطانيين ، لقد
استخدم المهدي الدين استخداماً مثالياً ، ومزج بينه وبين الحياة مزجاً رائعاً ،
فالإسلام هو الذي قاوم ، والإسلام هو الذي جاهد ، والإسلام هو الذي انتصر في
النهاية على التعصب والصليبية .

« ومنذ وطئ الاستعمار أرض الإسلام ، كان من أهم أهدافه سحق هذه
العقيدة ، أو عزلها عن الحياة والحركة ، أو تشويهها على أيدي المبشرين والمرترقة ،

(٣١) مشهورات المهدي ص ٦٧ .

(٣٢) المصدر السابق ص ٧٧ .

(٣٣) المصدر السابق ص ٦٦ .

لأنه يعلم بقينا أن الإسلام إياء ، يرفض الذل ، وقوة تحتر الضعف ، وثورة على كل مظاهر الاستعمار والاستبداد والظلم .

إن الإسلام هو الذى حى الوطن الإسلامى فى الشرق من هجمات التار ومن هجمات الصليبين على السواء ، ولو انتصر الصليبيون فى الشرق كما انتصروا قديماً فى الأندلس ، أو كما انتصر اليهود حديثاً فى فلسطين ، مابقت قومية عربية ، ولا جنس عربى ، ولا وطن عربى ، والأندلس قديماً ، وفلسطين حديثاً كلاهما شاهد على أنه حين يطرد الإسلام من أرض ، فإنه لا تبقى فيها لغة ولا قومية بعد اقتلاع الجذر الأصل .

والإسلام هو الذى كافح فى الجزائر مائة وثلاثين سنة ، وهو الذى استبقى أرومة العروبة ، حتى بعد أن تحطمت مقوماتها المثلثة فى اللغة والثقافة ، هنالك قام الإسلام - وحده - فى القمير يكافح الغزاة ، ويستعلى عليهم ، ولا ينجى رأسه لهم ، ويهلبا - وحده - بقيت روح المقاومة فى الجزائر حتى أركنها من جديد الحركة الإسلامية بقيادة عبد الحميد بن باديس ، فأضامت شعلتها من جديد ، وهذه الحقيقة يعرفها جيداً الفرنسيون والصليبيون .

والإسلام هو الذى كافح فى برقة ، وطرابلس ضد الغزو الايطالى ، وفى أربطة السنوسية وزواياها ، نمت بذور المقاومة ، ومنها انبتى جهاد عمر المختار الباسل النبيل ، (٣١) .

والإسلام هو الذى هب فى مراکش ، حين أرادت فرنسا من قانون يعود بقبائل البربر إلى عقائدهم التى كانوا عليها قبل الإسلام ، وفصلهم عن إخوانهم المسلمين فى الشمال ، وكانت هذه المحاولة هى الشرارة التى أشعلت فى الفرنسيين النار .

والإسلام هو الذى كافح فى الهند - قبل التقسيم - وكان المسلمون دون غيرهم

(٣١) المسجل لهذا الدين للتهديد به نطب .

هم أبطال الجهاد ضد الاستعمار والبريطانيين .
لقد كافح الإسلام لأن عنصر القوة كامن في طبيعته ، كامن في بساطته
ووضوحه ، وشموله ، كامن في الاستعلاء عن العبودية للعباد بالعبودية لله رب
العباد ، وفي رفض التلقى إلا منه ، ورفض الخضوع إلا له .

ومن أجل هذه الخصائص في الإسلام يحاربه أعداؤه هذه الحرب المنكرة ،
لأنه يقف لهم في الطريق ، يعوقهم عن أهدافهم الاستعمارية الاستغلالية ، كما
يعوقهم عن الطغیان ، والتأله في الأرض .

ومن أجل هذه الخصائص يطلقون عليه حملات القمع والإبادة ، ويتربصون
به الدوائر في كل ناحية ، ويفزعهم ويرعبهم قيام أمة حركة تحمل لواءه ، أو ترفع
شعاره ، أو تنادى بالعودة إلى شرائعه وأحكامه .

ولقد كانت حركة مهدي السودان - برغم مايشوبها من تصورات خاصة -
حركة أرعبت دول الاستعمار ، وحركت فيهم كوامن الفزع والخوف ، وأرقت ليلالي
مطامعهم السود ، فحاصروا حيضة حمر الوحش إلى النار والسيف .

كانت حركة تمثلت فيها كل حركات الإصلاح في عصره فقد أخذت من حركة
« محمد بن عبد الوهاب » دعوته إلى العقيدة الصحيحة ، والعودة إلى الكتاب
والسنة ، والتوجه إلى الله وحده بالدعاء والعبادة . « لأن من كان يوحد الله ويرجو
لقاء الله لا يميل إلى شيء دونه ، ويكون ممن خسر دنياه وآخرته ، لأن الله هو المحيى
والميت والرزاق والمقيت فمن نسب إلى غيره عطاء أو منعا ، أو نفعا أو ضرا ، فقد
ظلم بوضع الشيء في غير موضعه ، ونسب نعمة لغير من لم ينعم ، ونسب ضرا لغير
من لم يضر » (٣٥) ، وكل من نظر إلى شيء دون الله ، واعتقد من قلبه أنه ينفع أو يضر ،
قد أشرك في الحقيقة ، إذ أن كل ما سوى الله باطل ، لأنه لا قوام له بنفسه ،

(٣٥) مشورات للهدية ص ٣٠ .

فكيف يقوم به غيره (٣٦) . وقد سلك « مهدي السودان » سلك الوهاية (٣٧) ، في اعتبار ما عدا قطره من الأقطار التي لا تؤمن بدعوته أقطاراً غير إسلامية ، لأن الناس بظهوره تدخل في الإسلام من جديد (٣٨) .

وقد حرص رسول الله - ﷺ - على قتال الترك المخالفين لمهدي ، وسماهم كفاراً ، بل هم أشد كفراً ، لأنهم ساعدوا في إطفاء نور الله (٣٩) .

وكما وقفت دولة الخلافة من الحركة الوهاية ، موقف العداء والمخاربة فكذا فعلت هذه الدولة مع الحركة للمهدية ، وكان من عجائب القدر أن الجيش الذي كلف بقمع الحركة الوهاية ، هو نفسه الجيش الذي قاوم الحركة المهدية ، كان هذا الجيش هو الجيش المصري ، وبعبارة أدق ، جيش حكام مصر من الأرنؤود والشركس ، ولقد هزمت الحركة الوهاية في معركتها العسكرية مع دولة الخلافة ، وانتصرت الحركة المهدية في هذه المعركة ضد الإنجليز ، والأرنؤود والشركس ، إلا أن الحركة الوهاية انتصرت بعد ذلك فكرياً وعقدياً في حين انتهت الحركة المهدية لتصبح بعد ذلك حزباً دينياً سياسياً (٤٠) .

وإذا كانت الحركة الوهاية قد أثرت في الحركة المهدية ، فكذا فعلت الحركة السنوسية ، لقد كان السنوسي من تلامذة محمد بن عبد الوهاب إلا أنه استطاع صياغة الحركة الوهاية في صيغة جديدة ، وتخلّى عن أسلوبها في العنف والثورة ، واختط لنفسه نهجاً جديداً في الإعداد والحركة ، فهو لم يشأ أن يصطدم مع دولة الخلافة ، أو يعلن تمرداً على الحكام والسلطة .

(٣٦) المصدر السابق ص ٢٩ .

(٣٧) كان هذا سلك الوهابيين في أول الأمر ثم عدلوا آراءهم بعد ذلك .

(٣٨) منشورات المهدية ص ٣٠٢ .

(٣٩) المصدر السابق ص ٤ منشورات الإمام المهدي ج ٢ ص ١٦ .

(٤٠) للاستزادة من نقاط التمازج بين الحركتين الوهاية والمهدية . انظر الفصل الخاص بالمصادر السلفية

في فكر المهدي .

لقد ترك هذا كله جانباً ، وانصرف إلى البناء والتربية ، كان من أصول دعوته :
تخليص العالم الإسلامي من البغضاء والفرقة ، وكان يرى أن تفرق الناس إلى
مذاهب عدة ، عامل من عوامل الضعف في الأمة .. إذ أنه لا واجب إلا ما أوجبه
الله ورسوله ، ولم يوجب الله ورسوله على أحد من الناس أن يتطهّر بمذهب رجل من
الأمة فيقلده دون غيره ، وهل قال بذلك أحد من الأئمة ؟ فيا للعجب ! مات
مذاهب أصحاب رسول الله ، وبقيت مذاهب أربع أنفس فقط من الأئمة^(١١) .

وقد وقف المهدي من المذاهب موقف الحركة السنوسية ، فاللهدي أمر : « برفع
المذاهب وتطهير الأرض من الخلاف ، حتى لا يبقى إلا الدين الخالص »^(١٢) .
« ومال العبد إلا الأعمال الموافقة للكتاب والسنة »^(١٣)

والذي ينقلكم من الهلاك هو أن تتركوا معارفكم السابقة^(١٤) .
وكانت الحركة السنوسية مهمة بإقامة مجتمع إسلامي تتحقق فيه التربية
الإسلامية الصحيحة ، ومن أجل ذلك دعت للمسلمين إلى الهجرة من دار الكفر إلى
دار الإسلام .. إن أولئك الذين يمتنعون عن المهاجرة في سبيل الله ورسوله ،
فسوف يكون مقرهم جهنم وبئس المصير^(١٥) .

وكذلك كانت الدعوة إلى الهجرة لإقامة الدين من أصول الحركة المهدية لأن
مخالطة الأشرار تدعو إلى الشر ، ومصاحبة الفجار تدعو إلى الفجر .. ولا مخلص من
ذلك إلا بالمهجرة .. وفي ذلك مالا يخفى من الأدلة كتاباً وسنة ، وقد أمرني سيد
الوجود ﷺ بمكاتبة المسلمين ، ودعوتهم إلى الهجرة إلى محل يكون فيه قوام

(١١) السنوية دين ودولة ص ٤٣ .

(١٢) منشورات المهدية ص ٦٢ .

(١٣) المصدر السابق ص ١٣ .

(١٤) المصدر السابق ص ٤٨ .

(١٥) السنوية دين ودولة ص ٤٧ .

الدين ، وإصلاح أمر الدارين^(١٦) .. »

وكان من العادات المعروفة عند السنوسية أن يتبرع كل فرد من أفرادها بعمل يوم ، في الزاوية .. ومراقبها .. فتطلب من الإخوان العمل في الزرع والتعمير والإنشاء .. ونحث التجار على دراسة الأسواق التجارية ، واتخاذ الوسائل الناجحة في التجارة والاستثمار ، على أن ينحصر قسم من هذه الأرباح للحركة ومؤسساتها العامة^(١٧) . فقد كانت الحركة السنوسية حركة متكاملة من كل ناحية ، وكان أفرادها يعيشون معاً في إثارة وترباط ومحبة .

وقد اقتبست الحركة المهدية هذه الفكرة من السنوسية إلا أنها طبقتها بطريقة ثورية ، كمعادتها في العمل والحركة . فقد أمر المهدي بالاستيلاء على مراكبي السفن وغيرها من المرافق التي تدر أرباحاً طائلة .. لكن هذا الزمن ليس فيه أحد يذل ماله لتجهيز الغزوات والسرايا ، وكذلك كل من وجد مالا أكثره واستأثر به ، وسعى في زيادته ، ولا يجهز به غزوة ولا سرية^(١٨) .

لقد كانت الحركة السنوسية إحدى الحركات الإسلامية ، التي ألهمت المهدي السوداني ، وأثرت فكره ، ولما كان السنوسيون قد أنشأوا زواياهم في السودان الغربي ، ثم في السودان المصري ، وكثر أتباعهم في تلك الجهات ، فقد رأى محمد أحمد أن يجذب إليه السنوسي لجملة أسباب .. لعل أهمها ما كان يرجوه محمد أحمد من نشر نفوذه ، وامتداد سلطانه إلى الإمارات الإسلامية في أفريقيا الغربية ، إذا دانت له السنوسية بالطاعة ، أضف إلى هذا ما كان يرجوه محمد أحمد أيضاً من استخدام السنوسيين في حربه المنتظرة .. وكان محمد أحمد قد بيت النية على غزو مصر وطرده الإنجليز الكفرة^(١٩) .

(١٦) منشورات للهدية ص ٢٠ .

(١٧) السنوسية دين ودولة ص ١٨ وما بعدها

(١٨) منشورات للهدية ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ (١٩) السنوسية دين ودولة ص ٧٢

لقد أثرت الحركة النسوية الحركة المهدية بالكثير من أفكارها وتعاليمها وكان المهدي حريصاً على اجتذاب النسوى إليه كما قلنا .

وإذا كانت الحركة المهدية قد عبرت عن الحركتين : الوهابية والنسوية بدرجات متفاوتة .. فقد كان تعبير هذه الحركة عن الحركة الأفغانية ، أكثر وضوحاً وأكثر فعالية لقد وجدت آراء جمال الدين الأفغانى وتعاليمه ، فى الحركة المهدية فرصة نادرة ، لتنفيذها وتطبيقها ، فقد كان من رأى جمال الدين - كما يقول لوثرروب ستودارد^(٥٠) : إن العالم النصرانى على اختلاف أيمه وشعوبه عرقاً وجنية ، هو عدو مناهض للشرق على العموم ، وللإسلام على الخصوص ، وإن الروح الصليبية لم تزل كامنة فى الصدور كمون النار فى الرماد ، وجميع الشعوب النصرانية مجتمعة متفقة على عدااء الإسلام ، وروح هذا العدااء منسلة يجهد هذه الشعوب جهداً خفياً ومستراً متوالياً لسحق الإسلام سحقاً^(٥١) .

وكان من رأى جمال الدين : الوقوف بقوة ضد الغزو الأجنبى والتدخل الخارجى فى شئون البلاد الإسلامية ، وقد خص دولة بريطانيا بالنصيب الأوفر من جهاده وهجومه ، لأن هذه الدولة - كما كان يعتقد - هى السبب الرئيسى فيما حل بالعالم الإسلامى كله ، وكان يرى أنها وراء كل غلط يسعى لتخليمه وتدميره . ولم تكن عداوته للاستبداد أقل - من عداوته للاستعمار - شراسة وضراوة ، فالشعب يجب أن يحكم نفسه بنفسه ، وكل حاكم يجب أن يقف عند حده .. فإذا لم يراع هذا الحاكم ويلتزم حده ، وجب على الشعب أن يقول : لا بأعلى صوته ! ولما كان هدفه قيام حكومة إسلامية متحدة فقد يرى لتحقيق ذلك أولاً : إنهاض دولة إسلامية من ضعفها .. وتنبئها للقيام بشئونها ، حتى تلحق الأمة بالأمم

ونظروا هذا الموضوع أيضاً الفصل الخامس بالتيارات الإسلامية الفصل الخامس الفكر العلمى

(٥٠) حضر العالم الإسلامى ج ١ ص ٣٠٦

(٥١) المصدر السابق ص ٣١٧



أحمد أحمد عبد القادر المهدي
السوداني

العزيزة ، والدولة بالدول القوية ، فيعود للإسلام شأنه ، وللدين مجده .
لقد كانت حركة الأفغانى حركة ضد الاستعمار والاستعباد ، ولم تكن حركة
المهدي إلا ثورة ضد هذين الوثاقين^(٥٢) .
كانت حركة الأفغانى ضد التدخل الأجنبي في كل صوره وأشكاله ، وكان
المهدي واضحاً في موقفه ضد هذا التدخل بكل أنواعه ، وقد نعى علي الجنديرو
« توفيق » سقوطه في يد « أعداء الله الإنجليز »^(٥٣) واتخاذهم الكافرين أولياء من دون
الله ، والاستعانة بهم على سفك دماء أمة محمد^(٥٤) .
وحين كتب إليه غوردون - بعد تعيينه حاكماً عاماً على السودان - يطلب منه

(٥٢) انظر الفصل الخامس بالجهاد والثورة .

(٥٣) مشورات الإمام المهدي ج ٢ ص ٢٨٠

(٥٤) المصدر السابق ص ٢٨١

الاتفاق على وقف الحرب ، وفتح الطريق لزيارة قبر النبي عليه السلام وحقق دعاء المسلمين^(٥٥) .. كتب إليه المهدي متهاكاً : كيف يقوم من هو على خلاف سكة

رسول الله بفتح باب زيارة قبره ؟ !

فإن كنت شقيقاً على المسلمين ، فبالأولى أشفق على نفسك وخلصها من سخط خالقها باتباع دين الحق^(٥٦) .

وبعد أن توفي المهدي ، وتولى التمايشي قيادة الحركة من بعده ، كتب يقول إلى الخديو توفيق في المعنى نفسه :

لقد حملتنا الشفقة عليك ، على تحرير هذا إليك . فإن كنت من أهل الغيرة على الدين ، وتريد الفوز عند ربك ، والتخلص من أسر أعدائه الكافرين ، فبادر إلى إجابة الدعوة ، واندرج في سلك أهل الصفوة ، لتكون الأمة المحمّدية يبدأ واحدة على قطع دابر الفتن الكفرية ، أو ينيوا لأمر رب البرية^(٥٧) .

كما كتب - أي التمايشي - إلى السلطان عبد الحميد يعيب عليه موقفه ويقول له في رسالته^(٥٨) : ما كان الظن بك أن نجد عن طريق الصواب ، وترغب عن اتباع السنة والكتاب . فالعجب كل العجب من إعراضك عن إجابة داعي للمهدي واتباعك لشهواتك إلى الردى ، وتمكينك للأعداء من بلاد الإسلام ، وأنت ترعم أنك وإلى المسلمين ، الذاب عن حرم الدين ، وما كان يجب منك أن تتخذ الكافرين أولياء من دون الله ، وتركن إلى مودتهم ومتابعتهم ، وما هذه الطاعة لأعداء الله ومتابعتهم ؟

فذكر ذلك ، وانتشل نفسك من أحوالك ؟ .. فأجب داعيتنا بتسليم الأمر

(٥٥) منشورات المهديّة ص ٣٢٠ .

(٥٦) منشورات الإمام المهدي ج ٢ ص ١١٠ .

(٥٧) جغرافية وتاريخ السودان ص ١٠١٣ .

(٥٨) المصدر السابق .

لنا ، والمبادرة إلى فعل أحد أمرين : إما جهاد الكافرين ، وإخراجهم من بلاد الإسلام كمصر وغيرها صاغرين ، وإما السعى للاجتماع بنا لنقوم جميعاً بنصرة الدين وقطع دابر القوم الكافرين^(٥٩) .

وكانت قمة الإثارة في رسائل الصايشي .. تلك الرسالة التي بعث بها إلى الملكة فيكتوريا ، والتي تقتطف تلك الأجزاء المثيرة منها :
« إلى عزيزة قومها فيكتوريا ملكة بريطانيا »^(٦٠) .

سلام على من اتبع الهدى .. أما بعد : فاعلمى أن الله عز وجل هو ملك الملوك القادر للقدر الذي لا يعجزه شيء ، ولو أراد أن يهلك أعداءه في أقل من خاطرة بال ، لكان جليماً بحصول مراده ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين .
وإني أدعوك إلى الإسلام .. فإن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، واتبعت للهدى عليه السلام .. وأذعنت لحكمي ، فإني سأقبلك وأبشرك بالخير والنجاة من عذاب السعير .. وتكونين آمنة ومطمئنة لك مالنا وعليك ماعلينا .. ويخفف لك الله ما فرط منك في زمن الكفر ، وإن آيت إلا الجحود اعتياداً على ماعتك من الاستعدادات والجنود ، فاعلمى أنك في غرور كبير ، وبعد عن السداد والتدبير .

وإن كنت تظنين توهماً أن جيوش المهدي القائمة بتأييد السنة المحمدية مثل عساكر - أحمد باشا عرابي - الذين أدخلت عليهم الفش بالدنيا حتى مكنوك من الاستحصال على البر المصري ، فهذا توهم فاسد ؟ وغرور كاسد^(٦١) .
ثم مما يقضى عليك .. أنك بعد أن بلغت ظهور المهدي المنتظر عليه السلام ، ومحاربة دول الترك له ، وظفره بهم في عدة وقائع .. سولت لك نفسك أن فيك

(٥٩) جغرافية وتاريخ السودان ١٩٢١ .

(٦٠) المصدر السابق ص ١٠١٥ .

(٦١) جغرافية وتاريخ السودان ص ١٠١٦ .

الكفاية لحربه .. والاستيلاء عليه ، فبادرت إلى إرسال أحد رجالك المشاهير ، المدعو هكس باشا ، ومعه جيش عرمرم مؤلف من أجناس شتى وعدد منوعة ، توهاً منك أنك ستظفرين بالنصر على جند الله الغالب ، فلما حضر ذلك الجيش ، ماثب أمام حزب الله إلا نصف ساعة . بل قضى الله عليه بالدمار والبقار عن آخره ، وكان هلاك ذلك الرجل المدير الشجاع بسبب سوء تدبيرك وكثرة غرورك .. ولم تغن عنه كثرة العدد ولا قوة العدد ، بل صار إلى النار وغضب الجبار^(٦٢) . ثم اعتبرت بذلك ، بل صرت تجهزين عاكرك جردة بعد^(٦٣) جردة ، لمحاربة الله ورسوله ومهديه تارة «بواكن» وتارة «بلنقة» وتارة «بوادي قر» حتى أهنتك^(٦٤) بسوء صنيعك من رجالك ماينوف على الألوف بسبب ذلك^(٦٥) هلك كثير من رجالك المعروفين لديك بالشجاعة وحسن التدبير كالجزال غوردون باشا .. هلك بالخرطوم .. والجزال ستوارت .. هلك بأبي طليح ، والجزال ستوارت الثاني هلك بوادي قر .. وفلان .. وفلان ومع كثرة دعواك التقدم في مجالات الحروب .. وتفوهك بقوة البأس والشجاعة فما بال عاكرك رجعت من السودان القهقري بالخينة والهزيمة ؟ وكل هذا من سوء تدبيرك . واستبدادك برأيك عن باقي الدول .. ولو عملت بالمشورة^(٦٦) معهم .. لأرشدوك إلى مايسكن روعك .. وكانوا إما أن يشيروا عليك بالكف عن مصادمة حزب الله .. أو بمدوك بالرجال والأسلحة .. وحيث لايتوجه عليك العار وحدك عند حصول الهزيمة .. بل يكون ذلك بالاشتراك^(٦٧) !

(٦٢) جنرالية وتاريخ السودان ص ١٠١٦ .

(٦٣) عملة بعد حملة .

(٦٤) يقصد : قتل .

(٦٥) في الأصل : ومن ذلك .

(٦٦) في الأصل : ولو رغبنا الثورة .

(٦٧) جنرالية وتاريخ السودان ص ١٠١٧ .

لقد كانت الحركة المهدية صدى قوياً للثورة الفكرية التي أثارها الأفغانى فى الشرق الإسلامى كله ، فقد حارب المهدي فى ميدانين ضد الاستعمار والظلم ، وانتصر فى حربه على أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ حتى هذا اليوم ، وقد عرضت بريطانيا عرش السودان على الأفغانى لتضرب به المهدي ، فرفض الحكيم الثائر هذه الرشوة ، لأن السودان ليس لبريطانيا حتى تباع فيه وتشتري (٦٨) .

لقد أدرك الأفغانى أبعاد هذه اللعبة فوقف معه الشيخ محمد عبده - وراء الحركة يؤازرنا بكل قوة .

وقد كان هذا الموقف من الأفغانى موقفاً تفرضه العقيدة والبروة بعد أن انتقم له المهدي من الخديو توفيق ؟ إن جمال الدين لا يزال يذكر هذا اليوم الذى أبعده فيه الخديو عن القاهرة وحيداً من غير رفيق !

لقد أخذ للمهدي بثأره .. وكان أخذاً عزيزاً .. فقد فيه الخديو السودان بأسره .

لقد كان المهدي « أفغانياً » فى شكل صوفى ، وكان الأفغانى مهدياً فى طابع سياسى ، وكان الرجلان معاً ظاهرة من تلك الظواهر المشرقة فى سماء الإسلام الذى يعرف متى وكيف يشرع سيفه .. ومتى وكيف ينكس للباطل رايته ورأسه ..

ولسوف يبقى اسم محمد أحمد لافقة مضبوطة فى تاريخ السودان .. الذى وجد فيه أملاً ، وحطم به قيده ، واستعاد به روحه ، وكرامته ، وحرته ..

(٦٨) البروة الوثقى ص ٣٥ .

الفصل الثامن

صدى حركة المهدي السوداني

كان لحركة المهدي السوداني صدى عميق في العالم الإسلامي كله ، لقد أحدثت هذه الحركة في القلوب هزة عنيفة ، وكشفت القناع عن بريطانيا ، فلم تعد في نظر المسلمين قوة مخيفة ..

لقد انحل الطمس ، وانتش الجدار ، وظهر للعالم أن بريطانيا دخان من غير نار ، فهب المسلمون في كل مكان يتادون بالجهاد والثورة ضد الاستعمار .

وقد ذكرت مجلة العروة الوثقى^(١) أن جريدة الساندر الإنجليزية تلقت برقية من مراسلها في « طشقند » مفادها أنه حصل اضطراب عظيم في أفكار المسلمين سكتة « بخاري » عندما سمعوا بانتصارات المهدي وظهر فيهم - أي أهل بخاري - داع جديد بحث على الحرب ، ومقاتلة الذين ينتهون الأراضي الإسلامية لتوسيع ممالكهم .

إن بلاد « بخاري » بينا وبين السودان مسافات بطاولة ، وأبعاد متناهية ، ويظن الناظر في لوح الجغرافيا أن المواصلات بينها منقطعة ، ومع ذلك فقد سرى التنافس بين القطرين في الغيرة بغاية السرعة . فما ظنك ببلاد هي أقرب إلى مبعث الدعوة ؟

(١) العروة الوثقى ص ١٧٩ .

لقد كان العالم الإسلامي - كما يقول لو ثروب ستودارد^(٢) . يغلي غليان الماء على النار ، وقد انفجر في « أفغانستان » بركان حقد وعداء عظيم للغرب ، فتناول حممه مسلمي الهند ، فلبت صدورهم إلهاباً ، فهبوا يشقون عصا الطاعة على الإنجليز الذين ما استطاعوا تكوين العاصفة إلا بشق الأنفس ، وركوب الهول ، وحدث مثل هذا في أواسط آسيا حيث ظهرت الطريقة « النقشبندية » فأخذت تمتد وتنتشر شرقاً حتى بلغت الأقطار الصينية ، فثار مسلمو الصين ثورتهم الكبرى في « تركستان » و « بتان » كما اشتعلت في جزائر الهند الشرقية الهولندية نار الثورات المتتالية ، وهب رجال الدين في أفريقيا الشمالية يستنفرون المسلمين للحرب والجهاد ، ومن هذا النوع كانت ثورة مهدي السودان ، وهي الثورة التي دامت طويلاً وقت في عضد الإنجليز فتأ كبيراً .. وأتزلت بهم خسائر فادحة ، وقد كانت هذه الثورة المهديّة من البواعث على شوب هذه الثورات ، وكان من أهم هذه الثورات التي زلزلت الأرض من تحت أقدام الاستعمار ثورة « المهدي محمد بن عبد الله حسن » في صوماليا ربع قرن من الزمان حمل فيها هذا البطل لواء الجهاد ضد بريطانيا ، وكان في حربه وجهاده مثال الآباء والبطولة والمثل العليا ..

لقد حارب هذا البطل في ظروف دولية صعبة ، وفي أحوال داخلية ممزقة ، وبأسلحة قديمة وقليلة ، لقد كان الوضع في الصومال مختلفاً عن السودان هذه المرة ، وإمكانات الثورة فيه أقل مما كان في السودان حيث هبت الثورة ، والعدو الذي يحاربه لم يكن واحداً .. بل كان عدد أعدائه أربعة .

لكن .. متى كان للقلة والكثرة تقدير في موازين البطولة ؟ ومتى كان للعدد والعدة حساب في دخول الجنة .. ؟ لقد اندفع التاركة عصار عرق من أواسط آسيا حتى اعتقد الكثيرون أنهم أمنع منالاً على الموت .. فكانت صيحة « وإسلاماه » هي القضاء للميم الذي نزل بساحتهم في عين جالوت . واندفع الصليبيون شعوباً وأنماً

(٢) حفر العالم الإسلامي ص ٢٩٢ . ٢٩٣ .

يريدون مكة وفلسطين . فكانت ه الله أكبره هي القاصصة التي حزنهم إربا على مشارف حطين ..

لقد نشأ محمد بن عبد الله حسن ، أو المهدي الصومالي . فوق هذه الأرض التي شهدت قبل مولده بمئات السنين حركة من حركات الجهاد الخالدة في تاريخ أفريقيا ..

في القرن السادس عشر ، وفي الصومال بالذات قام البطل الإسلامي السلطان أحمد بن إبراهيم^(٣) بحربه ضد الأحباش والبرتغاليين وانتصر عليهم انتصاراً ساحقاً ، ودخل الناس على يديه - في دين الله - أفواجاً ، وكان لجهاده وفتوحاته صدى - لا يزال حتى يومنا هذا - حياً وخالداً .

وقد ألف في هذه الأحداث - العالم العربي ابن فقيه - كتابه المشهور فتوح البلدان - وهو كتاب يختلف بالطبع عن سميح الآخر الذي ألفه البلاذري ، وكانت حيازة هذا الكتاب عند الأحباش جريمة عقوبتها الإعدام لمن يثبت أنه يعرف القراءة .. والسجن للتوיד لمن يثبت جهله بها^(٤) !

وبالرغم من الفارق الزمني الكبير بين الرجلين ، فقد كانت روايات هذا الجهاد الذي قام به السلطان أحمد القرين ، تناقلها الألسن والأحاديث كلما داهم بلاد الصومال خطر قريب من الجار .. أو غزو بعيد من بلاد الاستعمار .

ولقد نشأ محمد بن عبد الله حسن كما ينشأ أمثاله من أبطال الجهاد ، فقد حفظ القرآن في سن مبكرة ، وتلمذ على شيوخ الدين والعلم ، وسافر إلى مكة ليستكمل ثقافته على أيدي كبار العلماء في الحرمين الشريفين ، وكان عمره في ذلك الوقت خمساً وعشرين سنة .

وحين عاد إلى الصومال : التقى بالشيخ محمد صالح السوداني شيخ الطريقة

(٣) الدعوة إلى الإسلام - توماس أوغولد - من ١٣٥ - ١٣٨

(٤) مهدي الصومال - دكتور محمد المنعم سيد - سلسلة مذاهب وشخصيات من ٨ القاهرة .

الصالحية ، فقل إليه - أى الشيخ محمد صالح - أخبار مهدي السودان . وجهاده ضد الظلم والاستعمار ، وقص عليه من أخبار الثورة المهدية والثورة العرابية ما جعله ناراً تتأجج كراهية للظلم والاستعمار^(٥) .

كان الصومال في ذلك الوقت ممزقاً بين دول الاستعمار والطغيان . فبريطانيا تحتل منه جزءاً ، وفرنسا تحتل جزءاً ، وإيطاليا تحتل جزءاً ، والحبيشة تريد منه أجزاء لا جزءاً واحداً ، أضف إلى كل ذلك ، تفرق الكلمة في الداخل بسبب التنازع بين شيوخ القبائل ، ووقوف بعض مشايخ الطرق الصوفية موقفاً ممالئاً للاستعمار الغاشم^(٦) .

لقد بدأت حركة الجهاد التي حمل لواءها مهدي الصومال ، بحملة واسعة أوضح فيها أهدافه من هذه الحركة ، وكان أسلوبه في الكلام أسلوباً بالغ الروعة ، وقد ساعده في ذلك ثقافته الإسلامية ، واستشهاده الدقيق بالكتاب والسنة ، أضف إلى هذا شخصيته القوية التي أضفت على منطقه وكلامه سحراً وعدوية ، وقد وصفه الملا . هذه المرحلة من مراحل الجهاد والحركة فقال في كلمات مشيرة معبرة :

« فسرعت في استعداد سريع سرى من جهة ، وخطب ومواعظ مؤثرة من جهة أخرى . وكنت أدعو القبائل الصومالية للتحرر من الشك والتكاسل ، إلى اليقين والعمل ، ومن التخالف والتخاذل ، إلى التعاون والتكاتف ، ومن الخوف والهلع ، إلى الإقدام والجسارة ، ومن الاستسلام والذلة ، إلى الاستبسال والعزة ، فاجتمع لدى عدد كبير من القبائل الصومالية ، ففرست في نفوسهم حبة دينهم ووطنهم ،

(٥) مهدي الصومال ص ٢٢

(٦) مهدي الصومال ص ١٢

وهذا الكلام من غير شك لا ينطبق على جميع الطرق الصوفية . إنها حالات شاذة فقط . وقد كان مهدي الصومال صوفياً . والمهدي السودان صوفياً . وأكثر دعاء الجهاد والثورة كانوا من الصوفية

وبغض عدوهم من الكافرين ومن يساندتهم ، وانطلقت معاني القرآن الكريم في نفوسهم ، وفهموا المقصد منها . وتعاهدوا على الجهاد والدفاع عن الدين والوطن والشرف . وأخذوا في الاستعداد بالرماح والسيوف ، والبنادق القليلة^(٧) .

ومرت سنوات .. والمهدى الصومالى يتحين الفرصة للدخول مع قوات الاحتلال في معركة ، ثم حانت هذه الفرصة بإرسال بريطانيا أربع حملات مجهزة ، ففضى عليها المهدى الصومالى واحدة بعد واحدة .

بعد هذه الهزيمة الساحقة التى لحقت بالقوات البريطانية ، رأت بريطانيا أن تشرك معها فرنسا وإيطاليا في هذه المعركة ، وقدمت للدولتين - من أجل ذلك - تنازلات كثيرة . ولم تكف بريطانيا بفرنسا وإيطاليا فأشركت معها الجبهة في هذه اللعبة .

فبالنسبة لفرنسا رأت بريطانيا أن تبرم معها اتفاقاً لمنع تسرب الأسلحة من ميناء «جيوقي» إلى قوات «الملا» وبالنسبة لإيطاليا فإنها رأت في حركة المهدى الصومالى تهديداً لممتلكاتها في البلاد الإسلامية التى سيطرت عليها ، فقررت أن تقف بجوار بريطانيا مساعدة لها وحماية لمصالحها .

أما الأحباش فإن دورهم - في حرب الإسلام والمسلمين - أصبح جزءاً لا يتجزأ من تركيبهم العضوى . وقد وجدوا في هذا التحالف مع طواغيت الاستعمار فرصتهم الذهبية للانتقام والتأثر والتشقى .

إنها معركة غير متكافئة من غير شك .. وكان على مهدى الصومال ، أو «الملا» أن يحارب في هذه الجبهات جميعاً . إنه قد رُكِّب على الأمة الإسلامية في هذه المرحلة الحالكة من تاريخها . وقد مضى المهدى الصومالى في طريقه غير عالماً بالتضحيات التى يتعرض لها . إنه منطق الإيمان ، ومنطق الإيمان لا يضع في حبانة قيمة للخسران والربح .. ذلك شأن التجار والسامرة من أدياء الحرية

(٧) مهدى الصومال ص ١١

والفكر .. إنها إحدى الحنين : الشهادة أو النصر ..

وكما فعل غوردون مع المهدي السوداني حين كتب إليه قائلاً : إني قادم إليك
بجنود أقطع بهم أنفاسك^(٨) .. فقد أرسل الجنرال «كوفل» القائد العام للقوات
البريطانية هذه الرسالة إلى «الملا» :

«ستفك نفسك إذا لم ترجع عن غيك .. وإذا لم تحمد ثورتك الجنوبية ، واعلم
أن حكومة صاحبة الجلالة عظيمة جداً .. ولا يستطيع مجنون مثلك أن يتال منها
شيئاً .. فارجع عما أنت فيه ، وعد إلى صوابك قبل أن تقع المصيبة عليك وتندم
على أعمالك السيئة»^(٩) .

وقد رد عليه المهدي الصومالي قائلاً :

«من السيد محمد بن عبد الله حسن قائد القوات الإسلامية الصومالية إلى
الجنرال كوفل . قائد الشيطان .

قد اطلعت على رسالتك وفهمت منها جميع أغراضك الدنيئة ، وأغراض
حكومتك الوضيعة .. واعلم أن قواتكم التي تفاخرون بها لانساوى لدى شيئاً ،
وأعلمك أيضاً أنكم إذا كنتم تحاربون بقواتكم الهائلة الكثيرة العدد ، فإني أقاتلكم
ببنى الصالحة ، وبإيمانى القوى ، وبغزيمتى التى لا تعرف الملل ، ومها تكن الظروف
لن أسلم لك وأكون للشرك عبداً»^(١٠) .

• • •

لقد طار صواب الاستعمار البريطانى بعد هذا الرد الحاسم .. وبدأ الجنرال
«كوفل» يجمع قواته . لخوض معركة فاصلة مع هذا الألبى الثائر .
إن مأساة غوردون تتكرر هذه المرة مع الجنرال كوفل .. والغرور الذى أدى إلى

(٨) انظر فى هذا الموضوع فصل «الجهاد والثورة» من هذا الكتاب

(٩) مهدي الصومال ص ٤٦ .

(١٠) مهدي الصومال ص ٤٦ .

مصرعه في الخرطوم يقود خلفه على أرض الصومال إلى المصير نفسه .
لقد بدأت المعركة .. وسقط الجنرال المغرور تحت منابك خيول المجاهدين
وأقدامهم .. وكان وقع هذه الهزيمة كوقع سابقتها - في الخرطوم - أليماً ومريراً
ومفزعاً .. وقد رأت بريطانيا بعد هذه الهزيمة سلوك طريق آخر .
إن حيلها كثيرة في اصطیاد الزعماء والمجاهدين في العالم الإسلامي .. إن سيف
المز وذهب مثل معروف في التاريخ كله .. ومن يدري فلعل للملا محمد عبد الله
حسن يريد ملكاً ويريد ذهباً ..

• • •

وبدأت المفاوضات .. وكان طلب الحكومة البريطانية يتركز في ضرورة وقف
القتال وإلقاء السلاح .. وفي نظير ذلك تعترف الحكومة البريطانية بمهدي الصومال
محمد بن عبد الله حسن ، ملكاً متوجاً على الصومال كله .
لقد تكرر هنا أيضاً ما فعله غوردون مع المهدي السوداني بتعيينه سلطاناً على
كردفان .. إن التاريخ يعيد نفسه بالرغم مما يقال .. وسنرى كيف كان رد مهدي
الصومال ، كما عرفنا قبل ذلك رد مهدي السودان ..
لقد أمر رجاله أولاً برد الهدايا التي بعث بها إليه نائب الملكة في الهند . ثم وجه
حديثه بعد ذلك إلى رئيس الوفد :
إنني لم أفكر في يوم من الأيام أن أكون ملكاً .. ولم يكن ذلك هدو لا في
الحاضر ولا في المستقبل .. ولكن هدفي الوحيد هو أن أطرد الاستعمار من بلادى
وأعيد إليها حقوقها المنتهبة .. وأطهرها من النفاق والشرك .. ولست أبالي بعد
ذلك أن أحيأ أو أموت^(١١) .

لقد فعل مهدي الصومال الشيء نفسه الذي فعله مهدي السودان .. لقد كان
الزعيان يفترقان معاً من منهل واحد ، ولم يكن ذلك المنهل إلا الإسلام .

(١١) مهدي الصومال ص ٥٠

إن المسلم قبل أن ينطلق للجهاد في المعركة يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر في نفسه مع الشيطان .. ومع هواه وشهواته ، مع مطامعه ورجباته مع مصالحه ومصالح عشيرته .. مع كل شارة غير شارة الإسلام ، ومع كل دافع إلا العبودية لله .. وتحقيق سلطانه في الأرض ، وطرد سلطان الطواغيت المقتصبين لسلطان الله .

• • •

نحن هنا لا نودخ لمهدى الصومال .. لقد ظهر الرجل في هذه الفترة التي أعقبت وفاة مهدي السودان .. وحمل أعباء الجهاد في وطنه ضد أربع دول من دول العدوان .. كان في جهاده بطلا .. وكان تاريخ حياته - بالبطولة حاقلا .. وقد مات في إحدى المعارك شهيداً ..

بهذا الإيمان والاستبسال والجرأة كان يحارب للمهدي الصومالي . لقد استأنى « الملا » أو « الشيخ المجنون » كما وصفه الإنجليز على كل إغراء عرفته الدنيا ، إن الرجل « مجنون » فعلا .. ولكنه جنون المحب العاشق لدينه ووطنه ، وكل المثل العليا ..

لقد أيقنت دول الاستعمار - بعد هذه المحاولات الفاشلة في حصد شوكة الإسلام - أن القتال والسيف يزيدان جذوة الجهاد والاستشهاد في القلوب تأججاً . والحل الوحيد هو تجريد هذه من هذا السلاح .. « دينياً »

وكانت الحركة « القاديانية » هي الحل الديني الذي تبحث عنه بريطانيا . لقد ولد للميرزا غلام أحمد القادياني عام ١٨٣٩م أو عام ١٨٤٠م كان مولده في هذا القرن الذي اشتدت فيه حركات الجهاد في العالم الإسلامي كله . كان العالم الإسلامي - في ذلك الوقت - أشبه ببركان يقلف حممه وقد شهدت بلاد الهند - موطن رأسه - العديد من هذه الثورات التي حصل المسلمون فيها عبء هذا الجهاد ومغارمه .

وكانت بلاد الهند - مع بعدها في المشرق - تتجاوز مع كل صدى قريب أو بعيد من الدعوات الإسلامية في بلاد العرب ، فسرعان ما ظهرت دعوة ابن عبد الوهاب بجزيرة العرب حتى تردد صداها في البنغال ، واتبعتها طائفة الفرائضية بنصوصها الحرفية فاعتبرت الهند دار حرب إلى أن تدين بحكم الشريعة ، ثم تردد صدى هذه الدعوات في البنجاب بزعامة السيد أحمد اليربلى الذى حمل لواء الجهاد لنفس الغرض والغاية (١٢) .

وترامت إلى الهند أنباء الدعوة المهدية في السودان ، وبخاصة بعد وقعة «هيكس» (١٣) . وانهمز القائل الإنجليزي فيها ، فقد حذر الإنجليز من مغبة هذه الدعوة ، ونشروا في أرجاء الهند مئات الألوف من فتاوى العلماء المنكرين لها (١٤) . وقد ذكرت مجلة العروة الوثقى - بعد تعليقها - على تلك الانتصارات التى أحرزها للمهدى ضد الإنجليز أن : «هذه الصدمات المتتالية كشفت بعض الستار ، وشف بها الحجاب ، وأحدثت هزة في قلوب الهنديين فكسر النوابون والرجاوات عن أنبيائهم ، وانتشرت أخبار المصائب التى حلت بالجيوش الإنجليزية في جميع أرجاء الهند فترى الناس زرافات وفرادى يتناجون في هذه المسألة ، يستطلعون سوانح القمص . خصوصاً للمسلمين فيهم ، كما أنبأتنا به الرسائل الواردة إلينا من أقطار مختلفة من البلاد الهندية ، ونظن أن الدولة الإنجليزية وعياد قوتها الإيهام والتخريب يصعب عليها بعد الآن أن تعيد منزلتها الأولى في نفوس الشرقيين . خصوصاً إذا أفضت حوادث الخرطوم إلى قتل غوردون ، أو أسره . لقد أخذ الاعتقاد

(١٢) الإسلام في القرن العشرين - خامس المقاد - ص ٦٩ .

(١٣) كان الجبرال «هيكس» أحد القواد المشهورين في الجيش البريطانى ، وقد كان هذا الجبرال على

رأس جيش كبير مهمته القضاء على المهدى السودانى . ولكن المهدى قضى على هذا الجيش كله . وكان

«هيكس» وأركان حربه من بين المقتلى انظر «حفرية وتاريخ السودان» ص ٧٢٤

(١٤) الإسلام في القرن العشرين ص ٦٩ .

بـ « محمد أحمد » سيلا في قلوب الهنديين . حتى كتب إلينا أحد أصدقائنا في
« لاهور » أن محمد أحمد لو كان دجالاً لأوجبت علينا الضرورة أن نعتقه مهدياً ،
وإلا نفرط في شيء مما يؤيده ^(١٥) .

وفي مكان آخر قالت العروة الوثقى :

« إن انتفاض الهند على الإنجليز في هذه الأيام أقرب . فإن خواطر المسلمين من
سكانه في هياج شديد بسبب ما شاع بينهم من دعوة محمد أحمد الوداني وبما
يكن في أهوائهم من الميل إلى تصديقه ، وتريد دولة إنجلترا أن تصد المسلمين عن
حج بيت الله الحرام حتى لاتصل أنباء محمد أحمد ، وتورط الإنجليز في مقاومته
إلى مسامع الهنديين ، ولكن سيحصل هذه الأخبار إلى تلك الأقطار حجاج
الأفغانيين والبلوجيين الذين يسلكون إلى الحج طريق البصرة بل يبلغونها على وجه
أبلغ مما لو سمعوها بآذانهم ^(١٦) .

وفي « سيلان » ^(١٧) حيث كان الزعيم المصري « أحمد عرابي باشا » منفياً .
ذهب اللورد « روزبري » واللورد « ماكدونالد » لمقابلته بجهة « متوال » وبعد هنية
دار بينهم الحديث حول حركة « محمد أحمد المهدي » على النحو التالي :

اللورد روزبري : ما رأيكم في دعوة محمد أحمد المهدي .. وهل هو المهدي المتظر
عند المسلمين ؟

عراي باشا : وماذا يعنيكم من أمره ؟

اللورد روزبري : إن أمره يهمنا كثيراً ، فإن لنا في الهند ستين مليوناً من المسلمين
وكلهم يعتقد أن المهدي المتظر يجمع شمل المسلمين .

(١٥) العروة الوثقى - ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(١٦) العروة الوثقى ص ٢٨٣ .

(١٧) أصبح اسمها الآن « سيرالانكا » .

عراي باشا : إن هذا الاعتقاد يعتقد به كل مسلم

اللورد روزبري : إذن ليس هو مهدي .

عراي باشا : كل داع إلى العدل والإصلاح فهو مهدي ..

اللورد روزبري : إن الحكومة المصرية أرسلت جيشاً من عشرين ألفاً لقتاله بقيادة

رجل إنجليزي اسمه « هيكس » فهل ترون أن هذا الجيش يكفي

للتغلب على المهدي ؟

عراي باشا : نحن نرى أن وجود قائد إنجليزي على رأس جيش مصري يكون

من مصالح المهدي . فإنه يحكم بكفر المصريين للذين يقاتلون

إخوانهم المسلمين تحت قيادة مسيحية . ويستبيح قتلهم بسبب

هذه القيادة . وإذا استولى على أسلحة هذا الجيش وذخيرته

أصبح قوياً يخشى جانبه .

اللورد روزبري : أي علاج في نظركم لإطفاء ثورته ؟

عراي باشا : إننا نرى أنه قائم بالدعوة الدينية وعلاجها أن يرسل إليه وقدماً من

أجلاء العلماء بحاجونه بالبرهان ويقنعونه بالحسنى فيما جاء

بدعوته (١٨) .

لقد ظهر المرزا غلام أحمد في هذه الظروف العصيبة التي كانت تمر بها

بريطانيا . وأعلن دعوته التي أثارت عليه سخط المسلمين في كل الدنيا ..

لقد كتب يقول في كتابه « تزييق القلوب » المطبوع بقاديان في ٢٨ من أكتوبر

١٩٠٢م بعنوان « عريضة متواضعة إلى جناب الحكومة السامية » ما يأتي :

لا أزل منذ عشرين عاماً - أي في سنة ١٨٨٢م - بعد عام واحد من إعلان

المهدي السوداني ثورته - لا أزال أنشر بدافع من الحملة القلبية كجاً باللغات

الفارسية والعربية والإنجليزية والأردية أكرر فيها مرة بعد مرة أن المسلمين من واجهم

(١٨) مهدي هـ . ص ٦٠٧ . ١٠٨

الذين يكونون آتمين عند الله أن تركوه .. أن يكونوا مخلصين أوفياء لهذه الحكومة ،
ويكفوا أيديهم عن الجهاد .. ويتخلوا عن فكرة المهدي السفاح وما إلى ذلك من
الظنون الواهية^(١٩) .

لقد قضيت معظم عمري في تأييد الحكومة الإنجليزية ونصرتها ، وألفت في منع
الجهاد ، ووجوب طاعة أولى الأمر الإنجليزية من الكتب والإعلانات والنشرات
مالوجع بعضها إلى بعض للأخمين خزانة ، وكان هدفي دائماً أن يصبح
للمسلمون مخلصين لهذه الحكومة ، وتمحي من قلوبهم قصص المهدي السفاح والمسيح
السفاح ، والأحكام التي تبث فيهم عاطفة الجهاد ، وتفسد قلوب الحق^(٢٠) .
وإني لعلّ يقين بأنه بقدر ما يكثر من أتباعي بقدر ما يقل المعتقدون بمسألة الجهاد
المقدس .. فإن مجرد الإيمان بي كالمسيح والمهدي هو إنكار للجهاد^(٢١) .

إن العمل المهم الذي أنا منصرف إليه بلساني وقلبي منذ أول عهدي بهذه الحياة
إلى هذا اليوم وأنا ابن الستين .. هو أن أصرف قلوب المسلمين إلى طريق الحب
والولاء والإخلاص والوفاء الخالص الصادق للحكومة الإنجليزية ، وأزيل عن
نفوس مفهاتهم الأوهام الخاطئة كالجهاد^(٢٢) وغيره .. ! إن الدنيا تعتبرنا عملاء
للإنجليز .. وعندما اشترك أحد وزراء ألمانيا - في افتتاح العمارة الأحمدية - سأله
حكومته : لماذا اشتركت في مناسبة تخص جماعة هم عملاء للإنجليز ؟
والواقع .. أن الحكومة البريطانية جنة لنا .. ولا تزال الجماعة الأحمدية تتقدم

(١٩) ماهي القاديانية - تأليف العلامة المودودي - ص ٩٣ - ط دار القلم الكويتية ١٣٨٩ هـ وانظر في
هذا أيضاً : القادياني والقاديانية للفكر الإسلامي أبو الحسن الندوي د ص ٩٦ . ط الدار السعودية - الطبعة
الرابعة ١٣٩١ هـ .

(٢٠) القادياني والقاديانية ص ٩٧ .

(٢١) ماهي القاديانية ؟ ص ٩٨ .

(٢٢) المصدر السابق ص ٩٧ .

تحت ظلها .. فإذا نعيم هذه الجنة قليلا .. فتعلمون كيف يتزل على رؤوسكم مطر
مخيف من سهام المسومة .. لقد اتحدت مصالحها مع مصالحنا ، وما هلاكها إلا
هلاكتنا (٢٣) ؟

لقد ولد الميرزا ، في عام ١٨٣٩م أو في عام ١٨٤٠ ، وتوفي في مايو سنة
١٩٠٨ . كانت فترة من أخطر الفترات التي مر بها الإسلام في تاريخه كله هجوم من
الشرق والغرب ، غزو من الشمال والجنوب ، تأمر في الداخل والخارج .. لقد
أحاط الاستعمار بالإسلام إحاطة السوار بالمعصم .. وكان الحل الوحيد والأمثل ..
هو الجهاد ضد هذا الغزو المسلح .

(٢٣) ماهي لقادبانة ؟ ص ١٠١ .

وقد خطب بشو القين عمود - بن المرزا غلام أحمد - وخطبته الثاني في خطاب ألقاه بمناسبة زيارة أمير
ويلز للهند سنة ١٩٣١م فقال :

« يا مجل ملكنا العظيم ، وويل عهد للملكة البريطانية .. »

أنا إمام الجماعة الأحمدية .. وخطبة مؤسسها المسيح للوهود عليه السلام أرحب بك بالنبابة عن أفراد
الجماعة الأحمدية ، وأؤكد لك بأن الجماعة الأحمدية هي ودية مخلصه للحكومة البريطانية . إن عواطف المحبة
والاحترام والود التي تضررها الجماعة الأحمدية للتاج البريطاني لا يقدرها إلا الذين يكونون قد حبل بينهم وبين
عزيز للسيم . بحال من الفراق والمجيران ، وبعد طول انتظار . فإذا بذلك العزيز الذي شغل حبه قلوبهم بأنهم
فيصل المجيران بالوصال ، والذين باللقاء .. ١
باسم الأمير المحترم ..

إن هذه الجماعة لم تحل مصائب شتى على مدى ثلاثين عاماً أو أكثر بأيدى أعدائها وفجورها بسبب طاعتهم
وولائهم لجنسك المحترمة للكلية فيكوريا . وبعدما جعلك العظيم الإمبراطور السابق إدوارد .. ثم والدك المحترم
الإمبراطور الحالي .

إن منتج هذه الجماعة منذ تأسيسها أن تطيح الحكومة القائمة . وأن تنمذ عن أعمال القتل والفساد - أي عن
الجهاد - وأن تؤسسها عليه السلام كان قد وضع ضمن شروط المباينة التي لا يمكن للمرء أن ينضم للجماعة
بدونها ضرورة أن يتعهد الشخص بأن يطيح الحكومة القائمة .
ولمّا اجتب أعضاء هذه الجماعة دائماً القتل والفساد وأصبحوا أسوة وقنوة للآخرين ..

• ماهي لقادبانة .. ص ١٣ ، ص ١٤

الذين يكونون آتمين عند الله أن تركوه .. أن يكونوا مخلصين أوفياء لهذه الحكومة ،
ويكفوا أيديهم عن الجهاد .. ويتخلوا عن فكرة المهدي السفاح وما إلى ذلك من
الظنون الواهية^(١٩) .

لقد قضيت معظم عمري في تأييد الحكومة الإنجليزية ونصرتها ، وألفت في منع
الجهاد ، ووجوب طاعة أولى الأمر الإنجليزية من الكتب والإعلانات والتشرات
مالمالوجم بعضها إلى بعض للأخمين خزنة ، وكان هدفي دائماً أن يصبح
المسلمون مخلصين لهذه الحكومة ، ونمحي من قلوبهم قصص المهدي السفاح والمسيح
السفاح ، والأحكام التي تبث فيهم عاطفة الجهاد ، وتفسد قلوب الحق^(٢٠) .
ولني لعل يقين بأنه بقدر ما يكثر من أتباعي بقدر ما يقل المعتقدون بمسألة الجهاد
للقس .. فإن مجرد الإيمان بي كالمسيح والمهدي هو إنكار للجهاد^(٢١) .

إن العمل اللهم الذي أنا منصرف إليه بلساني وقلبي منذ أول عهدي بهذه الحياة
إلى هذا اليوم وأنا ابن الستين .. هو أن أصرف قلوب المسلمين إلى طريق الحب
والولاء والإخلاص والوفاء الخالص الصادق للحكومة الإنجليزية ، وأزيل عن
قوس سفهائهم الأوهام الخاطئة كالجهاد^(٢٢) وغيره .. ! إن الدنيا تعتبرنا عملاء
للإنجليز .. وعلمنا اشترك أحد وزراء ألمانيا - في افتتاح العمارة الأحمدية - سأله
حكومته : لماذا اشتركت في مناسبة تخص جماعة هم عملاء للإنجليز ؟
والواقع .. أن الحكومة البريطانية جنة لنا .. ولا تزال الجماعة الأحمدية تتقدم

(١٩) ماهي القاديانية - تأليف العلامة المودودي - ص ٩٣ - ط دار القلم الكويتية ١٣٨٩هـ وانظر في
هذا أيضاً : القادياني والقاديانية للمفكر الإسلامي أبو الحسن الندوي د ص ٩٦ . ط الدار السعودية - الطبعة
الرابعة ١٣٩١هـ .

(٢٠) القادياني والقاديانية ص ٩٧ .

(٢١) ماهي القاديانية ؟ ص ٩٨ .

(٢٢) المصدر السابق ص ٩٧ .

نحت ظلها .. فإذا نحيتم هذه الجنة قليلا .. فتعلمون كيف يتزل على رؤوسكم مطر
خفيف من سهام السمومة .. لقد احدث مصالحها مع مصالحنا ، وما هلاكها إلا
هلاكتنا (٢٣) ؟

لقد ولد الميرزا ، في عام ١٨٣٩م أو في عام ١٨٤٠ ، وتوفي في مايو سنة
١٩٠٨ . كانت فترة من أخطر الفترات التي مر بها الإسلام في تاريخه كله هجوم من
الشرق والغرب ، غزو من الشمال والجنوب ، تأمر في الداخل والخارج .. لقد
أحاط الاستعمار بالإسلام إحاطة السوار بالمعصم .. وكان الحل الوحيد والأمل ..
هو الجهاد ضد هذا الغزو المسلح .

(٢٣) ماضي القادبانة ٢ ص ١٠١ .

وقد خطب بشو القين محمود - بن الرزاغلام أحمد - وخليفته الثاني في خطاب ألقاه بمناسبة زيارة أمير
ويلز للهند سنة ١٩٣١م فقال :

«يا مجل ملكنا العظيم ، دول عهد المملكة البريطانية ..

أنا إمام الجماعة الأحمدية .. وخليفة مؤسسها المسيح للعودة عليه السلام أرحب بك بالنيابة عن أفراد
الجماعة الأحمدية ، وأؤكد لك بأن الجماعة الأحمدية هي ودية عظيمة للحكومة البريطانية . إن مواطني المحبة
والاحترام والود التي تصدرها الجماعة الأحمدية للتاج البريطاني لا يقصرها إلا الذين يكونون قد حبل بينهم وبين
عزيز للقيم . مجتهد من العراق والمجربان ، وبعد طول انتظار . فإذا بذلك العزيز الذي شغل حبه قلوبهم بأنهم
ليهدل للمجربان بالوصال ، والذين باللقاء .. ا
باسم الأمير المحترم ..

إن هذه الجماعة تحملت مصائب شتى على مدى ثلاثين عاماً أو أكثر بأبلى أعدائها وفوقها بسبب طاعتهم
وولائهم لجنتك المحترمة الملكة فيكتوريا .. وسطها جنتك العظيم الإمبراطور السابق إدوارد .. ثم الملك المحترم
الإمبراطور الحاضر .

إن منبر هذه الجماعة منذ تأسيسها أن تطيح الحكومة للقائمة ، وأن تمتد عن أعمال الفتنه والفساد - أي عن
الجهاد - وأن تؤسسها عليه السلام كان قد وضع ضمن شروط المبايعه التي لا يمكن للمرء أن ينضم للجماعة
بدونها ضرورة أن يتعهد الشخص بأن يطيح الحكومة القائمة .
ولمنا اجتب أعضاء هذه الجماعة دائماً الفتنه والفساد وأنصبوا أسوة وقوة للآخرين ..

• ماضي القادبانة .. ص ١٣ ، ص ١٤ .

وقد نهض بهذا الواجب المقدس رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . حدث ذلك في الهند وفي بلاد الأفغان ، وفي السودان ومصر . وفي الصومال ونيجيريا وفي شرق وشمال أفريقيا . . .

لقد انخفض الإسلام في كل مكان من الدنيا . . وقد فشل الاستعمار في بعض محاولاته حيناً ، ونجح في أكثر هذه المحاولات أحياناً . . إلا أن الجذوة المقدسة ظلت مشتعلة ، والرغبة الأكيدة في الجهاد بقيت قائمة ، والترصص بالاستعمار للقضاء عليه لم يفتر لحظة . لقد أصبح الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة . إنه جهاد يفرضه الدفاع عن العقيدة ، وجهاد يفرضه الدفاع عن الوطن . وجهاد يفرضه الدفاع عن المعرض . . وجهاد يفرضه الدفاع عن الإنسانية التي أهدر الاستعمار كرامتها فوق كل أرض .

وفي هذا الوقت ظهر الميرزا ، وأعلن دعوته التي أسخطت عليه المسلمين في كل الدنيا وقدم الحل الأمثل الذي كانت تبحث عنه بريطانيا .

لقد كان الرجل - كما يقول العلامة إقبال - يعتقد أن بهاء الإسلام ومجده في حياة العبودية ، وأن سعادة المسلمين في أن يظلوا محكومين أذلاء . . إنه كان يعد حكومة الأجانب رحمة إلهية . لقد رفض الرجل حول الكنية ومضى لسيله .

الفهرس

الصفحة

٥	مقدمة : السودان
١٧	الفصل الأول : المهدي السوداني نشأته وثقافته
٤٣	الفصل الثاني : التيارات الإسلامية التي كانت سائدة في عصره
١٠١	الفصل الثالث : الظروف السياسية والاجتماعية التي رافقت ظهوره
١٣١	الفصل الرابع : كيف صار مهدياً
١٦١	الفصل الخامس : الجهاد والثورة
٢٠٨	الفصل السادس : المهدي السلفي
٢٣٢	الفصل السابع : المهدي السوداني في ميزان الإسلام
٢٥٨	الفصل الثامن : صدى حركة المهدي السوداني

٢٠٠٦/١٤١٠هـ	رقم الإصدار
977-241-369-369-8	التوزيع الدولي I.S.B.N

كتب أخرى للمؤلف

- الإسلام وخرافة السيف .
- الزحف إلى مكة .
- لماذا يخافون الإسلام؟
- حول العالم الإسلامي في ثلاثين عامًا .
- صوت الإسلام يرتفع من موسكو .
- خطاب مفتوح إلى الرئيس الأمريكى .
- الإسلام دين الحياة .
- إجابات حاسمة على الأخت الفرنسية المسلمة .
- أبو جهل يظهر فى بلاد الغرب .
- كيف أرى الله؟
- حتى لا تُخدع!
- أفيقوا قبل أن تدفعوا الجزية .
- الأزهر إلى أين؟
- رسالة إلى البابا والفاثيكان .
- التزوير المقدس .
- حوار مع طالبات جامعة "سان دى فتنس" .
- حوار صريح بين عبدالله وعبد المسيح .
- الحوار بين الأديان : أسرارته وخفائيه .